محمد الحديدى

خفايا المستقبل

إلى أين تمضي البشرية ..

وأين موقعنا ..

مركز الحضارة العربية

خفايا المستقبل

إلى أين تمضي البشرية ؟
وأين موقعنا ؟

محمد الحديدي

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩

رقم الإيداع ١١٣١٧٠ / ٩٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-291-164-7



◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

محمد الحديدي

خفايا المستقبل

إلى أين تمضي البشرية ؟
وأين موقعنا ؟



إهداء

إلى ..

كريم الحديدى

زينة الحاضر

ونور المستقبل ..

كلمة أولى

عن الحضارة

إذا كانت فى هذا الكون ظاهرة واحدة ثابتة لا تتغير فهى التغير .كل شىء وكل كائن فيه آخذ فى التغير ، فى كل نقطة فى الفضاء وكل ثانية فى الزمن ، فى أنحاء كل مجرة وفى أعماق كل ذرة ، . . .

وفى جوارح كل إنسان أيضًا .

أنت وأنا ، نحن ما كناه أمس ، ولكننا لسنا نحن . قد أضيفت إلينا سلسلة طويلة من الأحداث ، والأحداث هى الحياة ، بكل مكوناتها .

فى كل ثانية ، يولد أناس ويموت آخرون ، ويتغير موضع الكوكب فى الكون ، ويتغير هواؤه ودرجة حرارته وأحوال سكانه من كل الأنواع ، وكذلك أفكارهم وأحاسيسهم وأمزجتهم ومعارفهم وكل شىء فيهم ، وبمعدل هو نفسه آخذ فى التزايد .

فى أواسط القرن العشرين ، كتب واحد من كبار مفكريه "لقد تغيرت الدنيا فى السنوات الخمسين الأخيرة أكثر مما تغيرت على مدى أربعة آلاف سنة سابقة لها" - وقد كان هذا قبل انتشار الكمبيوتر وغزو الفضاء ، فانظر ماحدث بعد ذلك فى نصف هذه المدة !

هذا هو موضوع هذا الكتاب ، إلى أين تمضى بنا الأحداث ؟ ثم . . . من نحن ؟ ما غاية وجودنا ؟ "نحن" كبشر ، و"نحن" كفئة من البشر ، كحضارة ، أو "ثقافة" أو "مدنية" ، كما ترى . وسوف نأتى لهذه التعبيرات المتشابكة ونحاول معًا أن نخرج بشىء منها .

ما هي العوامل الفعالة في هذا التغير ، وكيف نتأثر بها ونؤثر فيها ؟

هناك أحداث كونية لا حيلة للبشر فيها ، كالزلازل والفيضانات المدمرة، وهذه تظل أحداثًا عابرة في عمر البشرية ، وقد سبق أن تلقت الأرض صدمات هائلة من أجرام سابحة في الفضاء ، كادت تمحو كل أثر للحياة من فوق سطحها ، ندعو الله ألا يحدث شيء كهذا ، وحتى إذا أوشك أن يحدث ، ستكون في حوزة "الكبار" - فيما يقال ، وسنأتي لذلك - الوسيلة التي يمكن بها درء الكارثة أو الحد منها .

فيما عدا ذلك ، وعلى مستوى الأقوام والحضارات ، ماهي العوامل البالغة التأثير ؟ قد يفيدنا هنا أن نستخدم تعريفًا للحضارة ، "حالة الإنسان" ، كما قيل ، وهناك تعاريف متعددة (وسنأتي لها ولأصحابها في سياق الحديث) ، ونظن أن الذي سنأخذ به في هذه اللحظة قد يكون أكثرها مناسبة لأهدافنا في هذه المقدمة ، باذلين أقصى جهد في طاقتنا لتحقيق الدقة مع الحفاظ على وضوح المفهوم : «الحضارة ، (أو ربما : المدنية) هي نظام اجتماعي يؤدي إلى الخلق (بتسكين اللام) الثقافي (أو ربما : الحضاري ، إذا فضلنا المدنية ، وأنا أفضلها ولكنني لن أصر على ذلك) ، وهي تتكون من أربعة عناصر : نشاط اقتصادي يوفر متطلبات الحياة أو المعيشة ، ومنظومة سياسية ، ومواثيق (أو تقاليد) أخلاقية ، واطّلاب (بتشديد الطاء وكسرها) المعرفة والفنون . وهي تبدأ حيث تنتهي الفوضى وانعدام الأمان . عندما يتغلب الإنسان على الخوف ، تنطلق في أعماقه روح الفضول والنزعة البناءة ، وينتقل بهذه الدوافع الغريزية نحو إدراك الحياة والرغبة في تجميلها" .

قد تتسنى ترجمة أفضل من هذه ، فقط ستكون أدق ولكنها أصعب أو أكثر غموضًا ، أو بالعكس ، أوضح مع التضحية بشيء من الدقة . أظن أن

هذا يكفي لتحقيق أهدافنا في هذا الموضع ، وسوف يتسنى لنا المزيد من الحديث عن كل هذا فيما بعد .الذى يهمنى الآن ، هو ما يلى :

– استخدام هذا التعريف ، ومعه كل ما سآتى به من اقتباسات من أقوال الحكماء والعلماء والأدباء ،لا يعنى أىّ من هذا أننى آتى به لأفرضه على القارئ ولا أننى مؤمن بصحته أنا نفسى ، ولا حتى أننى مدرك له تمامًا !

وإنما أورده لمزيج من التأثر به ، والانفعال بالموقف ، ولعلى أود أن أذكر هنا – دون أن أشغل القارئ بشخصى ، فهو ليس موضوعنا بأى درجة – إننى بدأت حياتى شاعرًا ومازلت مصاحبًا لهذا المزاج ، وإن كنت أشارك أبا العلاء المعرى فى مقولته فى رسالة الغفران : "... إننى منذ سنوات ، قد أقلعت عن تلك الهنوات"

– هدفنا فى هذا الكتاب هو استطلاع خفايا المستقبل وأين ينتظر أن يكون موقعنا منها ، نحن ؟ نحن "سكان العالم الثالث" كما أسمونا فى زمن الحرب الباردة . هذا الهدف لا يتضمن بأى حال إصدار الأحكام أو تقييم البلدان أو الشعوب ، ولا أيضًا الإتيان بحلول للمشكلات أو مقترحات بشأن ذلك . وعندما نقول : العالم المتقدم ، أو المتطور ، أو الصناعى ، فإننا لا نقصد بذلك مدحًا ولا نقوله إعجابًا ، نحن فقط فى حاجة إلى الإشارة إلى الجزء من سطح هذا الكوكب الذى يمضى فى التغير بتلك السرعة المتزايدة ، بفعل عوامل التغير التى نرى أن على رأسها : المعرفة ، وما ينتج عنها من وسائل جديدة لممارسة الحياة . وعندما نتحدث عن تطور الممارسات الاجتماعية أوالأخلاقية فى الجزء المتطور من العالم فإننا لا نعدو أن نصف الأوضاع من باب التاريخ وجمع الحقائق واستخلاص المؤشرات ، دون أن نصدر أحكامًا من نوع : هذا خير وهذا شر ، أو هذا حسن وهذا قبيح ، مهما كان رأينا فى هذا كله فهو ليسَ موضوعنا .

من وجهة نظر معينة ، هذا كتاب في علم الإدارة ، وربما يكون ما يسميه علماؤها "دراسة الحالات" . وقد شاء لي الله أن أشتغل بتنمية الإدارة والموارد البشرية ما يزيد على أربعين سنة وأن أكتب وأترجم آلاف الصفحات في علومها وأقوم بتدريسها للمئات من المجموعات والفصول والفرق ، وسيجد القارئ تحت عنوان "الإدارة العلمية" في هذا الكتاب مزيداً من الحديث عن هذا . الذى يهمنا الآن هو أن الفارق كله يأتى من الحنكة والإخلاص فى إدارة المجتمعات ، وهما صفتان يندر أن تتوفر إحداهما فيمن يتصدون لهذه المسئولية فضلاً عن أن تتوفر كلتاهما . ما الذى يجعل روسيا ما هى عليه مع مواردها الهائلة ؟ وما الذى جعل نصف ألمانيا هكذا ونصفها الثانى كذلك ؟ إنها الإدارة . والإدارة منظومات ، وبشر ينفذون هذه المنظومات ، بالكفاءة ، وبالجودة ، وبالامتياز، الأمم ترقى بهذا وليس بما قال عنه واحد من مشاهير الصحافة عندنا ذات يوم ، من أنه : لما كان من الصعب أن نتقدم فى العلوم والتكنولوجيا فالحل إذن أن نعوض هذا بأن نتقدم اجتماعيًا . الذى أراه أن هذا يشبه الطبيب الذى يعود مريضًا تفترسه الحمى ليقول له : مادمت لن تستطيع الحصول على الدواء فالحل إذن هو أن تضع حجابًا تحت إبطك . هذا وذاك شعوذة وبلاهة واستهانة ، ليس هناك بديل عن العمل ، الفكر ، والأداء ، والسعى نحو الامتياز ، أما خداع الجماهير بالأيديولوجيات واستفزاز عواطف الغيرة ومشاعر الحرمان التى تحركها ، فهو طريق يحقق الأهداف طبعًا ، فقط أهداف من ؟ أهداف الراغبين فى السلطة وتجويع الشعوب من أجل الوصول إلى مواقعها .

يعود بنا هذا إلى التعريف الذى أوردناه فيما سبق ، الحضارة تقوم على "النشاط الاقتصادى ، تليه المنظومة السياسية ، ثم المواثيق الأخلاقية ، ثم المعرفة والفنون .

سنتخذ من هذا التعريف منهاجًا لحديثنا . وهو يتكون في حقيقة الأمر من مجموعة من المقالات التي نشرتها في بعض المجلات الثقافية ، أغلبه جاء في مجلة "العربي" الكويتية ، على مدى السنتين الأخيرتين ، ثم رأيت أن أجمع هذه المتفرقات في كتاب ، وبذلت ما أمكنني من جهد في تنسيقها وإيجاد الروابط بينها ، وحذف ما كان وقت ظهوره أنباء قد تهم القراء ، وإضافة تفاصيل تهم من يقرأ كتابًا لا مقالاً محدود الحجم . حقًا ! ما أفدح الثمن ، وما أدمى المآسي ، وما أعمق الجراح وأقسى الأحزان ، التي تحملتها البشرية من أجل أطماع الراغبين في التسلط ، من أفاقين ودجالين تسميهم كتب التاريخ أباطرة وفاتحين وقادة وعظماء ! حتى هذا اليوم الذي نحن فيه، يوجد أدعياء الألوهية والنبوة ، وأبطال القومية والعدالة الاجتماعية والعنصرية والعنجهية ... كل شيء إلا الحكمة والإدارة والمعرفة والرخاء والسعادة ، الواقع أن نوع الحكام والمتسلطين الذي يريد أن يتأله ، هو ذات النوع الذي يهمه ويفيده أن يجوع الناس ويبتئسوا ، لكي يسهل عليه أن يستغل أوجاعهم في تأليبهم وتسخيرهم في معركة خاسرة أو مشروع وهمي .

إن كان هناك خير في الحضارة التي يتجه نحوها العالم اليوم، فإنه يتمثل في تطهير العالم من هذا النوع من الحكام ، والذي يريد الخير لشعبه عليه فقط أن يظهر ذلك، إذ أنه لا سبيل إلى معاونة أناس ليسوا حريصين على صالحهم، ودون أن يولوا عليهم من هو أكثر حرصًا على خيرهم من أي قوى خارجية ، لم يعد العالم المتطور يحترم الدجل السياسي وخداع الجماهير ، ونحن مقبلون على حقبة ستكون فيها الإمارة والوزارة وظائف مهمتها الإدارة والتجارة ، وليس البحث عن قضية تلهب حماس الجماهير ، وإلقاء الخطب التي تستفز عواطفهم من أجل الاستيلاء على ثمار جهودهم

وتبديدها فى المغامرات والحروب ، وعلى أجسادهم ونفوسهم لاستغلالها فى هذا وفى غيره ، وإصابة المجتمعات بالفاقة والشكل والعاهات والتعاسة وانفصام الشخصية ، من أجل أن يمارس المتسلطون أحلامهم الصبيانية فى أمجاد لا وجود لها إلا فى مخيلاتهم ، وهم عندما يدركون أنهم قد فشلوا – وعادة يمر وقت طويل قبل أن يتحقق لهم ذلك ، فإنهم ينقضون على نفس هذه الجماهير ليعاقبوها على عواقب جهلهم وبلاهتهم وافتقارهم للقدرة على إدراك مضامين الحياة ورسالتها ، وأوضاع الكون والدنيا من حولهم ..

...نشاط اقتصادى

"الملك منصب طبيعي للإنسان ، لأنا قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم . إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم . وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه لما فى الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان ، فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض ، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم ، وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم"

عبد الرحمن بن خلدون

"المقدمة" (القرن الرابع عشر الميلادى)

من الوجهة الأيديولوجية ، كنت طيلة حياتى أومن بحرية المال واقتصاد السوق ، وبأن البقاء للأصلح . وعندما كنت رئيسًا لشركة فورد ، كنت أقضى فى واشنطن ما يكاد يعادل الوقت الذى أقضيه فى مقر الشركة ، وكنت أذهب إلى العاصمة لغرض واحد فقط ، وهو أن أزيح الحكومة عن ظهورنا ، أن أبعدها عن طريقنا وأجعلها تكف أيديها عنا . كان من الطبيعي إذن أننى عندما أصبحت رئيسًا لشركة كرايزلر ، التى كانت تغرق ، وذهبت إلى واشنطن لطلب العون من الحكومة – أن يقول لى كل من حولى : "كيف يمكنك ذلك؟ كيف ستجرؤ ؟" وكنت أقول لهم : "ليس هناك طريق آخر..."

لى ياكوكا " : سيرة ذاتية" (١٩٨٤)

الإدارة العلمية ومستقبل الشعوب

في سنة ١٩٨٧ أذيع على دائرة تلفزيونية مقفلة حديث لفيلسوف فلاسفة الإدارة وحكيم حكمائها ، بيتر دراكار ، صاحب مدرسة « الإدارة بالأهداف » ، وجهه إلى مجموعة منتقاة من بيوت الأعمال والجامعات في أنحاء الولايات المتحدة ، (التي هاجر إليها من موطنه النمسا) ذكر عالم الإدارة في حديثه هذا : « إن أفضل المديرين كانوا أولئك الذين اضطلعوا بمهمة بناء الأهرام في مصر القديمة . كان الزمن المتاح لهم لإنجاز مشروعاتهم ضئيلاً ، كما كانت مواردهم العلمية ووسائل النقل والرفع محدودة وبدائية . ولكنهم برغم ذلك شيدوا أعظم وأبقى عجائب الدنيا » . ثم أضاف : « إنه لسوء الحظ لم يذكر لنا المصريون كثيراً عن أساليبهم في العمل الإداري ولم يشركوا أحداً في العلم بفنونهم . وفي هذا يتمثل الفرق بين مجرد الحصول على المعرفة الكيفية Knowhow ، وبين إرساء الممارسات التي تتحول إلى منظومات Systems نتعلمها ونعلمها للآخرين وتنتقل من جيل إلى جيل وتتطور بمضي الزمن ».

وقد كان في ذلك الوقت - بالتحديد سنة ١٩٨٦ - أن احتفلت أكاديمية الإدارة هناك بما أسموه « العيد المئوي للإدارة » ، على أساس أن نقطة البدء في إرساء مفاهيم الإدارة وعلومها كانت اجتماع الجمعية الأمريكية للمهندسين الميكانيكيين سنة ١٨٨٦ ، في ذلك الاجتماع ألقى هنري تاون - رئيس شركة إنتاج ييل وتاون وأحد مؤسسيها - بحثاً بعنوان « المهندس اقتصادياً » دعا فيه إلى الاعتراف بـ « إدارة المصانع » كفن عملي مماثل للهندسة ، تستمد منه منظومات الإنتاج ومعدلاته .

لايمكن لأحد بالطبع أن يزعم أو أن يتصور أن الإدارة بدأت بذلك الاجتماع أو أن عمرها مائة سنة ! فقد رأينا أن بناة الأهرام مارسوها على

أرفع مستوى ، كما أن القيادة الحربية وما يصاحبها من فنون التخطيط والتنظيم والمعلومات والقيادة والمتابعة – وهذه هى فنون الإدارة كلها – ترجع إلى هذه الأزمنة السحيقة أيضًا .

الإدارة الفائقة إذن شيء قديم جدًا وفى الأزمنة البعيدة كان يوجد المديرون – أو الرؤساء ، أو القادة ، وكانت توجد المؤسسات . وإذا كنا عندما أتينا لأمثلة النشاط الصناعى وجدنا أنفسنا نتحدث عن أواخر القرن الماضى ، فما ذلك إلا لأن الثورة الصناعية لم تصبح ممكنة إلا باستحداث الطاقة البخارية ، ثم جاء النمو السوقى المتسارع ، فجعل الثورة الصناعية ، لا مجرد شيء ممكن ، بل ضرورى .

الإدارة ، ما هى ؟

أبسط تعريف للإدارة يمكن أن تجده ، هو أنها : « تنسيق استخدام الموارد من أجل تحقيق أهداف المؤسسة » .

وربما نضيف تعريفًا أوتصنيفًا للموارد ، فهى بشرية ، ومادية كالمواد والعدد والوسائل والمال والطاقة .. وكلها قابلة لأن تتحول من واحدة لأخرى. ثم يضاف إليها عنصر الزمن ، وهذا قد يستعاض عنه أو لا يستعاض عنه بالموارد الأخرى .

الإدارة إذن هى التنسيق بين هذا كله ، تمامًا كما يفعل قائد الأوركسترا ، فهو ينسق أداء العازفين من أجل الحصول على عمل بديع ، ولكن هذا لا يعنى أن الإدارة هى القيادة ، فالقيادة مجرد مرحلة من مراحلها المتعددة . وإذا أضفنا إلى قيادة الأوركسترا شراء الآلات الموسيقية وصيانتها وانتقاء العازفين والتعاقد معهم واستئجار المكان وبيع التذاكر والإعلان عن الحفل . إلى آخر هذه القائمة الطويلة من الأنشطة ، إذا أضفنا كل هذا حصلنا على

المراحل الأربع التى تتكون منها الإدارة كما هى فى صفحات الكتب : التخطيط والتنظيم والقيادة والمتابعة ، ولكنها فى الحياة العملية لا تمضى دائمًا بهذا الترتيب .

يقال : الإدارة العلمية ؟ المقصود ممارسة الإدارة بناء على نظريات وقواعد ومنظومات وممارسات يستنبطها علماء الإدارة من الملاحظة والخبرة والاستنتاج المنطقى . إنه حتى فى الشعر ، رأينا فطاحل العصور القديمة ينظمون المعلقات منذ العصر الجاهلى ويمضون هكذا قرونًا حتى يأتى الخليل بن أحمد ويستنبط بحور الشعر وتفعيلاته من قصائد القدماء . وفى دنيا المادة ظلت المعادن تتمدد بالحرارة منذ خلق الله المعادن والحرارة ، ثم تكررت ملاحظة هذه الظواهر وغيرها إلى أن امتلأت بها صفحات الكتب ، ومعها القواعد الماتيماطيقية التى تمثل العلاقات الكمية بين متغيراتها . فهل ينطبق هذا على الإدارة ؟ إلى حد ما ، إلى حد كبير فى الواقع . فهى لم تعد قائمة على شخصية المدير وطباعه وصفاته القيادية دون أى شىء آخر ، لم تعد قائمة على الفراسة والألمعية والكاريزما ، فقد أدت المشكلات المصاحبة لظهور الصناعة وتطورها ، ومعها مشكلات العمل والعمال والتسويق .. كل هذا أدى إلى البحث فى معدلات العمل والإنتاج ، وطاقة الآلات والبشر ، وبدأ الباحثون من أمثال المهندس الأمريكى فريدريك تايلور (١٨٥٦ - ١٩١٥) والفرنسى هنرى فايول (١٨٤١ - ١٩٢٥) يحاولون حل مشاكلهم اليومية بالغوص فى أعماقها بحثًا عن منهاج « عملى » ، أى قواعد مستنبطة من التجارب تتخذ أساسًا للقرارات فيما بعد .ويعرف تايلور بأنه « أبو الإدارة العلمية » وفايول بأنه « المهندس الفيلسوف » ، وتبع ذلك أجيال كاملة من حكماء الإدارة وفلاسفتها : إمرسون - جالبريث - سلون - مازلو - منتزبرج - دراكار - بيترز ... قائمة طويلة ومكتبات بأكملها من مؤلفاتهم وأوراقهم .

السياسة والحكم والإدارة :

في سنة ١٩٦٠ فاز جون كنيدى بترشيح الحزب الديمقراطى لمنصب الرئيس ، وكان منافسه على ذلك هو ليندون جونسون الذى كان إذ ذاك زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ الذى كان كنيدى عضواً فيه هو أيضاً وكان جونسون يرى بالطبع أنه أحق بالترشيح ، وعندما سمع نبأ فوز كنيدى به قال : « طبعًا . أنا كنت منشغلاً بإصدارالتشريعات بينما كان هو يجوب الطرقات يبوس الأطفال » . بمعنى أن كنيدى كسب الصراع داخل الحزب مستخدمًا أساليب اجتذاب الشعبية ، وليس بالعمل الحقيقى ، بقية القصة معروفة فقد فاز كنيدى فى الانتخابات وبمقعد الرئاسة وأشفق على جونسون واتخذه نائبًا له . فى أول يوم دخل كنيدى مكتبه فى الغرفة البيضاوية الشهيرة ، جلس وتلفت حوله ثم تساءل : « حسنًا . ماذا أفعل الآن ؟ » بمعنى : ذهبت السكرة وجاءت الفكرة .ومن مآسى الحياة السياسية أن المقدرات المطلوبة للوصول إلى مقاعد الحكم – هذه هى السياسة – تختلف كثيراً عن تلك المطلوبة لممارسة وحل مشكلاته – هذه هى الإدارة . لماذا تكون إدارة المؤسسات شيئًا يختلف عن إدارة الدولة والمجتمع ؟ الواقع أن إدارة الدولة هى ممارسة هذا الفن فى أعلى مستوياته .ولو عملنا « وصف وظيفة » لما هو مطلوب من الحاكم عمله فلن نجد فيها حرفًا واحداً لا يوجد فى مسئوليات مدير المؤسسة ، ولو أن الحكام جعلوا مهمتهم تحقيق « الربح » – ربح الشعوب ، بالمنافسة على الحصة السوقية وما إلى ذلك ، بدلاً من أحلام الفتوح والأمجاد ،لتحسن حال البشرية . والأمريكان يسمون رئاسة الجمهورية عندهم Administration وهى بالعربية « الإدارة » أو ربما « الشئون الإدارية » (من المؤسف أن لدينا كلمة واحدة تدل على هذه وعلى -Manage ment أيضًا ، وهما شيئان مختلفان وإن كانت الصلة وثيقة جداً بينهما ،

ولكن افتقارنا إلى المصطلحات ليس موضوعنا الآن) . وهكذا يقال : إدارة ريجان وإدارة بوش وإدارة كلينتون ، والرئيس الأمريكي يسمى The Chief Executive أى « كبير المديرين التنفيذين » ، فكلمة Executive تعنى هذا بالضبط عندما نستخدمها كاسم لا كنعت ، فهى كنعت معناها « تنفيذى » وكاسم أصلها Executive Director ، وكلمة Board of Directors تعنى « مجلس الإدارة » والعضو يصبح تنفيذيًا عندما يضطلع بمسئولية تنفيذية في المؤسسة الصناعية أو الخدمية أو المالية .. إلخ . ثم سقطت كلمة Direc- tor كما هو شائع هناك وأصبحت كلمة Executive تدل على المدير الذى يشغل وظيفة كبرى أو رئيسية فى المؤسسة . وهكذا فإن الرئيس الأمريكى هو فى منطوق هذه التسميات مدير للحكومة الفيدرالية ، أما « مجلس الإدارة » الذى « يتبعه » هذا المدير ، كما يتبع « العضو المنتدب » مجلس الإدارة ، هذا المجلس هو الكونجرس المنتخب الذى له حق إصدار القرارات رغمًا عن الرئيس بأغلبية لا تقل عن ثلثى أعضائه (لأن الرئيس يعادل ثلث الأعضاء) وقد حدث هذا لريجان عندما قرر الكونجرس مقاطعة حكومة الأقلية البيضاء فى جنوب أفريقيا برغم اعتراض رونالد ريجان وإرجاعه هذا القرار لإعادة التصويت عليه .

الحكم إذن إدارة . وإذا أردنا المزيد من الأمثلة من ذلك العصر الخطير فى تاريخ البشرية ، الستينيات من هذا القرن ، وإذا كانت المؤلفات فى الإدارة تحفل بعناوين مثل « إدارة الأزمات » و« إدارة الصراع » و« تحليل المشكلات » و« اتخاذ القرارات » ، فضع نفسك فى موضع كنيدى أثناء أزمة الصواريخ السوفيتية فى كوبا ... فى تلك الحقبة كان كنيدى مديرًا بكل مفهوم لهذه الكلمة وكان قديرًا فى إدارته لها ، وكان بالطبع محاطًا بعدد من جهابذة السياسة والاقتصاد والتاريخ من جامعة هارفارد العتيدة ، التى تعلم فيها هو

وشقيقه روبرت الذى كان وزيراً للعدل فى حكومته ، وهم يسمون الوزير : Secretary – إمعانًا فى إضفاء عباءة الإدارة على رئاسة الدولة .

سرعان ما خرج كنيدى من دائرة الإدارة ودخل دائرة السياسة ، عندما أقدم على ثلاث خطوات هائلة كانت فيها نهايته المأسوية : قانون لتجريم ممارسة التفرقة العنصرية ، ومحادثات نزع السلاح مع خروشوف وماكميلان، والتمهيدلـ « فتنمة » فيتنام والانسحاب منها . وكلها تمت بعد ذلك فى عهود رؤساء آخرين !

كان فى تلك الحقبة أيضًا أن قام وزير خارجية اليابان بزيارة لدول أوربية، وحط فى فرنسا وتقابل مع وزير خارجيتها ، ثم أبدى رغبته فى مقابلة ديجول وعندما سمع شارلمان القرن العشرين بذلك ، رفع أنفه الطويل نحو السقف كعادته ، وتساءل : « فيم يريد أن يحادثنى ، إذا كان مصراً على أنه ليس سوى بياع ترانزستور ؟ » الجنرال العظيم لا يريد أن يضيع وقته فى الحديث عن أمورفى تفاهة الاقتصاد العالمى . هذا « شغل بياعين» . أما الذى هو جدير بأوقات العظماء وإبداعاتهم الذهنية – فهو الردع النووى Force de frappe السلاح وبناء الترسانات .

حسناً ، كلنا نعرف ما حققته اليابان من بيع الترانزستور وما نعمت به شعوب العالم أيضًا . بقى أن نعرف من الذى كان سيضرب فرنسا بالسلاح الذرى ، وماذا جنت من وراء الـ « فورس دى فراب » وغير ذلك من وسائل الدمار الشامل الذى يأتى خليفته الحالى شيراك لكى يملأ بها الدنيا ذعراً وتلويثًا وسخطًا وحقداً وكراهية .

مدراء .. لا وزراء

منذ قريب وقف توميتشى موراياما رئيس وزراء اليابان السابق يعلن اعتذار بلاده عما أسماه « سياسة الاستعباد والعدوان التى جلبت البؤس

والتعاسة للعديد من الشعوب » . لقد خسرت اليابان الحرب لأول مرة في تاريخها، ولأول مرة أيضًا تهبط عليها جيوش الاحتلال بقيادة نفس الجنرال هو الذى هبط على اليابان كما هبط قمبيز على مصر ، ولكنه لم يفكر - وهو الفاتح المنتصر ، مثل قيصر في بريطانيا - لم يفكر في أن يطلق عساكره ينهبون ويغتصبون مكافأة لهم على صبرهم وبسالتهم ، ولعل القارئ رأى الفيلم الأمريكي « سايونارا » الذى يصور حرمان الضباط الأمريكيين من الزواج من اليابانيات على أنه جريمة بالغة القسوة وقد ألغيت هذه التعليمات بعد ذلك .

كان هذا هو كل ما أنزله الفاتح المنتصر بخصمه الذى قتل جنوده نصف مليون جندى أمريكي ووجهوا ضربة بيرل هاربور الشهيرة بينما الطرفان على مائدة المفاوضات . مد الجنرال يده للشعب الجريح المحطم المنهزم ، ليساعده على النهوض من بين الأنقاض ، والكثيرون منا لا يعرفون مدى الدمار المخيف الذى حل باليابان من قبل هيروشيما . وحتى بعد أن أعلن الإمبراطور قراره بالاستسلام ، كان الضباط يأتون بالمئات لينتحروا بطريقة الهاراكيرى أمام قصره ، تعبيراً عن إصرارهم على الموت .وطيارو « الكاميكازى » يقلعون في طلعات انتحارية ،حتى بعد أن انتهت الحرب ! نورد هذا تصويراً لمدى شراسة المقاتل الياباني وقوة شكيمته واستهانته بالحياة ، وبالتالى مدى التغير السيكولوجي الذى جعل الشخصية اليابانية تجتاز تحولاً تامًا ، وتصويراً لمدى تأثير عقلية الإدارة ، الـ « بيزنس » ، التى تسودالفكر الأمريكي والحياة الأمريكية بأكملها .

مدير اليابان

تحولت اليابان إذن إلى مؤسسة اقتصادية كبرى ، استحقت أن يؤلف عنها مرة كتاب عنوانه Japan Incorporated واختصارها .Inc وهو تعبير في

تصنيف الشركات مثل ليمتد (المحدودة) وأما الجاميتد Amulgamated (المدمجة) وهكذا ، يطلق على المؤسسات التجارية والصناعية وغيرها ، لهذه الكلمات مضامين قانونية ليس حديثنا مجالاً لها ، والذى يهمنا أنه بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب مع أمريكا ، وهى سنوات «إدارة» اليابان بواسطة السلطات الأمريكية وبعقليتها التى تؤمن بالـ «بيزنس» أكثر من أى شىء آخر ، كانت الرؤية Vision هى تحويل المجتمع والدولة فى اليابان من قوة نموذجها هو الإمبراطورية البريطانية، وقد كان هذا هو حلم اليابان - فهى تتكون من جزر مثل إنجلترا ، والمرور فى الشوارع على الجانب الأيسر مثلما يفعل الإنجليز - من هذا التشكيل الاستعمارى البريطانى إلى شىء لا يختلف عن شركة «فورد موتور» أو «جنرال موتورز» إلا فى حجمها الهائل، كانت الإدارة الأمريكية إذن تدرك تمامًا أن الضراوة التى يظهرها شعب اليابان فى الحروب والصراعات والشعار دائمًا :من أجل الإمبراطور ! الذى هو الرمز المقدس لليابان - هذه الضراوة والنزعة إلى العنف وقطع الرقاب ليست إلا انعكاسًا للشخصية اليابانية التى تنشأ على استعداد تام للموت من أجل الإمبراطور والوطن ، وبالتالى فالحياة عندهم زهيدة ولا قيمة لها إذا كان معناها الخنوع لأى شىء آخر .لو أن هذه الفظاظة وهذه الروح الوثابة أمكن توجيههما نحو رؤية سوية وأهداف قويمة، فسيقلع اليابانى عن هذا ويتجه بنفس التفانى والفداء نحو هذه الأهداف . والروح الأمريكية - وعلينا ألا ننسى أن أمريكا هى موطن الإدارة العلمية ، وأن ننسى ، ولو مؤقتًا ، تلك النقمة التى «يتمتع بها» هذا البلد لنفس هذه الأسباب التى سنذكرها الآن - الروح الأمريكية تنطوى على «الحلم الأمريكى» ، وهو أن يعيش كل فرد حياة كريمة ما لم يكن مجرمًا أو خارجًا على القانون ، وأن يكون لديه منزل مريح وسيارة ، وأن يتمتع بكل الحريات

الفكرية والعملية كما ينص عليها الدستور ، وأن كل من لا يحصل على ذلك لا يكون إنسانًا ينتظر منه سلوك يستحق التساوى معه . فى هذا المناخ نشأ رجال مثل آكيو موريتا ، صانع ورئيس شركة « سونى » للإلكترونيات ، ومؤلف كتاب « اليابان التى تقدر أن تقول لا » ، الذى يعبر عن تطورشخصية اليابان فى الاتجاه الذى ذكرناه ، وعن قوتها المستمدة من السطوة الاقتصادية والتكنولوجية . انتهى زمن الجنرال طوجو والأدميرال ياماموتو ، وأحفاد مشاهير الساموراى الذين قادوا ضربة بيرل هاربور وطلعات الكاميكازى ، وجاء عصر سيتشيرو هوندا وإيجى تويوتا . وأكيو موريتو . وكونوسوكى ماتشوشتيا . كان الجنرال دوجلاس ماكارثر قد اتخذ له مقراً فى مواجهة قصر الإمبراطور وأمسك بمفاتيح الإدارة والبحوث والتطوير ، شرّع دستوراً جديداً قوامه الديمقراطية ولكى يوضح مفهومها جيداً أفرج عن جميع المعتقلين السياسيين بمن فيهم الشيوعيون ، مما أدى إلى إنشاء الحزب الشيوعى اليابانى ! وقد تعلم اليابانيون درسًا جديداً فى الديمقراطية عندما رأوا ماكارثر بعد ذلك يطرد من جميع مناصبه بجرة قلم من واحد من أقل الرؤساء الأمريكيين شأنًا وأحطهم قدراً : هارى ترومان . وقد قاد اثنان من أعلام الإدارة الأمريكية حملة الجودة فى اليابان هما : إدوارد ديمنج (١٩٠٠ -١٩٩٤) وجوزيف جوران (١٩٠٤) ثم أنشأ اليابانيون جائزة للجودة باسم ديمنج .

السياسة فى دنيا الإدارة

مما يؤسف له أننا قد درجنا على استخدام الكلمة الواحدة للتعبير عن أكثر من معنى رغم توافر الاشتقاقات المهملة . وقد ذكرنا فيما سبق كلمة « الإدارة » والازدواج المحتمل فى تفسيرها ، خاصة عندما يستخرج منها

النعت : «إدارى» . فى كلمة «سياسة» سنجد أنها تؤدى ثلاثة معان متباينة . فهى تحمل مضمون التعقل أوالحكمة أوالحصافة ، فيقال «كن سياسيًا» أو «سايس أمورك» - ثم هناك السياسة بمعنى Policy فللشركة أو مؤسسة الأعمال سياسة Corporate Policy سياسة فى التوظيف والتعامل مع السوق وغير ذلك . ثم هناك السياسة بمعنى Politics وهو ما رأينا كنيدى يمارسه : إذابة قلوب النساء بتقبيل أطفالهن ، والضحك على ذقون الرجال أيضًا بالكلام المعسول . نحن نخلط بين Politics و Policy ونقول «سياسة» . الأولى مرغوبة فى إدارة المؤسسات ، والثانية ملعونة ومخيفة . وكان يجب أن نستخدم فى ترجمتها هذا الاصطلاح الشائع ، الساخر : بولوتيكا . وهذا بالضبط هو مدلولها وهذا ما قصده الشاعر الحكيم أبو العلاء المعرى عندما جمع بين هذين المعنيين فى بيت واحد كعادته ، وقال منذ ألف سنة يصف حكام زمانه وحكام كل زمن :

يسوسون الأمور بغيرعقل   وينفذ أمرهم فيقال ساسة

ينظر فلاسفة الإدارة لمؤسسة الأعمال على أنها مجتمع كامل له حضارة (أو ثقافة) يسمونها : Corporate Culture وله قيم Values وتقاليد Tradi- tions كما له رؤية Vision ومكانة مرموقة فى السوق ، Niche - الـ «نيش» هذا موضع غائر فى الحائط توضع فيه أدوات الزينة ، يسمى بالعربية «مشكاة» وهى كلمة واردة بهذا المعنى فى الكتاب الكريم «مشكاة فيها مصباح» . والإدارة مسئولة عن تحقيق صالح مجتمعها الصغير ، وعلى أن تكون له مشكاة فى السوق العالمية ، وهو ما تنعم به صناعات كثيرة أصبح طرازها يدل على النوع بأكمله .

باقترابنا من بداية القرن الحادى والعشرين ، أو - على الأصح - باقتراب أبنائنا وأحفادنا منه - وإذا بقى كل شىء على ما هو عليه ، بمعنى إذا لم

يجرنا بعض الحكام إلى مزيد من الحروب والدمار من أجل أحلام صبيانية لن تتحقق - إذا بقى كل شيء كما هو ، فسيكون كوكب الأرض قد أصبح مكانًا لاتسهل الحياة فيه . سوف تحق عليه نبوءة الفيلسوف الإنجليزى توماس مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) ، ومفادها أن الزحام سيؤدى إلى انتشار الحروب والصراعات والأوبئة ، أضف التلوث الناشئ من الدخان الذى تنفثه الطائرات فى الفضاء والسيارات والمصانع على الأرض والنفايات الكيميائية - إلى تفشى الأوبئة واستحالة التخلص من النفايات الآدمية والجثث . وكل جهد لمكافحة الفقر تجنبًا للتضخم السكانى والحروب والصراعات ،سوف يستلزم مزيداً من التصنيع ، وهذا معناه المزيد من التلوث ، وهكذا .ليس هناك سوى طريق واحد نحو تحسين حالة الكوكب ، ولا نقول إنقاذه ، فهذا قد فات أوانه . هذا الطريق هو حسن إدارة العالم واستخدام موارد الكوكب . يلزمنا تطوير سيكولوجى كالذى تحقق فى اليابان واستبعاد فكرة الحرب وتخريب المنشآت وإشعال الحرائق فى آبار النفط وبناء الترسانات النووية والجرثومية والكيميائية والمسمارية . . كل هذا من أجل إرضاء أطماع صبيانية فى أمجاد زائفة وأحلام ليست غير شرعية فحسب ، بل غير قابلة للتحقيق أصلاً . تأمل يوغوسلافيا ورواندا . . وما سيأتى . . بشاعات تفوق التصور وأجيال من الأطفال ينشأون بقلوب مليئة بالحقد وبأعضاء ممزقة تجعلهم عالة على غيرهم ، شحاذين ، ومجرمين ، ومختلين ومجانين . هذا هومصير البشرية إذا كان الشباب سيظلون يهلكون ويحترقون من أجل الحكام . الطريق هو انتفاء « الحكم » ومجىء « الإدارة » المدير ، الذى يدرك أن عمله هو توضيح « الرؤية » ورسم « السياسة » و« تحديد الأهداف » ، ثم العمل على تحقيقها بالمنافسة الواعية لا بالصراع الدموى . . لعله يتسنى فقط بقاء النوع الإنسانى ، كما نعرفه الآن .

إدارة العالم

تحسين السلوك السبيل الوحيد لإدارة الكوكب :

إذا نظرنا إلى كوكب الأرض بعين إدارية فإننا سنجده يشبه مؤسسة كبرى أخذت تتضخم وتتمدد إلى أن سادها ذلك الداء الذى يصيب المؤسسات ويجعلها تقبع كالرجل المفرط البدانة ولايمكنها حتى أن ترجع إلى ماضيها المجيد إلا بقدر ما يمكن لمثل هذا الرجل أن يتخلص من طن من الشحم . أعراض هذا الداء هى تضخم التعداد البشرى ، وانخفاض الإنتاجية وتدهور المعنويات وتفشى الأحقاد والكراهية والعنف والجريمة وفساد الأمكنة (كما يسميه صبرى موسى) . هل هناك سبيل لإدارة هذه المؤسسة المنحلة ؟ هذه هى مشكلاتها :

الانفجار السكانى :

"هيا نذهب من هنا ، هذه الجزيرة قد ازدحمت بشكل لا يطاق" البطل الخرافى بانتاجرول ، مشيراً إلى "يوتوبيا" توماس مور ، بعد أن هزم غزاة الجزيرة وأنقذ المدينة الفاضلة ثم وجد أن الزحام قد أفسد المجتمع المثالى.

فرانسوا رابيليه :

جارجانتوا وبانتاجرول : ١٥٣٢

كلمة "يوتوبيا" تتكون من مقطعين باليونانية "يو" يعني "لا" ، و"توب" يعني "مكان" ، فهي إذن المكان الذى لايوجد .ولا غرابة فى ذلك، فهى المدينة أو الجزيرة الفاضلة كما يسمونها بالعربية .المجتمع المثالى الذى يخلو تمامًا من شرور البشرية وأرذالها وبشاعاتها . جمهورية أفلاطون القائمة على مبدأ العدالة هى أيضًا يوتوبيا ولو أن هذا التعبير لم يكن قد ظهر إلى الوجود بهذا المعنى ، فقد جاء به الفيلسوف الإنجليزى القديس توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) واتخذه عنوانًا لقصة كتبها باللاتينية ظهرت سنة ١٥١٦ ، وتبعتها مؤلفات أخرى عديدة كلها تعتبر "يوتوبيات" : فرانسيس بيكون وصمويل بتلر و هـ . ج . ويلز والدوس هكسلى الذى كتب رواية بعنوان "جزيرة" فاليوتوبيا . . وهى عادة جزيرة لكى يفصلها الماء عن بقية العالم . فقط جرثومة الشر ليست فى حاجة لأن تعبر البحار ، فهى قابعة فى أعماقنا نأخذها معًا حيث نذهب . فرانسوا رابيليه (١٤٩٤ -١٥٥٣) اتخذ من جزيرة توماس مور مسرحًا لأحداث ملحمة خرافية ، بعد ١٦ سنة فقط من إنشائها ، تعرضت اليوتوبيا لغزو "الظامئين" هكذا أسماهم ، "دبسوديس" باليونانية ، ما أجمل الغزو عندما يكون الغزاة ظامئين وجياعًا ، والذى ينقضون عليه يوتوبيا . دافع البطل عن الجزيرة التى أسماها توماس مور "مدينة آموراتيس" - وهى أيضًا كلمة من اللغة اليونانية تفيد معنى الغموض والعزلة ، وهما صفتان لسكان المجتمع المثالى ، وبعد أن قتل زعيم الدبسوديس - وهو رجل ذئب - ما لبث البطل بانتاجرول (ومعناها أيضًا الظامئ الأكبر ، كل هذه شخصيات مستمدة من أساطير قديمة) ما لبث أن وجد الحياة فى هذه الجزيرة المثالية قد أصبحت شيئًا لا يطاق من الزحام ، ودعا أتباعه لأن يصحبوه فى هجرة إلى بلاد الظمأى ، فهؤلاء بعد فنائهم فى الحرب قد تركوا وراءهم عالمًا افضل :

"فى الزحمة تتلاصق الأجساد ، تتلاصق الكلمات ، يختفى العطف ، تختفى حروف العطف ، يتلاشى الوصل ، تتلاشى أسماء الوصل . الزحمة هم ثقيل أحمله فوق قلبى فوق ظهرى" .

هكذا يقول المحصل الشاعر البدين ، حبيس حافلة نقل الركاب ، فى قصة يوسف الشارونى "الزحام" - لقد جعله زحام القاهرة يأكل أنف أرملة أبيه ويفر إلى يوتوبيا المجاذيب فى العباسية . كل خُمس ثانية يستقبل كوكب الأرض مولوداً جديداً ، يحتاج إلى غذاء وماء وتحصين ضد الأوبئة وتعليم وعلاج طبى ورعاية ، ثم ، عندما يكبر، يريد عملاً يكفل معاشه . الباقى قصة مألوفة لسكان الدول النامية بصفة خاصة . جميع مشاكل الدول النامية تتفاقم كل ثانية ، لأنه فى كل ثانية يولد خمسة أطفال والزيادة دائمًا تتمثل فى هذه المناطق . تشير الدراسات إلى أنه بمجيء سنة ٢٠٢٥ - أى بعد ربع قرن فقط من الآن - سيكون تعداد سكان الأرض قد تزايد من ستة مليارات إلى ١٠ أو ١٢ مليار، أو ربما إلى أكثر من ضعف ما هو عليه الآن . سيكون ذلك مصحوبًا بنقص فى المياه الصالحة للاستهلاك الآدمى ، وتآكل فى التربة الزراعية وتزايد فى الفجوة بين الأغنياء والفقراء سواء داخل المجتمع الواحد أو بين المجتمعات ، مما يسبب تفاقم الأحقاد والكراهية والصراع . وفوق هذا كله فإن تزايد أجسام البشر معناه تكاثر كل ما يعيش عليها من جراثيم وطفيليات وحشرات وفيروسات .الواقع أن هناك تقديرات أكثر قتامة منها أن البنك الدولى يشير فى إحدى دراساته إلى ١٤ مليارا وفى الصين مثلاً ، حيث التكاثر لم يعد يحتمل ، ماتزال التقاليد فى المناطق المنعزلة تشجع على حبس أقدام الفتيات فى قوالب صلبة لكى لا تكبر ، والقضية التى تهم ليست القضاء على الخرافات ، بل تدمير تايوان ! والناس طبعًا يعجبهم ذلك لأنهم مغتاظون من فقرهم وثراء تايوان . ماذا

نفعل ؟ هناك من حاول أن يجيب على هذا السؤال منذ مائتى سنة ، توماس آخر من إنجلترا ، توماس روبرت مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) - عالم وفيلسوف اقتصادى ، نشر سنة ١٧٩٨ دراسة عنوانها : "بحث فى التزايد السكانى وأثره فى إمكانية تحسين المجتمع الإنسانى" ، ويتضمن العنوان أيضًا الرد على معارضى مالتوس (جودوين وكوندورسيه) ،خلاصة أفكاره هى أن سكان الأرض سوف يتزايدون بمتوالية هندسية بينما الموارد تتزايد بمتوالية عددية وأن هذا سيؤدى إلى أن تتفشى الحروب والجريمة والأوبئة ، إلا أن هذه الشرور ضرورة لابد منها لإيقاف هذا التزايد المهلك . أى أنه يجب أن يقع ما نخشاه لكى لا يقع ما نخشاه !

ثم نشر سنة (١٨٠٣) تعديلاً يضيف أننا قد نفيد أيضًا من ممارسة تحسين السلوك و"الانضباط المعنوى" - الواقع أن هذا يكفى لو أننا تداركنا أنفسنا . فالحروب والأوبئة قد تنقص أعداد البشر ، إلا أنها عندما تقتل منهم أعدادًا كافية سوف تترك وراءها ألوف الملايين من المرضى واليتامى وذوى العاهات والمجانين والأفاقين والمشوهين ، يعيشون فى مستنقعات من الأوحال والألغام ومزارع الجراثيم . إنصافًا لمالتوس فإنه لم يفته أن يذكر أن التقدم فى الزراعة والتكنولوجيا قد يعوق الكارثة وقد حدث هذا فعلاً ، فقط حتى متى ؟ فى ذلك الوقت كان تعداد سكان أوروبا كلها بما فيها روسيا (٢٠٠) مليونًا فقط ، وكانوا يتضاعفون كل ٢٥ سنة ، كان سكان إنجلترا يتزايدون بمعدل ١٪ سنويًا تزايد إلى ٤٪ - وكان مقدوراً لهم أن يبلغوا ٧٠ مليونًا بعد بضعة عقود فى تقدير مالتوس ، إلا أنه حدث أمران فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، أنقذا إنجلترا من المصير الذى كان يخشاه مالتوس : التحسن الكبير فى الزراعة والصناعة ، ثم هجرة الإنجليز باعداد كبيرة إلى أستراليا وكندا . لم يحدث هذا لأيرلندا مثلاً التى

دفع بها التخلف إلى مجاعة أهلكت ٢٠٪ من سكانها برغم الهجرة ، أما فى الهند فالقصة معروفة .

سوف يختلف الحال فى العالم الصناعى ، معدلات الإنجاب تتناقص والناس لا يعدون الزواج ضرورة للمعاشرة ، والمجتمع "يشيخ" بفعل تطاول الأعمار بنقص المواليد وإطالة الأعمار ، ومما يتصور أن الملايين تحاول أن تتسلل من العالم الثالث إلى هذه المناطق . مليون مكسيكى يتسللون إلى الولايات المتحدة كل سنة والحكومة فقط هى التى تعترض ، أما أصحاب المزارع فلا . ترى أى نوع من المشاكل سينشأ فى بلد هو الآن عاصمة العالم، نتيجة للفوارق المعيشية والعرقية ؟ وقد حاولت كل من الهند والصين أن تفرض حلاً لهذه المشكلة ، وكانت نتيجة ذلك فى أولى الحالتين سقوط حكومة آنديرا غاندى فى السبعينيات واعتقالها واتهامها بالفساد ، إلى جانب تطبيق حملة تعقيم الرجال على عجائز فوق الثمانين نتيجة لسوء إدارة المشروع . أما فى الصين فقد أدى فرض سياسة الطفل الواحد إلى ممارسة وأد البنات قبل ولادتهن ونشوء أجيال أغلبها من الذكور الذين هم صبية مدللون ناعمون ، لن يجدوا إناثًا ... وحتى لو وجدوا ! إن واجب الحكومة هنا هو حسن استخدام وسائل التعليم والإعلام فيما فيه خير المجتمع ولكن الحكومة لن تستطيع أن تمارس تنظيم الأسرة . السؤال هو : هل يمكنها أن تصلح من مستوى معيشة الشعب بما يجعل الآباء والأمهات يريدون أن يحافظوا على هذا التحسن ؟ يقودنا هذا إلى أنظمة الحكم وممارساته ، الكفاءة والإخلاص؟ أم الخيانة والبطش ؟

السياسة والحكم :

"كل أمير يرغب في أن يعده الناس رحيمًا لا قاسيًا ، إلا أن عليه أن يتجنب الإسراف في استعمال الرحمة . كان سيزار بورجيا يعد قاسيًا ، ولكن قسوته هي التي جلبت الاستقرار وأقرت النظام في روما ، ووحدتها ونشرت فيها السلام والولاء إذا أعددنا هذا أمرًا طيبًا ، فإننا سنجده إذن أرحم بكثير من حكام فلورنسا الذين جلبوا الخراب على بستوريا لكي يتجنبوا الاتهام بالقسوة . على الأمير إذن ألا يهمه أن يوصف بالقسوة إذا كان يمارسها بهدف الإبقاء على وحدة شعبه"

نيقولا ماكيا فيللي : "الأمير"

حسنًا ، قد يكون ابتلاء البشر بالتعاسة ثمنًا مقبولاً لاستقرار المجتمع بشرط أن يكون الحاكم أولاً راغبًا في تحقيق الخير لشعبه ، وثانيًا قادراً على تحقيقه بحنكته وكفاءته . لم نعد نرى إلا "بلطجية" يثبون على السلطة بانقلاب أو آخر ، ثم يفسدون كل شيء بجهلهم وحماقتهم ويستخدمون القسوة في الاحتفاظ بوظيفتهم الجديدة لأنهم لا يصلحون "إلا لها" كما قال أبو العتاهية ، ومنهم من رأيناه يستخرج طبنجة من جيبه ليقتل واحداً من وزرائه في اجتماع "مجلس الوزراء" ! أما الحرب فهي طبقًا لمقولة أورويل: الحرب في الخارج هي السلام في الداخل !

ترى إلى أي حد يسمح للحاكم أن يمارس القسوة لتحقيق الاستقرار؟ كان دوفالييه – الحاكم الأسبق لهايتي – يحتفظ بخصومه السياسيين في قبو في قصره وعندما يريد أن يريح أعصابه من مسئوليات الحكم فإنه يهبط إليهم ليتسلى بمشاهدة تقلصات وجوههم والاستماع إلى صرخاتهم وهم يتعذبون . اما في بعض "جمهوريات" أفريقيا ، فلعل ماكيافيلي يرى

الحكام أقل قسوة ، إنهم يأكلون خصومهم ، وبذلك يضعون حداً لعذابهم. أما عن ستالين وتلميذه تشاشيسكو ، فما عليك إلا أن تقرأ ألكسندر سولزتسين . هل كل هذا ضروري ؟ لماذا إذن تحقق الاستقرار والازدهار في بلدان كثيرة دون أن تغرس القضبان المحمية في فتحات الأجساد ودون أن يغمر الناس في أحواض الأحماض المركزة ، أو يعلقوا عرايا لتزحف عليهم جحافل الحشرات القارضة ؟ "إن الذى كان يعد وحشية في عصر إيفان الرهيب ، والذى لم يقع فى عصر كاترين أو بطرس الأكبر ، كل هذا حدث فى المجتمع القائم على المبادئ الاشتراكية" هكذا يقول سولز تسين . والبشر يقعون ضحية المتألهين على جميع المستويات . كان جيم جونز قسيسًا أمريكيًا وقرر أن يرتقى إلى مصاف الآلهة ، بنى مستعمرة في جويانا وصحب معه ألف رجل وامرأة، أمريكان ! وكانت معجزاته تتمثل فى ممارسة الجنس مع الجميع ورعيته تلتف حوله لتزداد إيمانًا به ، ويوم وجد نفسه مهدداً من السلطات أمرهم بالانتحار وأقبلوا عليه معتقدين أنه سيعيدهم سيرتهم الأولى ! نفس القصة في أرقى بلدان العالم وأكثرها تقدمًا ، الألوية الحمراء فى إيطاليا ، الحقيقة السامية فى اليابان ، الدافيديون فى تكساس والرجال الأحرار فى مونتانا ، "أبواب السماء" فى الغرب الأمريكى، ثم فى سويسرا وكندا عُباد البشر ينتحرون مع زوجاتهم وأطفالهم. إن دل هذا على شيء فعلى أن التلوث الذى يسود الأرض، سواء من الكيمائيات أو الجراثيم أو المبيدات أوالبشر أنفسهم ، ليس إلا انعكاسًا لوساخة العقول ، فى عصر العلم والتكنولوجيا والكمبيوتر. فيم يختلف هذا عن فرق الحشاشين أو القتلة "الأساسين" فى القرن الحادى عشر؟

إتلاف الكوكب : الماء

نحن بنو الموتى ، فما بالنا   نعاف ما لابد من شربه ؟

المتنبى

لم يكن أبو الطيب يتحدث عن شرب الماء الملوث فى الواقع ، ولم يكن الماء ملوثًا إذ ذاك ، ولم نسمع أن خليفة أو واليًا عباسيًا مرض من شرب الماء، ولكننا سمعنا عن رئيس أمريكى حدث له ذلك ، جورج بوش ، أثناء فترة رئاسته ، أصيب بوعكة أرجعها أطباؤه إلى أنه شرب ماء غير نقى . ومن أين؟ من صنبور فى البيت الأبيض ، إنه حتى فى قلعة التكنولوجيا نجد مياهًا ليست صالحة تمامًا للاستهلاك الآدمى .

مجموع الماء الذى يحمله كوكب الأرض يقدر بحوالى ١٤٠٠ مليون كيلو متر مكعب (الكيلو متر المكعب بدوره يساوى ألف مليون متر مكعب من الماء ، أى ألف مليون طن ، والمتر المكعب بدوره يساوى ألف لتر من الماء) كمية هائلة لا تفنى ولا تتجدد ككل أنواع المادة إلا بأقدار لا قيمة لها ، كما يحدث عندما ينشأ بخار الماء عن احتراق البنزين فى محركات الطائرات النفاثة مما يؤدى إلى نشوء سحب من بخار الماء المختلط بنواتج احتراق الكربون ، ليسهم فى تلويث الغلاف الجوى . كمية الماء هائلة فعلاً ولكن أكثر من ٩٧٪ منها مياه مالحة فى المحيطات والبحار، والباقى وهو ٢٫٧ ٪ يشتمل على ثلوج قطبية وماء متجمد فى قمم الجبال وسحب تجيش بها السماء وأنهار جوفية . فى النهاية ، لا يتبقى لنا سوى ٠٫٣٦٪ على هيئة ماء قابل للاستعمال ، بحيرات وأنهار أغلبها أصبح ملوثًا بشكل ميئوس منه. الدانوب الأزرق لم يعد أزرق والراين الذى تغنى به شعراء أوربا تحول منذ سنوات إلى مصرف للنفايات الكيميائية عندما وقع انفجار فى مصنع هوفمان لاروش للدوائيات فى سويسرا وانسابت مئات الأطنان من

السموم لتهبط فيه ، وسرعان ما عمدت كل المصانع المطلة على النهر إلى انتهاز الفرصة لتتخلص هى أيضًا من نفاياتها .

من هذا القليل المتبقى ، ٨٠٪ يلزم لاحتياجات الرى ، والزراعة هى مصدرما يقرب من نصف الغذاء اللازم للإنسان والماشية . فى كل يوم يستحم الناس ويتخلصون من فضلاتهم بأنواعها وتنساب مجارى المساكن لتختلط بنواتج غسل السيارات ومعها الزيوت والشحوم المستعملة وكل ما نريد أن نتخلص منه . . . إلى أين ؟ ليس إلى الفضاء الخارجى بالطبع بل إلى البحار(إن كانت قريبة) أو الأنهار والبحيرات لتقتل الأسماك أو تسممها ، ثم تأتى مياه الصرف الزراعى محملة بالمبيدات الحشرية لتنضم فى جهد مشترك مع هذا كله . أصبح المصدر الوحيد لمياه طبيعية تصلح للشرب هو الآبار الجوفية من أماكن مثل جبال كولورادو حيث تعبأ الزجاجات وتباع بثلاث أو أربع دولارات للمترفين وحدهم طبعًا . وحتى هذا أصبح عرضة للتلوث من أعمال حفر المناجم وآبار النفط والتفجيرات النووية تحت الأرض، ثم الاستهلاك ، فالمياه الجوفية مستودعات تكونت على مدى ملايين من السنين ، وقد بدأت بعض البلدان الصحراوية فى السحب بكميات هائلة من هذه المستودعات للنهوض بالزراعة وبعضها حقق نتائج طيبة جداً ، فقط عندما ينضب هذا المعين فإلى أين ؟ فكر العلماء فى استخدام السحق النووى – أو الطاقة النووية عمومًا – لتحلية كميات كبيرة من مياه المحيطات ، إلا أن الحديث عن استخدام هذا النوع من الطاقة أصبح فى حد ذاته أمرًا محفوفًا بالخطر . كان ابن الرومى من أكثر الناس خوفًا من ركوب البحر ، وله قصيدة يصف فيها شعوره ذاك ، تنطبق على حالة الماء فى عالمنا وإن لم يكن هذا ما قصد إليه بالطبع ، بل إنه عندما مات بماء مسموم ، لم يكن مسمومًا من نفايات الصناعة :

وأيسر إشفاقى من الماء ، أننى أمر به فى الكوز مرَّ المجانب
وأخشى الردى منه على كل شاربٍ فكيف بأمنيه على نفسى راكب؟
وأشهد لو ألقيت فيه وصخرةً لوافيت منه القاع أول رأسب !

مزيد من التلوث :

نحن نعيش فى نطاق من سطح الأرض وعشرة كيلومترات فى الهواء ومثلها فى أعماق المحيط ، ولكن ٩٥٪ من الحياة الأرضية محصور فى نطاق سمكه ٣ كيلو مترات فقط . فى أثناء القرن العشرين زادت نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الهواء من (٣٨٠) جزء فى المليون (p . p . m) إلى (٣٥٠) وسوف تصل إلى (٦٠٠) إذا استمرت المصانع والسيارات ومحطات القوى تنفث دخانها فى الهواء . ينتظر أن تتزايد سخونة الكوكب بمقدار ٤ درجات مما سيرفع منسوب سطح مياه المحيط بفعل التمدد وذوبان الثلوج . تصور بلداً مثل مصر يتزايد سكانه إلى ضعف ما هم عليه الآن وأيضاً تأتى مياه المحيط لتغرق الدلتا ، ٢٠٪ من غابات ألمانيا أتلفتها الأمطار الحمضية . لا نهاية لما يمكن أن يقال فى هذا الصدد ، ومنه أن الإنسان فى صراعه مع الطبيعة ومع نفسه قد زرع أيضاً حوالى ٢٥ مليون لغم أرضى ، عشرة آلاف شخص كل سنة – أغلبهم من الأطفال – تتقطع أوصالهم ويعيشون فى بؤس ورعب طيلة حياتهم . الفيروس : برغم أننا أرقى الكائنات جميعاً ، حبانا الله تعالى نعمة العقل والنطق وجعل الملائكة تسجد لآدم عليه السلام، برغم هذا فإن أدنى الكائنات وأحط الجراثيم تعامل أجسامنا على أنها مجرد مصدر للغذاء وموطن للتوالد . ميكروبات العفن "الفانجاس" تسكن ثنايا أجسامنا ونحن مانزال أحياء ... ثم جاء هذا الفاتح المنتصر الجديد الذى قال عنه أحد المعلقين أنه وسيلة الطبيعة فى

تصحيح مسارها، فالإنسان ليس حيواناً ولا يليق به أن يمارس الجنس كالحيوان . فى تقدير منظمة الصحة العالمية أن ٣٠٪ من النساء الحبالى فى أفريقيا مصابات بداء الإيدز وسوف يلدن أطفالاً مصابين به بمجىء سنة (٢٠٠٠) ، بعد أربع سنوات فقط ، سيصل عدد المصابين إلى مائة مليون . والمريض لا يهلك كما كانت تفعل الدفتريا مثلاً بل يظل فى لوعة وعذاب سنوات وسنوات ، وكل ميكروب يصيبه ينتصر عليه بعد أن فقد جهازه الدفاعى . ولكن حكام أفريقيا مشغولون بالصراعات الدموية من أجل السلطة وما تزال المجتمعات والتقاليد البدائية ترغم النساء على خياطة أطباق صلبة فى الشفاه ، لأن مط الشفة إلى أن تصبح فى حجم الكف من علامات الحسن !

سطوة الأعلام :

الموقَّر بروتس قال لكم إن قيصر كان طموحًا ،
لو كان الأمر كذلك فهى غلطة فادحة .
وكذلك كان رد قيصر فادحًا هنا ،
بإذن بروتس والبقية
إذ أن بروتس رجل شريف
وكلهم كذلك ، كلهم رجال شرفاء

وليم شكسبير : "يوليوس قيصر"

هذا المقطع من خطاب ماركوس أنطونيوس فى جنازة قيصر ، وما يحويه من توريات لاذعة ، واحد من أصدق الأمثلة فى التاريخ ،التى تدل على ما يمكن لسحر البيان أن يفعله بعقول الآدميين ثم بسلوكهم . تحول الغضب من قيصر إلى قتلته وكانت نهايتهم .

تشارلز بيرس (١٨٣٩ - ١٩١٤) مؤسس مذهب البراجماتية ، يقول في بحث بعنوان "ترسيخ الاعتقاد" ، أن الناس عندما يحارون وينتابهم "عذاب الشك" كما يسميه ، فإن موئلهم يكون : معتقدات سابقة - خبرات جديدة - نصح الآخرين . ضغوط هذا العصر لا تسمح باكتساب خبرات جديدة فهى دائماً "مستعجلة" والمعتقدات السابقة تزيد الأمر كآبة بخروجها عن حقائق العصر . أما نصح الآخرين فمصدره هذا الشيء الذى قد يأتيك بخير عظيم أو يقضى عليك كإنسان : التلفزيون . إنه الصورة الواقعية للـ "تيليسكرين" التى تخيلها جورج أورويل فى روايته "١٩٨٤" ، والتى توجد فى كل بيت وفى داخل كل جدران ، تراقب الناس وتتصنت عليهم وأيضاً تتحكم فى عقولهم وتصرفاتهم وتجعلهم فى النهاية ، بفعل القهر وغسيل المخ ، يحبون "الأخ الأكبر" ، الحاكم الذى لا يعرف أحد حتى إذا كان قد مات أو ما يزال يعيش . كان ماوتسى تونج - الزعيم العظيم - هو أقرب شيء لهذا المتأله ، والآن وقد ذهبت العظمة بدأنا نعرف أنه كان يمارس الجنس مع أسراب من بنات بلده ونقل عنه طبيبه الخاص أنه قال مرة أن أعراض الأمراض التناسلية لا تظهر عليه "لأننى أغسل نفسى فى هذه الأوعية" . كان الدوس هكسلى قد سبق أورويل بروايته "دنيا جديدة شجاعة" (العنوان مأخوذ من مسرحية شكسبير "العاصفة") وقد تصور هكسلى أن الإنسان سوف يتناسل فى المعامل وأن الاستبداد لن يكون بالتعذيب أو القتل بل بالتكييف البيولوجى لإنسان أنبوبة الاختبار ، ولذلك فإن الكبت . . . سيكون متعة ! وقد تناظر المؤلفان طويلاً فى وسائل التحكم فى عقول البشر . إنه حتى من قبل مجيء الساتلايت بحوالى نصف قرن ، فى سنة ١٩١٣ كان جون د . روكفلر الأب (١٨٣٩ -١٩٣٧) يتمتع بكراهية عميقة من الشعب الأمريكى وكانت الصحف

تصفه بانه "غول" و"المجرم الاكبر" . كان يملك مناجم بولاية كولورادو ، وقامت حركة نقابية عارضتها الإدارة بشدة ، وحدث إضراب واعتصام ، وبتحريض من روكفلر وابنه ، جون روكفلر الصغير (١٨٧٤ - ١٩٦٠) جاءت قوة مسلحة أمطرت المضربين بالرصاص وقتلت ثلاثة وخمسين شخصًا منهم ١٣ طفلاً . بلغ السخط أقصاه ، ولكن روكفلر استاجر أخصائيًا فى الإعلام الجماهيرى ، وبدأت أغلفة المجلات والصفحات الأولى من الجرائد تظهر الأب الرحيم روكفلر وابنه الرقيق وهما يوزعان الهبات على أسر الضحايا وسرعان ماحدث تحول يشبه ما أحدثه أنطونيوس لحساب يوليوس قيصر .

للمعلق الصحافى الشهير ولترلبمان كتاب بعنوان الرأى العام (١٩٢٢)؛ يقول فيه :

"إن التاثير فى عواطف الناس بكل وسيلة ، بما فى ذلك "القصص" ، يؤدى إلى رسم صور فى رءوسهم ، تصبح هى فكرتهم عن العالم المحيط بها" ثم يضيف : "أنا لا أريد أن أحبذ الكذب ، فقط طالما أننا نستطيع أن نحدد "درجة الإخلاص" ، وأن نأخذها فى اعتبارنا ، فإن اختراع الحكايات لا يعد خداعًا أو تضليلاً .

والقصص أصبحت الآن تتخذ شكل "أوبرا الصابون" كما يسمونها ، مسلسلات أغلبها مجرد إثارة لـ "عواطف الناس" تجعلهم يقضون الليالى يتمنون أن يمضى الوقت بسرعة ليروا ما سيحدث فى الحلقة القادمة .

طريق النجاة

فى مكنتنا نحن البشر ، أن ننجو من هذا المصير ، بشىء واحد : تحسين السلوك ، ولن ينقذنا شىء آخر ، تمامًا كمن يريد أن يقلع عن عادة سيئة

كالتدخين ، لا توجد وصفة سحرية فى هاتين الحالتين ، الإرادة هى الطريق إلى حل المشكلة . وهناك دور أساسى يلعبه الحكام ، فهم فى هذا الزمن يسيطرون على وسائل الإعلام ، وعلى كل ما يمكّن من تحسين السلوك كالتعليم ومرافق الخدمة . ولابد للحاكم أن يملك مهارتين أساسيتين : الوصول إلى الحكم والبقاء فيه ، ثم الكفاءة الإدارية. الكفاءة من نوع كفاءة لودفيج إيرهارد ، وليس سيزار بورجيا، إن مهمة الحاكم أن يحقق الخير لأبناء بلده وعليه فى سبيل ذلك أن يدرك أن السلطة الممنوحة له ليست إلا واحدة عن وسائله فى سبيل ذلك ، وليست هى الغاية التى يجب عليه أن يسعى إليها . فإذا لم ينجح فى تحقيق الرخاء فإن عليه أن يترك منصبه لمن هو أكفأ منه فى الإدارة ، وليس أن يعمل على مزيد من الكبت واستخدام القسوة .

الفيلسوف البريطانى برتراند راسل ، بدأ حياته عالمًا فى الرياضيات والفيزياء ، ثم انتقل من هذا إلى علوم المنطق فأضاف إليها فتوحًا جديدة فى أصول الفكر الإنسانى ووضع مؤلفات فى علم المعانى وعلم المعرفة ، واهتم بتطورات الفيزياء النظرية وناقش النسبية مع إينشتاين وإيدنجتون ، والكوانتم مع نيلز بور ثم تعمق فى فلسفات الميتافيزيقا وانتقل منها إلى الفلسفة السياسية ووضع من هذا كله كتاباته الشهيرة فى السياسيات مثل كتابه الفذ "القوة" Power . لعل قليلين جداً من البشر قد أتيح لهم هذا العلم الزاخر بدنيا الفكر والمادة والفنون ، ومن استطاعوا أن يبنوا قدراتهم الذهنية على أساس يجمع الماتيماطيقا والفيزياء والفلسفة والفنون . وقد وضع راسل فى أواخر أيامه كتابًا عنوانه "هل للإنسان مستقبل ؟" يدور الكتاب فى الواقع حول انتشار الأسلحة النووية أثناء عصر الحرب الباردة .
لعل هذا لم يكن أكبر خطر يتهدد البشرية فى السنوات التى نعيشها الآن ، إلا أن "الوصفة" التى يشير بها هذا المفكر العظيم ويرى فيها خلاص البشرية

من الفناء ، ماتزال تصلح لمواجهة الأخطار الناجمة عن تفاقم مشكلات التكاثر والتلوث والتضليل وفساد الحكم .. وإذا وجد من يخالفه فيما يقول به فإننا مانزال نرى أن الفقرات التى سننقلها هنا بأقصى درجة من الدقة والأمانة نقدر عليها ، ماتزال فى حد ذاتها قطعة فذة وبالغة الروعة من الفكر الإنسانى الرفيع ، ومن التعبير الأدبى الرائق البديع . يقول راسل :

"إن حب القوة قد يكون دافعًا أقوى من الخوف ، يدفع بالأمم إلى أن تتبع سياسات غير عقلانية . وإذا كنا – على المستوى الفردى – نعد التفاخر سلوكًا معيبًا ، فإنه – على المستوى القومى – أمر يحظى بالإعجاب ، من جانب أتباع الذين يمارسونه . وعلى مدى عصور التاريخ ، قد انقادت أمم عظيمة إلى الخراب والكوارث لمجرد عدم الرغبة فى الإقرار بأن هناك حدودًا لما لديها من سطوة ، وكانت الفتوحات هى السراب الخادع الذى أدى بالأمم إلى السقوط . أقرب الأمثلة إلينا كان ألمانيا الهتلرية ، وإذا رجعنا إلى الوراء سنجد أمثلة أخرى كثيرة ، من أظهرها نابليون وجنكيز خان وأتيلا » .

"علينا أن ندرك ... أن الكراهيـــة ، أن إهدار الوقت والمال والطاقـات الفكرية من أجل بناء أسلحة الدمار ، والخوف مما يمكن أن نلحقه ببعضنا البعض ، والخطر الوشيك من انتهاء الحياة البشرية وانهيار كل ما تحقق فيها، أقول : علينا أن ندرك أن هذا كله ليس إلا نتاجًا لحماقات البشر ، وليس القدر المحتوم . إنه ليس أمرًا تفرضه الظروف الطبيعية ، بل هو الشر الذى يأتينا من داخل عقولنا والذى تمتد جذوره إلى فظاعات العصور القديمة والخرافات التى قد تليق بقطعان البشر الوحشية فى الأزمنة السحيقة . وهى فى عصرنا هذا ، كفيلة بأن تلحق الدمار بكل ما ننعم به الآن ، ثم بالحياة ذاتها ، فى أقصى الاحتمالات" .

"إنه فى عالم يمكن للبشر بناؤه فى هذا العصر ، إذا اختاروا هذا الطريق ،

يمكننا أن نرسى دعائم حياة تكون مبدعة وخلاقة فى إطار الوجود الأرضى .
لقد تقدمت المعرفة الإنسانية فى الحقبة الأخيرة بسرعة هائلة جعلتها قاصرة على نخبة محدودة من الخبراء ، جعلت صفوة صغيرة من هؤلاء يقدرون على أن يبثوا فيها روح الشاعرية والبصيرة الكونية . لقد توصل البطالمة إلى منظومة الفلك والأجرام الكونية فى زمانهم ، ولكن ألفا وخمسمائة سنة كان لابد أن تمضى قبل أن يأتى دانتى ويتخذ منها مادة لتعبيراته الشعرية .
إننا نعانى من عدم القدرة على هضم هذا الكم الهائل من الكشوف العلمية، فقط فى عصر يمكن للتعليم فيه أن ينتشر إلى آفاق لا حدود لها ، سيتسنى لهذا القدر غير المهضوم أن يستوعب ويمتص ، ويمكن للشعر والفنون أن تتسع لاحتواء عالم من المعرفة يوصف فى الملاحم الجديدة . إنه من الممكن أن تنطلق الروح الآدمية لتقودنا إلى كون رحيب من الروائع المتسامية، إلى عالم بأكمله من الفن والجمال ، لايمكننا أن نتصوره ونحن نرزح تحت وطأة الماضى بوحشيته واختناقاته .إننا إذا أمكننا أن نتغلب على ما لدينا من مشكلات ، فسوف يتسنى للإنسان أن يتطلع إلى مستقبل يفوق الماضى بقدر لا يمكنه قياسه ، تحثه رؤية تتسع آفاقها لتبث فيه آمالا دائمة لاحدود لها ، ومنجزات لا آخر لها . لقد حقق الإنسان بداية يستحق بها الإقرار بمصداقيته ، فهو ، هذا الكائن البيولوجى الذى جاء فى نهاية القائمة ، ما يزال – على هذا المقياس – وليداً صغيراً . ليست هناك حدود لما يمكنه تحقيقه فى المستقبل ، ويمكننى أن أصور لنفسى دنيا مليئة بالعظمة والمتعة ، دنيا تتألق فيها عقول البشر وتتسع آفاقها ، وتظل الآمال تلتمع ، ويتسنى لكل ما هو راق رفيع أن يمضى فى طريقه دون أن يعد عقبة فى طريق أهداف تافهة أو أطماع سفيهة . كل هذا يمكن أن يتحقق لو أننا فقط تركناه يتحقق .

...ونظام للحكم والإدارة

"أخذ يطوف بصحبة والدته أنحاء القصر المخصص له فى الغابات المتاخمة للعاصمة ، ثم بدأ يريها مجموعة السيارات الفاخرة التى عرف عنه إلى أى حد كان مولعًا باقتنائها ، تأثرت العجوز إلى حد أن الدموع ملأت عينيها ، ثم التفتت إليه قائلة: هذا جميل جداً يا عزيزى ليونيا ، فقط ماذا ستفعل إذا استولى الشيوعيون على السلطة ؟"

نادرة كانت تشيع بين مواطنى الاتحاد السوفيتى
أيام حكم الزعيم ليونيد بريجنيف ، الذى
كان مولعًا باقتناء أفخر السيارات

أومأ الزعيم برأسه إعجابًا بما رأى ، وطلب دفتر الزيارات لكى يسجل فيه كلمة يعرب بها عن ثنائه على إدارة مصنع أقلام الحبر الجديدة . جاءوه بالدفتر، وبقلم أعد خصيصًا ليكون هدية تذكارية له ، أخذ الزعيم يدوس بالقلم على الورق دون أن يكتب شيئًا ، فألقى به جانبًا واستل من جيبه "قلماً" أمريكى الصنع، قائلاً لهم : معى قلم يكتب .

واقعة حقيقية حدثت للزعيم السوفيتى نيكيتا خروشوف
أثناء زيارة لمصنع ينتج الأدوات الكتابية
فى موسكو ، فى أوائل الستينيات .

أشار الشرطى لقائد سيارة فاخرة فتوقف ، ثم التفت إليه متسائلاً : لماذا توقفنى ؟ أنا لم أرتكب أى مخالفة ؟ فأجابه: وهل أترك امرأتى وأطفالى يجوعون حتى تفعل ؟

نادرة أخرى من روسيا الجديدة

حياة الشعوب حقائق ، وليست لعبًا ، والاقتصاد علم له قواعد وقوانين لا مدخل إليها من لعب السياسة وأساليب الجلا جلا . . .

د / حسين مؤنس
"باشوات وسوبر باشوات" (١٩٨٤)

مُلَّ المقـــام ! فكـم أعـــاشـــر أمـــةً أمـرت بغـيـر صـلاحـهـا أمـراؤها
ظلموا الرعيَّة واستباحوا كيدها وعدوا مصالحها . . . وهم أجراؤها !

أبو العلاء المعرى : "لزوم ما لا يلزم"

"كما أكد بعض الشهود أن المتهم الأول كان يمارس شعائر الحج في منزله، وأنه سوف يغفر الذنوب لأتباعه ويدخلهم الجنة ، وأنه طلب من أتباعه استقطاب أتباع آخرين . ومن ناحية أخرى طالب دفاع المتهمين ببراءتهم لأن المتهمين لا يمارسون سوى طرق صوفية شاذلية"
مقتطف من الأهرام ٢٧ يوليو ١٩٩٩
تحت عنوان "الحكم فى قضية مدعى الألوهية"

"إن الحاكم قد يعامل رعاياه برقة تؤدى إلى عدم استقرار المجتمع وانتشار الاضطرابات ، وما ينشأ عن ذلك من سفك للدماء ونهب لأموال الناس . مثل هذه الأحوال تضر بالناس جميعًا ، أما أحكام الإعدام التى يصدرها الحاكم فلا يتأذى منها إلا حفنة من البشر"
نيقولا ماكيا فيللى : "الأمير" (١٥١٧)

تلوا باطلاً وجلوا صارمًا وقالوا صدقنا ، فقلنا : نعم !
أبو العلاء المعرى : "لزوم ما لا يلزم"

كانت فلسطين لكم . . .
قميص عثمان الذى به تتاجرون
نزار قبانى : "هوامش (١٩٦٧)

قيادة الأمم والممارسات السياسية

تصادف أن كنت أشاهد إحدى قنوات الإرسال العالمية ، وأتيح لى أن أشهد ندوة غاية فى الروعة والإمتاع ، تضم ثلاثة ومعهم مترجم ، كانوا :

جورج بوش،ومارجريت تاتشر ، وميخائيل جورباتشوف . هذا مع حفظ الألقاب ودون ترتيب . كان موضوع الحديث هو العالم نفس العالم الذى لعب كل منهم دوراً أساسيًا فى جعله يبدو كما هو الآن .

معروف عن السيدة الحديدية - كما أسموها - أنها تتصف بالحدة ، أمر طبيعى من الوجهة الاشتقاقية على الأقل . وقد سمعناها منذ فترة تعلق على احتفال الفرنسيين بعيدهم القومى (١٤) يوليو ، وهو ذكرى سقوط الباستيل، بقولها إن أمرهم يحيرها ، كيف يحتفلون بذكرى عمل بهذه الدرجة من الدموية والوحشية ؟ وهو ما يتفق مع كتابات المؤرخين والأدباء الإنجليز عن تلك الحقبة طبعًا ، ومما تكشف أخيراً أن الفرنسيين كانوا أصحاب الفضل فى انتصارها على غزاة جزر فوكلاند ! وقد رأيت صورة لها وهى تصافح الرئيس الراحل فرانسوا ميتران ، عند مدخل قصر الإليزيه ، وهى نصف منحنية و« عيناها فى عينيه فى قدميه » ضارعة له أن يمدها بأسرار الصاروخ الفرنسى « إكسوسيت » ، الذى تتسلح به الأرجنتين والذى استخدمه أسطولها فى إغراق فرقاطة بريطانية . صحيح أن بريطانيا أقوى من الأرجنتين ولكنهم كانوا يحاربون بـ « تجريدة » دارت حول كوكب الأرض وقطعت آلاف الأميال لتواجه عدواً فى قواعده الرئيسية ، ولو خذلها ميتران لكان حزب المحافظين بأكمله قد عانى "نكسة" حقيقية ولكانت هى أول ضحية لها ، فالإنجليز لا يتمتعون بهذه القدرة الهائلة على تأليه قادتهم والتى ننعم بها نحن .

أما "جوربى" ، كما أسموه ، فقد كانت تربطه بتاتشر صداقة وطيدة ،

هذا بقدر ما يمكن لهؤلاء أن يمارسوا عواطفنا ، نحن « الناس » . وكانت هى تستمتع جداً بزيارتها له وحفاوته الفائقة التى كانت مادة خصبة للفكاهة الصحفية . وقد أقام لها مرة حفل إفطار عمل ، كالمعتاد ، بل « إفطار فودكا » (تصور أن يصحو الإنسان من نومه فى الصباح ليكوى أحشاءه بهذا السبرتو ، وإن كان هذا يذكرنا بالغبوق والصبوح عند عمرو بن كلثوم وأضرابه من الجاهليين والعباسيين) . اتجه الحديث فى الندوة التلفزيونية نحو الموارد الطبيعية للمجتمعات ، ولابد أن رومانسية الإفطار فى حديقة جوربى لم تكن ماثلة فى ذهن سيدة الحديد وهى تصوب لسانها السليط نحو داعية « البيريسترويكا » و « الجلاسنوست » ، وتقول له ما مؤداه (فللأمانة أنا لا أذكر حرفية هذه المقولة ، إذ كنت مشاهداً لا قارئًا) : « لو كانت الرفاهية تأتى من الموارد الطبيعية أو كانت تصلح مقياسًا لها لكانت روسيا أكثر بلدان الدنيا ترفًا » .

لم يعلق جورباتشوف على ذلك وكانت الندوة قد قاربت نهايتها ، وكان يبدو طيلة الوقت كاسف البال ، وكيف لا بعد أن وصل القمة بشعارى « إعادة البناء » و « المكاشفة » إذا به يسقط على أم رأسه ؟ وإن كانت الندوة قد طرحت العديد من الأسئلة مثل :

لماذا تفلس المجتمعات وتعانى شعوبها وهدة الفقر وهى غنية بالنفط ، تجيش به الأرض تحت أقدام شعوبها ، وبالماء تضطرم بها أنهارها وتربتها خصبة وشعبها متعلم ومكافح وأبناؤها أصحاء أشداء . ولماذا تفلس الشركات أو تغرق فى الديون ومواردها مكتملة ومخازنها تفيض بالمستلزمات ؟ هل هم القادة ؟ أم المقودون ؟

القيادة : علم أم سحر ؟

يقول مؤسس علم الاجتماع ، الشيخ الجليل عبد الرحمن بن خلدون :

« الملك منصب طبيعي للإنسان لأنا قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتفاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان » ، ثم يضيف : « فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض » .

القيادة إذن هي قدر الإنسان ، والذي لا يريد أن يقود أو ينقاد ، فرداً كان أم أمة ، لابد أن ينهج نهج طرزان ، يعيش بمفرده في الغابة ، وهذا ليس سلوكًا إنسانيًا . وإذا كانت الإدارة هي « تنسيق استخدام الموارد من أجل تحقيق أهداف المؤسسة » وإذا كانت الموارد مادية وبشرية ، فالقيادة إذن أكثر تعلقًا بالبشر من غيرها من هذه المراحل ، فالقائد – كقائد الكتيبة العسكرية أو الأوركسترا يكلف بمهمته وهي أن يدير المفتاح وينطلق . ومهما بلغ التخطيط والتنظيم فالقائد قد يكون ناجحًا في تحقيق الهدف وقد يضل طريقه تمامًا . في جميع الحالات هو يقود البشر أساسًا .

من هنا كانت علوم الإدارة في بداية ظهورها إلى الوجود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر – منصبه على الموارد المادية في غالبيتها ، فريدريك تايلور (معدلات العمل والقواعد العلمية في تنظيم الوظائف وشغلها) هنري فايول، (تقسيم العمل والمهارات التخصصية وهرمية التنظيم) ، ثم استتبت الأمور قليلاً من حيث الجوانب المادية أو ربما « الملموسة » في الإدارة وآن أوان العناية بالبشر عند وضع المؤلفات وإجراء البحوث، وصاحب هذا نشوء علم النفس الصناعي وتطورات علمية أخرى

عديدة . كما أن علوم الإدارة من نوع « مراقبة المخزون »، أو « التحليل المالى » أو « جدولة الصيانة » مع احتوائها للعنصر البشرى بدرجة أو أخرى ، لا تستعصى على التجربة العملية أو « المعملية »، بعكس الجانب الآخر من الموضوع .

وحتى أواسط القرن العشرين كانت المؤلفات فى علوم الإدارة وفروعهايمكن أن ترص كلها على رف متوسط الحجم. أما الآن فإن السلاسل والدوريات التى تقدم للمدير « المشغول » خلاصة ما يصدر منها لم تعد تلاحق سيول المؤلفات ، والقدر الأكبر منها يتناول قيادة البشر . وفى كتابه « فن الإدارة » (١٩٥١ ، منتصف القرن تماماً) يقول أوردواى تيد : « القيادة هى ممارسة التأثير فى الناس بحيث يتعاونون فى سبيل تحقيق هدف يتوصلون إلى إدراك أنه مرغوب فيه » وقد كان تيد هو أول من دعا إلى إدراك المسئولية الاجتماعية لمؤسسات العمل ، وإلى تطبيق الديمقراطية داخل الشركات ، وقد حظيت علوم القيادة بجهود كبيرة من عقول وكفاءات كرست نفسها للصناعة والأعمال .إبراهام مازلو : هايرارقيه الحاجات المادية والمعنوية عند بنى الإنسان وأثرها فى قيادتهم - فريديرك هيرتزبرج : خلق الدوافع عند العاملين وإخصاب الوظائف ، - دوجلاس ماكريجور، صاحب النظرية س والنظرية ص : هل البشر بطبيعتهم كارهون للعمل ولابد من قسرهم ؟ أم أن العمل متعة كالرياضة ، والقادة - كأغلبية الآباء والأمهات - يفسدون المواهب ويضيعون المقدرات بممارستهم الخاطئة؟

ثم السؤال الذى هو أكثر أهمية : من أين تأتى أحقية القائد فى القيادة فى المؤسسات، ثم - بصورة أشمل - فى المجتمع ككل؟ فى المؤسسة، يهمنا أن نرى ما لدى ماكس فيبر ، الذى سبق من ذكرناهم (١٨٦٤ - ١٩٢٠) ، وهومايشابه نظرية التقبل عند خلفه تشستر بارنارد (١٨٨٦ - ١٩٦١) ،

وهو لا يفرق بين السلطة والقوة أو السطوة ، ويرى أن السلطة الشرعية لها ثلاثة أنماط ، فهى عقلانية قانونية (كرؤساء المؤسسات والجنرالات) ، والأمثلة على الدكتاتورية فى الشركات لا حصر لها، ثم السلطة التقليدية ، والتى تقوم على تقديس العادات المتبعة (ملوك أوربا فى القرن الماضى ، والبابوات) ثم السلطة الكاريزمية ، وهذه تختلف فى كونها شخصية وتشبه السحر ، ويرى فيبر أنها تأتى إلى الوجود بسبب فشل الصورالأخرى من السلطة . أما رنسيس ليكرت (١٩٠٦ - ١٩٦٤) فيصنف القيادة فى المؤسسات إلى: (١) التسلط المستغل ، يعتمد على التخويف (٢) التسلط الخير ويشبه علاقة الأب بالابن (٣) السلطة المستشيرة حيث القادة يتحكمون ولكنهم يستمعون لرأى أتباعهم قبل اتخاذ القرار ، ثم (٤) الإدارة التشاركية ، وتقوم على ثقة الرؤساء وإشراكهم لأتباعهم فى عملية اتخاذ القرار . وهذا هو الاتجاه السائد فى هذه الأيام ، لا من حيث سلامته أخلاقيًا واجتماعيًا بل من حيث فاعليته وقدرته على تحقيق أفضل نتائج لأنه يتيح قدراً أعظم من العقول والمواهب . ومن أشهر دعاته الحاليين وارين بينيس الذى عمل مستشاراً لعدد من الرؤساء الأمريكيين وأصدر منذ قريب كتابًا عنوانه : «اختراع القيادة من جديد» وسبق أن أصدر «المجتمع المؤقت»، و«المهندس الاجتماعى» ، و«أن يصبح المرء قائداً» أما تشستر بارنارد، وهو رجل أعمال وفيلسوف ، فيرى أنه لا السلطة ولا النفوذ يتمثل فى المركز الذى يشغله القائد وإنما فى استعداد من يقودهم لأن يتبعوه ، ويقسم السلطة (والسطوة) إلى : حافزة وقسرية ، وشرعية وانتسابية (وتأتى من الانتساب لمن لديه السطوة ، كالحاشية) ثم مهارية ، وهى التى يكتسبها القائد من كونه ممتلكًا لمقدرات فريدة أو نادرة .

مؤسسة الأعمال :

منذ سنوات طلع إدجار شاين ، فيلسوف فى الإدارة وعالم نفسانى وتلميذ ماكريجور ، طلع على العالم بتعبير « corpate culture » البعض يترجمونها إلى « ثقافة الشركة » ، فالتعبير بالإنجليزية يؤدى المعنيين فى الواقع ولكن مفهوم الحضارة يشمل الثقافة وجوانب أخرى كثيرة يقصدها شاين وغيره من استخدام التعبير ، المقصود هنا هو مجموع الممارسات والتقاليد والأعراف المتبعة فى الشركة ، والتى تحكم العلاقات بين « حكومتها » ، و« شعبها » ، ونحن هنا نستخدم التعبيرين مجازاً بالطبع ، وإذا أخذنا مثالاً اجتماعيًا فإنه يمكننا أن نقول « حضارة قبلية » مثلاً ، ولكن ليس ثقافة قبلية ، وإذا قلنا هذه فسيكون مقصودنا مختلفًا ، وإن كان التعبير قد بدأ يتسع نطاقه أخيراً (سنأتى لهذا فيما بعد) .

مؤسسة الأعمال إذن مجتمع صغير فيه كل مكونات المجتمع الكبير والنظائر واضحة .

تصادف أن أتيح لى فى يوليو ١٩٩٤ أن أزور واحدة من « نمور آسيا » هى سنغافورة ، كنت قد سمعت عنها كثيراً ولكن إعجابى بهذا النموذج فى « إدارة المجتمع كما تدار المؤسسة » ، فاق ما كنت أتوقع .وتصادف أيضًا أن هذا تزامن مع « رحيل » الزعيم العظيم كيم إيل سونغ ، وأذكر لحظة وقفت فى غرفتى بالفندق أطل على طرقات هذه اللؤلؤة وأرى على شاشة التلفزيون فرقة من جنرالات كوريا الشمالية يجلسون فى غرفة تشبه غرف الحجز فى أقسام الشرطة ، مصطفين على أرائك خشبية متوازية ، يولولون كالثكالى ، يصرخون فى لوعة تمزق القلوب ، لا حزنًا على الزعيم العظيم ، بل على البشرية ، لا أظن أحداً منهم يعيش الآن بعد فضيحة غواصة التجسس التى أمسكوا بها فى كوريا الجنوبية . قلت لنفسى : يبدو أن

صيحة أبى القاسم الشابى نفذت من باطن الأرض إلى سطحها فى شرق آسيا، وفهموها بشكل ما !

الفاشية وعبادة البطل :

"فاشيو" بالإيطالية يعنى "حزمة" وهى مشتقة من كلمة "فاشيس" اللاتينية ، وتحمل نفس المعنى ، وهكذا فإن فلاسفة هذا المذهب – إن كانت له فلسفة – يختارون لوصفه صفة التماسك الذى يدعون أتباعهم إليه ، وإن كانت المنظمات الفاشية لا تطلق على نفسها هذا الاسم الآن ، لكثرة ما هاجمه الماركسيون ، وكان النازيون يسمون أنفسهم "حزب العمال القومى الاشتراكى الألمانى" – إلا أن موسولينى لم يكن يخجل منه . والمذهب يتركز حول إثارة الشعور الوطنى أو القومى ، والاستبداد بالسلطة من جانب زعماء التنظيم إلى حد تكوين نوع من الأرستقراطية الحاكمة لا ترى فى الجماهير سوى أدوات لتنفيذ مخططاتها ، وذلك عن طريق دعاية قوية جارفة ، على طريقة الدكتور جوزيف جوبلز وزير دعاية هتلر ، أما الديمقراطية فهى – عند زعماء الفاشية – مذهب بغيض يشرك الدهماء فى إدارة المجتمع ، وهو ما يجب أن يقتصر على الصفوة الممتازة ، الإنسان الفرد ليست له حقوق إذا تعارضت هذه مع الدولة القومية أو وقفت فى طريق أطماعها فى السطوة والتوسع . العدالة والقيم والرفاهية . . . إلخ ، كل هذه خزعبلات تتناقض تمامًا مع فكرة القوة والتفوق ، بل ولا مانع من التخلص من الضعفاء أو المختلين عقليًا أو ذوى العاهات وغيرهم من الذين لا نفع لهم، بأى وسيلة . الواقع أن هذا كان يحدث فى سبارطة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وكان الأطفال يؤخذون بالقوة وهم فى السابعة من عمرهم ليوضعوا فى معسكرات التدريب العسكرى حتى يبلغوا الثلاثين .

العسكرية جانب أساسى فى الفاشية ، والحزب له "ميليشيا" يتميز بها ، قمصان سوداء أو ما يشبه ذلك ، وهم يجوبون الطرقات فى المجتمع الذى يسوده تنظيم فاشى ليؤدبوا كل من تحدثه نفسه بالتمرد على النظام السائد أو تحدى سلطته . القانون والأخلاق لغو أجوف وأمور لا يفكر فيها إلا الضعفاء ، فالناس وسيلة لتحقيق الهدف القومي الذى تقوده الصفوة ، ولا يختلفون عن الفحم أوالمعادن . من سوء حظ الفاشية والفاشيين أن الكلمة أخذت كما هى فى العربية ، وأن لها هذا الوقع السيئ "الفاء" مع "الشين" تذكر المستمع بتفشى الوباء وإفشاء الأسرار وهى أمور ملعونة عند أهل الفصحى ، كما أنها تشترك فى هذين الحرفين أيضًا مع كلمة الفشل ، وهو ما يبدو أنه مصير الفاشية بحكم منطقها القائم على العنجهية . فنحن ، فى شرعهم لا نعمل شيئًا لأنه يجلب المنفعة - كما هو عند جيريمى بنتيام ، فيلسوف المنفعة - أو لأنه يحقق العدالة أو الخير ، وهو ما يدعيه الأخلاقيون ومنهم الماركسيون ، الذين يتبادلون معهم كراهية أدت إلى مادار فى الحرب العالمية الثانية ، ولا لأنه هو "الفضيلة" أو "مكارم الأخلاق" التى شغل نفسه بها سقراط ، ولا لأنه يحقق نزعة الإنسان نحو الجمال الذى قال عنه الفيلسوف الإيطالى كروتشة - والعدو اللدود لموسولينى والفاشية الإيطالية- أنه تعبير الروح الانسانية عن ذاتها ، وجرده من أن يكون عملاً اقتصاديًا أونافعًا، وخلصه تمامًا من القيود الأخلاقية . الفاشيون لا يعملون شيئًا ولا يدعون إلى شيء لمثل هذه الاعتبارات ، وإنما لأنه متاح لهم بحكم كونهم أقوياء وعظماء وممتازون على الخلق ، إنهم "الإنسان العظيم" ، السوبر مان الذى دعا إليه الفيلسوف الألمانى نيتشه (١٨٤٤ -١٩٠٠) ، والذى جعل البشرية كلها وسيلة إلى إيجاده ، ورأى أن على الإنسان أن يتجاوز القيم ، فهى ليست مطلقة ، وأن عليه أن يفعل ما يناسب الواقع .

وهكذا دعا هتلر إلى سيادة العنصر الآرى ، الذى هو نوع راق ومتميز ، يتمثل فى الألمان وبصفة خاصة ، ذوى الشعور الشقراء والعيون الزرق ، ومن هنا لابد من تنظيف ألمانيا من الغجر ومن الساميين (اليهود) مع أنه ثبت بعدذلك أن أحد أجداده كان من أصل يهودى ، وأنه - وهو ما يجهله الكثيرون - لم يكن حتى ألمانيًا ، فهو نمساوى ولم يحصل على الجنسية الألمانية إلا وهو زعيم الحزب . وهكذا أيضًا ، أرسل موسولينى جيوشه الخائبة لتحرق القرى وتقتل سكانها العزل فى الحبشة ، والشر عندما يتفق مع الخيبة يصل بالبشرية إلى حضيض تسمو فوقه الضباع ، فقط هذه هى الفاشية ، إذا وجدت من هو أضعف منك فلا تتردد فى سحقه ، لأن البقاء للأقوى وللأصلح وهو ما نادى به الفيلسوف الإغريقى القديم هرقليطس ، الذى قال بمجد الحرب ، "إنها أمنا جميعًا ، جعلت البعض رجالاً والبعض عبيداً" وهكذا ، فإن الخير يتمثل فى العزيمة وليس فى الشعور أو الإدراك أوالمعرفة ، السطوة أهم من السعادة ، لأن السلام هو التقاعس والبلادة ، والدعاية أفضل من الطريقة العلمية ، لأن هذه الأخيرة لا تتفق مع الأهداف القومية ، أما الدعاية فهى تُفضّل عليها .

وتمتد جذور الفاشية إلى كتابات فلاسفة عديدين ، فإلى جانب من ذكرناهم ، هناك جوتليب فشته (١٧٦٢ - ١٨١٤) الذى دعا إلى عبادة بطل إيطالى آخر هو جوسيبى مازينى (١٨٠٥ - ١٨٧٢) الذى دعا إلى الإيمان بالبطل واحتقار الأغلبية من الدهماء ، وإيطالى ثالث يعده موسولينى وأتباعه أستاذهم ومعلمهم وصاحب الأيديولوجية الفاشية كما رأوها ، ألفريد باريتو (١٧٦٢ - ١٨١٤) صاحب قانون باريتو الشهير فى علم الإدارة الصناعية .

الفاشية إذن لابد لها من بطل . ما الذى سيحدث عندما يموت البطل ،

ويالها من نعمة كبرى ، موت البطل ، الذى صوره بتهوفن فى رائعته "السميفونية البطولية، هذا يتوقف على كيفية مجيء النهاية وحالة الشعب من حيث الوعي والثقافة ، إنجلترا أيام كرومويل كانت تعد مجتمعًا مصابًا بالفاشية، وكان أوليفر كرومويل (١٥٩٩ - ١٩٥٨) نموذجًا متكاملاً للدكتاتور العسكرى الفاشى (وهم دائمًا عسكريون أو يتظاهرون بذلك بارتداء البزة)، وكان سفاحًا يتذرع بالقداسة ، وحاول أن يجعل ابنه يخلفه على طريقة بدأت تشيع هذه الأيام ، كوريا الشمالية وغيرها ، ولكن هذا لم ينفعه وانتهت الفاشية الإنجليزية بموت البطل المغوار ، وكانت فرنسا أيضًا تعد فاشية أيام نابليون ، وعندما ترك الحكم سنة ١٨١٤ حاول أيضًا أن يجعل ابنه من مارى لويز يخلفه ، ولكنه أيضًا لم يفلح . وهذه من نقط الضعف فى برنامج عبادة البطل ، إن البطل -بحمد الله وبفضله - لا يعيش إلى الأبد ولن يكون ابنه بالضرورة بطلاً قادراً على البقاء فى مقعد الحكم .

الواقع أن البقاء ليس مقدوراً للفاشية كمنظومة . فهى تقوم على القوة العسكرية والقدرة على البطش ، والقوة شيء يحسب له ألف حساب ، فقط إلى متى وإلى أى مدى ؟ وبرغم أن الفاشية - بحجرها على العقول وقمعها للفكر ، والذى يتمثل فى مقولة جوبلز : مجرد ذكر كلمة الثقافة يجعل يدى تمتد إلى سلاحى - برغم أنها بهذه الخواص وبما تخلقه من العداء مع "طوب الأرض" كما يقولون لا ينتظر منها أن تحقق الكفاءة ، فإن ألمانيا النازية لم تكن أبداً فى خيبة إيطاليا موسولينى التى ألحق بها جيش اليونان أمّر الهزائم فى جنوب البانيا ، الواقع أن هتلر تمكن فى أربع سنوات من أن يرفع ألمانيا من حضيض الإفلاس إلى قمة العالم فى ذلك الوقت ، وبنى قوة عسكرية لا نظير لها فى تاريخ البشر من حيث الكفاءة والعبقرية فى القيادة والتفانى ، إلا أننا نظن أن هذا كله جاء من طبيعة الشعب الألمانى

وتاريخه فى العلوم والفنون والفكر والذى ربما كان يتدهور لو استمر هذا النظام لأن للقوة حدودها ، وعندما قرر هتلر غزو الاتحاد السوفيتى كان قد وقّع قراراً بإعدامه وإعدام نظامه . فبرغم الكفاءة الساحقة والعبقرية العسكرية عند جنرالات بروسيا ، فإن "الجنرال البرد" كما قيل ، لا ينتمى لذلك الإقليم ! وإذا افترضنا أن هتلر أحجم عن غزو روسيا ، بل وتمكن من حيازة السلاح النووى قبل الحلفاء (وقد قيل أن التعصب الفاشى هو الذى فوت عليه هذه الفرصة ، لأنه لم يكن يطيق علماء من أصول سامية ، مثل روبرت أوبنهايمر الأمريكى ، وآندريه زخارف الروسى ، وكلاهما أعطى لبلده قنبلة نووية ، وكلاهما يهودى وبالتالى فهو عند هتلر كائن حيوانى) حتى لو تم له ذلك ، وكسب الحرب وقضى على قوة الحلفاء وحقق للجنس الآرى سيادة العالم ، فماذا بعد ؟ إن إخضاع الكوكب كله بقوة السلاح ، لو كان ممكنًا ، سوف يؤدى – على الأقل – إلى امتلاء الدنيا بالجرحى وجثث الموتى من جميع أنواع الحياة ، وإلى تلوث الماء والهواء والغذاء ، وبالتالى إلى استحالة الحياة سواء للصفوة أوالدهماء .

القوة إذن ليست سبيلاً إلى كل شيء ، وإقناع الناس بما فيه خيرهم يجعلها سبيلاً لا داعى إلى سلوكه ، إقناع الناس بفائدة النظام والنظافة أسهل وأنفع من محاولة الإمساك بالمخالفين ومعاقبتهم . إلا أن الفاشية هى نقيض العقلانية . وقد كانت الحرب العالمية الثانية اختباراً قاسيًا – وربما أخيرًا – للفاشية ، ولكن النتيجة تظل مأسوية من حيث أن الدكتاتور الفاشى مولع ببناء جيش ، وحريص على أن يستخدم هذا الجيش ، وباستثناء ألمانيا ، فهو دائمًا جيش لا يصلح للقتال لأنه قد تحول إلى ميلشيا وظيفتها حماية الحاكم ضد أعدائه ، ولكن الحاكم يؤمن بمقولة جورج أوريل فى روايته (١٩٨٤) : الحرب فى الخارج هى السلام فى الداخل ،

فالحرب فرصة عظمى لاتهام الخصوم بالخيانة وإعدامهم (وقد أعدم موسولينى زوج ابنته الكونت شيانو) ، وللتجسس على كل الناس ، لحماية النظام ، كما جاء فى رواية أورويل أيضا ، ثم تجنيد كل الشباب على طريقة اسبارطة ، وبالتالى إخفاء البطالة وجعل الناس يعيشون على الكفاف دون أدنى احتجاج ، فنحن فى حالة حرب ، حرب مع أنفسنا ، ولن نسمح لأى صوت ... إلخ ، وبهذا يمكن إسكات ملايين الشباب بمرتب التجنيد وبذلة الجيش . وهكذا قد اختفت الفاشية من الجزء المتقدم من العالم ، ولكنها – فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . مضت تتمثل فى العديد من دول أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا . بل وفى أوربا ، فقد استولى العسكريون على السلطة فى اليونان إلى أن أمكن إسقاط بابا دوبولوس وعصابته فى السبعينيات ، مما كان موضوع الفيلم الشهير «زد» ولكن موجة أو موضة الانقلاب العسكرى تظل مستمرة ، والبطل يظهر وعندما يختفى فإن "بطلاً" آخر يخلفه . والأبطال هنا ليسوا فى كفاءة هتلر ومجموعة الخبراء والجنرالات المحيطين به ، بل ليسوا حتى فى خيبة موسولينى ، فهم أخيب كثيراً ، مال البلد كله فى جيوبهم وفى سويسرا ، الحوانيت رفوف خاوية ونوافذ متكسرة ، وبين آن وآخر تعثر على زجاجة شربات نصفها رواسب والباقى ماء عكر ، أو علبة من الصفيح الصدئ يسيل على جوانبها شيء كالمربى ولا يمكنك أن تعرف من أى شيء صنعوه . ويتمثل هذا الفقر والجوع فى أوضح صورة عندما يحس البطل بأن بطولته لم تعد تكفى لاستقراره فى السلطة ، وأنه لابد له من تفسير لتدهور الأحوال يستمد من مصدر أعلى من "الكاريزما" التى يراها فى المرآة . لديه هنا طريقان واضحان تماماً .

الاشتراكية ، التى تحقق العدالة الاجتماعية ، وعلى طريقة ماركس

وبحرفية المانفستو . هذا ما فعله كاسترو فى كوبا وبرره بأنه لم يفصح عن عقيدته الماركسية اللينينية إلا بعد أن تأكد من نجاح الثورة ، أما الطريق الثانى فهو الشريعة ، المانفستو الآلهى ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، طالما أنه سيفسر على هوى الحاكم وبما يحقق أهدافه . من هنا جاءتنا موجة "الماركسية الإسلامية" وهى من أعاجيب القرن العشرين ، وقد كتب واحد من الصحفيين معلقًا على هذه التقليعة ، يقول إنه لو كان ماركس حيًا لاستلقى على قفاه من الضحك ! وهكذا فان الحاكم الفاشى لا يتورع عن عمل "كوكتيل" من الفاشية والماركسية ، سواء بدأ ماركسيا وتحول إلى بطل مثل شاوشيسكو ، الذى شارك موسولينى فى مصيره وهو الإعدام على قارعة الطريق ، أو بدأ فاشيا وتحول إلى أحد الطريقين ، وفى بلد أفريقى لجأ حاكم عسكرى إلى التذرع بالاشتراكية أول الأمر واتخاذها تبريراً لما آل إليه الحال ، وهو ما كان سائداً فى الستينيات والسبعينيات من هذا القرن ، وكما كان سائداً أيضًا ، كان هدفه إخضاع الجماهير ومصادرة الأموال لتحقيق أهدافه وتوزيع المناصب على مؤيديه وبطانته ، وكالعادة ، وثب الشيوعيون على السلطة ، ثم كالعادة ، تآمروا على الضابط الحاكم تمهيداً لإرساء نظام ماركسى أصيل ، ولكنه انقض عليهم ، وأبادهم ، وطبعًا وجد أن هذا الطريق لن ينفع ، فاستدار نحو "الشريعة" ، وهى على أية حال كلمة تشترك فى معظم حروفها مع الشيوعية (مما التفت إليه نجيب محفوظ عندما قال على لسان أمينة زوجة عبد الجواد : "الشيوعيين يعنى أتباع سيدنا على ؟" ، وبدأ يقيم الحدود على طريقته مما أدى إلى مزيد من السخط والانقسام الإقليمى الدينى فى ذلك البلد الذى قد انحدر الآن إلى حضيض من الفقر والتعاسة لم يسبق له مثيل . حتى كاسترو ، عاد فوجد أن "الكاثوليكية هى الحل" ، وسعى إلى البابا فى روما ! ويختلف سلوك

الحكام الفاشيين عندما يصلون إلى هذه النقطة المحتومة ، وهى الهزيمة فى الحرب . وهى محتومة لأن الحاكم يؤمن بالقوة والبلطجة ، فهذه كانت وسيلته إلى كرسى الحكم أصلاً ، ثم إنها مكنته من إخضاع غالبية شعبه بالإرهاب الحكومى ، وهو فى نشوة انتصاره يخيل إليه أن هذا ينفعه على مستوى العالم ، هذا ما فعلته عصابة بابا دوبولوس فى اليونان ، وجاليترى فى الأرجنتين ، الأولى فى قبرص والثانى فى جزر فولكلاند ، وفى كلتا الحالتين كان الخطأ فى حساب القوة العسكرية والأوضاع الدولية هو السبب المباشر فى الهزيمة . والعسكريون ، عندما يحكمون ، يتدخلون فى القيادة العسكرية بشكل يخل بالمبدأ الأساسى فيها وهو انتقاؤها وجعلها تعمل طبقًا للمبدأ التاريخى "وحدة الإمرة" ، وهم عادة جاهلون أيضًا لطول اشتغالهم بالسياسة . فى كلتا هاتين الحالتين سقطت الحكومة العسكرية وأحس أعضاؤها بشىء – ولو بشىء – من الخجل . ولكن الكثيرين من حكام آسيا وأفريقيا ذوى النزعة الفاشية ليسوا قادرين على هذا الإحساس ، وكما يقول المصريون "اللى اختشوا ماتوا" ويقال أن هذا التعبير . جاء من واقعة الزلزال الفظيع الذى دمر الإسكندرية فى القرن الثانى عشر ، كان جمع من الناس فى حمام عمومى بعضهم خرج يجرى عاريًا فى الطريق ، فرارًا بعمره ، أما الذين "اختشوا " فماتوا . من هناء جاء أمثال صدام حسين (ومنهم نظيره البلقانى سلوبودان ميلوسوفيتش) ، الحاكم من هذا النوع يتصنع البطولة ويخوض حروبًا مصيرها الهزيمة من قبل أن تبدأ، ثم يستدير إلى شعبه ليعاقبه عليها ، ويجدها فرصة طيبة للتخلص من كل من يبدو عليه الكدر مما لحق ببلده .

إلا أن لكل نظرية حالاتها الاستثنائية . لن نستطيع أن ننهى الحديث عن الفاشية دون أن نذكر الجنرال يسيمو فرانشيسكو فرانكو ، فهو الفاشية

متجسدة ، ولكنه لم يلحق ببلده هذا المصير ، واستطاع بحنكته أن يحالف هتلر وموسوليني ، دون أن يوقع نفسه لا في وهدة الحرب ولا في جحيم الاحتلال الألماني ولا في عداوة لا فكاك منها مع الحلفاء الذين يبدو أنه كان في تقديره أنهم سيكسبون الحرب في النهاية ، وهو ما وقع فيه كويزلنج النرويجي مثلاً ، استطاع فرانكو أن يمشي على هذا الصراط ويتجنب إلحاق المزيد من الويلات ببلده المنكوب ، بل استطاع أن يلحق أسبانيا بركب التقدم الأوروبي بعد الحرب وخلق منها بلداً صناعيًا مزدهراً . وهذا يدلنا على الفارق من أين يأتي ، كان فرانكو قائداً عسكريًا قديراً قبل أن يصل إلي السلطة ، وكان مثقفًا واسع المعرفة مما مكنه أن يكون سياسيًا بارعًا بعد أن وصل إليها ، وكان وطنيًا مخلصًا في هذا كله . إن بلوى الحكام من الفاشيين بأنواعهم الكثيرة تتمثل في جَهلهم أكثر مما هو في خيانتهم لشعوبهم واستهانتهم بها وبكل شيء ، في كل بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، كان العسكريون الذين وصلوا إلي السلطة ـ من أمثال بيرون ـ ضباطًا من رتب صغيرة ومتوسطة لم يخوضوا حروبًا من النوع الذي يتخرج منه الجنرالات من أمثال ديجول أو حتى تيتو ، وخبراتهم في السياسة العالمية والإدارة الداخلية ، ومعلوماتهم في الاقتصاد العالمي وقدرتهم على اختيار الكفاءات ، كل هذا صفر أحمر كبير مستدير ، تتعاقب الهزائم ومطبات الفشل ، ويحس الدكتاتور أنه أوقع بلده في كارثة وأنه لو ترك السلطة سوف لا ينجو من الإعدام ، بعضهم اختار أن يهرب كالشيشكلي، ولاحقوه في ضيعته في أمريكا الجنوبية ، ولكنهم عادة يبقون في السلطة ، مثل صدام وكاسترو و"الزعيم كيم إيل سونغ" ، الذي لم تتخلص منه بلده حتى بالموت ! ويتحول إلي وحش مفترس لا يتورع عن أي نوع من الفظائع وأي درجة من القسوة ، في سبيل البقاء في السلطة.

وفى جميع الحالات فإن مشكلة الحاكم الذى يورد بلده سوء المصير تأتى من أن استئثاره بالسلطة وصنع القرار يوقعه فى المحظور ، بسبب ضعف كفاءته فى الإدارة ، داخليًا ، وجهله بأوضاع العالم والقوى المحركة له ، خارجيًا ، مضافًا لذلك رفضه للاستماع إلى الخبراء لغروره ، من جهة ، وخوفه من تسلطهم عليه من جهة أخرى . وهو عادة مخلص لبلده راغب فى تحقيق صالحها ، لا لدافع وطنى ، وإنما لأن خرابها وهزيمتها ليس فى صالحه بطبيعة الحال ، فهو يريد التوسع لا الانكماش . إلا أن عدم الإخلاص يأتى فى نهاية الأمر بعد وقوع الهزيمة وانتشار الشعور بالسخط وحاجة الحاكم إلى تكميم الأفواه والمضى فى ممارسة أحلامه الصبيانية .

والمؤلم أن الهزيمة المحتومة تولد عند الناس إحساسًا مريرًا باليأس والإحباط يؤدى بالشعوب إلى الإصابة بالداء الذى يسميه النفسانيون "مانيك - دبريسيف" ، فيصبحون عصبيين يضحكون ويصرخون بالتتابع ، فهم قد عاشوا بأحقاد مريرة فى نفوسهم نحو «أعدائهم» أو نحو من تقول لهم أبواق الدعاية أنهم كذلك ، ثم يقبلون راضين على قتال هؤلاء الأعداء ولا يخرجون من المعركة إلا خاسرين كل ما كان لديهم من المال والبنين ! ويتحد الإحساس باليأس والحرمان مع الفقر المتزايد من تكاليف الحروب ، مما يؤدى إلى التكاثر الذى هو توأم الفقر وقرينه ، وسرعان ما تصل الأمور إلى أحوال من البطالة والكآبة تأتى بأجيال من الشباب اليائس المعلول .

والمفروض أن كل حاكم يجلب لبلده مصيرًا كهذا لابد له على الأقل أن "يتنحى" فقط يكون صادقًا فى ذلك . وقد رأينا الحكومات تسقط أو رؤساؤها يستقيلون كما استقال أنطونى أيدن فى أعقاب حرب السويس مثلاً ، بل إن هزة اقتصادية يسيرة تؤدى إلى استقالة الحكومة فى بلاد مثل اليابان وإيطاليا وفرنسا وغيرها . ولكن الحاكم يظل باقيًا حتى بعد أن وضح

أنه أمضى سنوات وهو يصر على سياسة جاهلة بحقائق العالم المحيط به وأنه قد أصاب شعبه بالضرر الفادح الأبدى . القيادة الفلسطينية مثلاً مضت تظن أو تتظاهر بانها تظن أن مصر ستكون قادرة على تصفية إسرائيل لو ان جيشها استولى على السلطة وأزاح القيادة الساعية إلى السلام ، وأن الاتحاد السوفيتى يؤيد مصر بكل قوته لو أنها فقط تعاونت معه وليس مع الإمبرياليين الأنذال ! وكان هناك من يعرفون أن الشعب الروسى كله سوى جزء من العالم اليهومسيحى المسيطر على سير الأمور والراغب فى استخلاص القدس وبيت لحم من سيطرة المسلمين (ونحن نشترى منهم السلاح والتدريب ونريد منهم أن يساعدونا على محاربة الدولة التى اشتركوا فى انشائها وفى ضمان بقائها ، فتصور !!) ، وأن الشيوعية لم تفعل بالمسيحية فى شرق أوروبا إلا أن زادتها رسوخًا بفعل الضنك الذى تعانيه شعوبها من الفقر والكبت والرعب النووى ، وكان هناك أيضًا من يعرفون أن الشيوعية مشروع فاشل وأن خروشوف كان يضمر فى نفسه ما أقدم عليه جورباتشوف بعد إسقاطه بعشرين سنة ، كان "البروفة" السابقة للحدث الحقيقى ، وأنه برغم الصواريخ النووية وما إلى ذلك ، فإن الاتحاد السوفيتى لم يكن قادراً – فضلاً عن كونه راغبًا – على مؤازرة العرب ووضح من أفغانستان والشيشان أن ما لديه ليس سوى جيش من عساكرهم – كما هو الحال دائمًا – ليسوا راغبين فى القتال ولا مقتنعين ببذل أرواحهم من أجل الخرافات السياسية والعقائدية . وهكذا مضت القيادة الفلسطينية تصر على رفضها لجهود المصالحة ، عشرين عامًا كاملة ، إلى ان ذهبت إلى أوسلو فى أواسط التسعينيات وهى تحلم بنزر مما كان يمكنها أن تحصل عليه ، بل وما تم الاتفاق عليه فى كامب ديفيد ، بشأن الحكم الذاتى . أثناء هذه السنين الطوال كان ربع مليون إسرائيلى قد استوطنوا الضفة الغربية . هل

هناك دليل أوضح على خطأ السياسة من ذلك ؟

مثال آخر ، أزمة لوكيربى . ثمانية أعوام عاشتها ليبيا بدون طيران فى عصر يجعل هذا ردة إلى حياة الكهوف ! ثم انصاعت القيادة ونفذت ما كان مطلوبًا منها ! معنى هذا أن هذه القيادة أصرت زهاء ثمانى سنوات كاملة على قرار وضح أنه هو المستحيل بعينه . ومع ذلك ؟

هذه هى السلطة فى أقصى درجاتها ، والمسئولية .. . صفر

ظل الله

للدين مكانة عظمى فى حياة الآدميين ، تأتى من عجز الإنسان عن إدراك أسرار الحياة والموت ، وإحساسه بضآلته فى مواجهة الكون والطبيعة ، ثم من رسالات الأنبياء ، وفى طباع البشر أن أوقات العسر والخوف واليأس تجعلهم .. أكثر من أى وقت آخر .. يتمسكون بدياناتهم ويتخذون منها سبيلا إلى صاحب الدنيا وخالقها ، طامعين فى قوة خارقة تنتشلهم مما هم فيه . وفى هذه الأحوال أيضًا ، يلجأ الناس بمختلف طوائفهم الفكرية إلى أولئك الذين يدعون أن لديهم "الطريق" إلى الله وإلى تلك القوة . وفى دنيا المرض أو الإصابة ، كان الكهنة فى مصر القديمة وفى سومر وبابل هم الذين لديهم أسرار الشفاء ، ولا يقتصر هذا على تلك الأزمنة السحيقة ، ولا يجب أن ندهش لأمر المصريين الذين مارسوا الطب والجراحة ومع ذلك ظلوا خاضعين لممارسات الكهان وشعوذاتهم ، فقد استمر هذا إلى يومنا هذا ، إلى عصر الليزر والطب النووى . ومن أروع الأمثلة على فاعلية هذه الممارسات أنه بعد انقضاء عصر التنوير ثم التقدم فى العلوم التجريبية على مدى القرن التاسع عشر ، وبعد مجىء باستير وابتداع الميكروسكوب وأشعة إكس ، بعد كل هذا والحرب العالمية الأولى فى منتصفها ، نجد راهبًا فلاحًا

من أعماق سيبريا يسيطر على روسيا ويستعبد أسرة القيصر ويعاشر زوجته وفيما قيل بناته الأربع ، بمجرد أن ألقى فى روع القيصرة أنه يملك القدرة الخارقة على شفاء ابنها الوحيد من داء وراثى ليس له علاج معروف .

الذى كُتب عن مثل هذه الحالات فى جميع الملل والنحل ، من مؤلفات بحثية وأعمال درامية ، يصور عالماً من الشعوذة وجيوشًا جرارة من أدعياء الألوهية والنبوة وأصحاب المذاهب والكرامات ومشايخ الطرق ، يكفى أن تقرأ الجزء الثانى من رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، وتنهل من نوادر الزعماء من الزنادقة ، والرذائل التى يمارسونها خفية وهم يحذرون الناس منها ، وهو يقول فى "لزوم ما لا يلزم"

يحرّم فيهم الصهباء صبحا ... ويشربها على عمد مساءً

وهو الذى قال أيضًا عن الإمام الذى "يرتجى الناس أن يقوم" ، يقصد مختلف الفرق من الزنج والقرامطة :

إنما هذه المذاهب أسبا ... بٌ لجذب الدنيا إلى الرؤساء

كالذى قام يجمع الزنج بالبصـ ... رة والقرمطىّ بالأحساءِ

قصة البشرية هذه ، من كهنة المصريين القدماء إلى سطوة البابوات إلى راسبوتين وإلى فرق عبادة الشيطان فى عصرنا هذا ، ما أفدح الثمن الذى دفعته البشرية وما أقبح الفظائع التى ذاقها الناس بسبب الدجالين من تجار السياسة الذين يخدعون الناس ويوهمونهم بأن الطريق إلى الله يمر من خلال سيادتهم وزعامتهم ، ويعلم الله أنه لا شىء بينه وبين الناس ، وأنه مع إدراكنا لخطورة التعميم ، فإنه ولا واحد من هؤلاء ... يؤمن فى قراره نفسه بما يدعو الناس إليه ، وإنهم لا يحضون الناس على الفضيلة إلا ليحتكروا كل أنواع الرذيلة .

وعندما يتهافت أدعياء الزعامة على السلطة وما تأتى به من نعيم الدنيا،

فإنهم لا يقفون عندحد فى ممارسة الدجل وانعدام المروءة والحياء ! وعندما كانت الماركسية هى "موضة" العصر فى دول العالم الثالث ، بسبب البغضاء الطبيعية عند شعوبها نحو القوى التى كانت تستعمر آسيا وأفريقيا ، كان بعضهم يحارون بين استخدام هذا السلاح أم ذاك ؟ ميزة الماركسية أنها ستأتيهم بتأييد إحدى القوتين العظميين ، إلا أن فيها هذا "المطب" وهو إنكار الأديان والحاجة أيضًا إلى قدر أدنى من التعليم والثقافة لكى يتسنى نشر ما فيها من رطانة الجدلية أو "الديالكتيك" ، كلام لا يفهمه عامة الناس، بينما النصوص الدينية مقبولة سلفًا لديهم حتى ولو لم يفهموها . وفيها ميزة أخرى وهى أن الدول التى تحرم الماركسية يمكن لسلطاتها أن تنقض على أوكارها وتضبط ما فيها من ما نيفستوهات ، أما المطبوعات والدروس الدينية فمن الذى يجرؤ على تحريمها وأية ذريعة تكون لديه ؟

أذكر هنا أن دولة عربية كان فيها حزب شيوعى معترف به ولعلها كانت تنفرد بذلك فى الخمسينيات والستينيات ، وقام صحفى مصرى بعمل حديث مع زعيم ذلك الحزب وكان عائدًا لتوه ... من الحج ! ويروى الصحفى أنه جلس أمامه وأنه التفت إلى آية قرآنية كانت معلقة فوق رأسه فابتسم الزعيم قائلاً "أنت مندهش ؟ لماذا ؟ أنا أومن بهذا وبذاك معًا" أى أنه يرى الوجود كله مادة ، وأن كل حقائق الكون مادية وقابلة للمعرفة ، ولكنه أيضًا يؤمن بالبعث والنشور ، وبالحساب يوم القيامة .

لعلنا نتوقف هنا برهة لننتقى مثالين فقط من أمثلة الحضيض الذى ينحدر إليه البشر تحت تأثير الدعاية البارعة والتغرير الإجرامى الذى يمارسه أدعياء النبوة والألوهية ، والمثالان ليسا من جزر جنوب المحيط الهادى أو أحراش استراليا أو البرازيل ، التى لم تكتشف بعد ، بل من قلب مدن من نوع نيويورك ولوس أنجلوس ، والضحايا ليسوا أميين أو فقراء ، بل إن فيهم

مثلاً الممثل العالمى الواسع الشهرة والثراء : جون ترافولتا وإن كان من الصعب عند دراسة أى نموذج للدروشة أن نفرق بين الدراويش والمحركين لهم ، أو المتلاعبين بهم ، وهؤلاء طبعًا هم الوحيدون الذين لا يصدقون ما يقولونه للناس !

رون هابارد (١٩١٢ - ١٩٨٦)

من كتاب قصص الخيال العلمى ، بدأ بإنشاء مراكز للعلاج النفسى بطريقة شرحها ببراعة فى كتاب بعنوان "العلم الحديث للصحة النفسية" ، واستطاع أن يجتذب الألوف بكل الوسائل ويجردهم من مدخرات حياتهم، ثم تحولت مؤسسته إلى "كنيسة" لكى تعفى من الضرائب The Church of Scientology أى كنيسة "العلومية" أو شيء من هذا القبيل ، أنشأ فعلاً ديانة جديدة وجعل من نفسه إلاهًا لأتباعه الذين يصل عددهم الآن إلى ستة ملايين ، منهم النجم ترافولتا ، والنجم اللامع الآخر توم كروز ، وتنتشر فروع هذه الكنيسة فى كل أمريكا وأوروبا ويحميها قانون حرية الممارسة الدينية .

سون - ميونغ - مون (مازال حيًا)

ادعى وهو فى السادسة عشرة أن المسيح ظهر له وطلب منه أن يخلص العالم من إبليس ، ولذلك أنشأ فى بلده - كوريا - "كنيسة الدعوة إلى الوحدة" وبمجيء ١٩٧٤ كان قد بنى إمبراطورية مالية دينية وجمع حوله مئات الألوف من الأمريكان بمجرد البكش والخطابة الممزوجة بالتشنج ، وفى سنة ١٩٨٤ سجن هذا المتأله فى أمريكا بتهمة التهرب من الضرائب ، ولكنه مايزال يحظى بتأييد الإعلام المحافظ وانصاره من الدراويش

جيم جونز (١٩٢٢ - ١٩٧٨)

قسيس أمريكي - أنشأ حركة جذب إليها مئات من الأمريكان من كل صنف وبنى مستعمرة في جويانا بأمريكا الجنوبية ، استولى على أنفسهم وأموالهم وحولهم - بمعونة من حفنة من أتباعه ، كالعادة - إلى عباد وعبيد، ممارساته الشاذة معهم تثير الذهول والذعر ، قرر الكونجرس الأمريكي أن يحقق في الموضوع وأوفد لجنة من أعضائه إلى هناك فقتلهم أعوانه ، جمع أتباعه كلهم وأمرهم بشرب السم وكانوا يقولون فيما بينهم: وماذا في ذلك ؟ سيميتنا اليوم ويحيينا غداً ! انتحر الجميع وهو معهم وأرسلت القوة العظمى طيرانها الحربي ليؤدي وظيفة الحانوتي !

الماركسية : الحقيقة العلمية

"عندما تسود الشيوعية ، سيصبح الإنسان أعظم قوة وأكبر عقلاً وأحدّ ذكاء ، سيزداد جسمه اتساقًا وصوته عذوبة وسيجد الفرد العادي نفسه قادراً على أن يحلق في الآفاق التي صعد إليها أرسطو وجوته وماركس»

ليون تروتسكي : "الأدب والثورة"

"كان الواحد منا يوقن أن السجين الراقد إلى جواره قد مات عندما يجد أنه لم يعد يرى وجهه ؛ لأن أسراب القمل قد انحدرت من رأسه لتغطي ملامحه تماماً"

الكسندر سولزتسين : "ارخبيل المعتقلات"

لقد خدمت الحزب الشيوعى الألمانى سبع سنوات ، وهى الفترة التى قضاها يعقوب فى خدمة خاله لابن ، على أمل أن يفوز بابنته الجميلة راحيل ، ولكنهم زوجوه الدميمة ليئة .

إن اعتناق الأيديولوجيات المجردة ، والشيوعية بصفة خاصة سلوك تتأصل فيه النزعة إلى الشر ويتناقض مع احترام الإنسان لحريته وفرديته

آرثر كوستلر (١٩٠٥ ١٩٨٣)

الظلام عند الظهيرة (١٩٤١)

المعبود الذى فشل (١٩٥٠)

بالاشتراك مع عدد من مفكرى القرن العشرين الذين كتبوا عن خيبة أملهم تحت هذا العنوان .

"تشترك الفاشية والشيوعية فى أن كلاً منهما جهد تبذله أقلية تعمل على أن تصب المجموع قسراً فى قالب يعد سلفًا، وهى فى ذلك لا ترى فى هذا المجموع إلا ما يراه صانع الآلة فى المعادن التى يستخدمها والنتيجة المحتومة لعملية التشكيل هده من حيث أثرها على الفرد الإنسانى هو إما أن يتحول إلى القسوة أو الاستكانة والخمول ، ولا يمكن أن ياتى خير من أناس هده أو تلك هى الصفة الغالبة عليهم . كما أن الإدماج الكامل للسلطة السياسية مع السلطة الاقتصادية تنتج عنه آلة رهيبة للقمع ، لا تترك منفذاً للهرب ، إذ أن طبيعة البيروقراطيين هى أن يرفضوا أى محاولة للتغيير إلا إذا كانت ستأتيهم بمزيد من السطوة"

برتراند راسل "الفاشية والشيوعية

وهذا برغم أن راسل - كما سنرى فيما يلى - يعد نفسه اشتراكيًا يؤمن بالملكية الكاملة لوسائل الإنتاج من جانب الدولة ! ولا يختلف مع الشيوعية إلا من حيث أن النظرية الماركسية تنص على ضرورة التحول بالعنف الدموى، وأن التطبيق البلشفى قضى على إمكانية الحوار الديمقراطى وأنشأ دولة بوليسية ، هذا إلى جانب اعتراضه على أن المادية لابد أن تكون أساسًا لنظرية يعدها أصحابها نظرية علمية ، بمعنى أنها قائمة على ملاحظة تطور المجتمعات الآدمية واستنباط المؤثرات التى تحركها ، وقد أتيح لأبناء القرن العشرين وخاصة أمثالى الذين عاشوا ثلاثة أرباعه أن نرى تجربة الشيوعية كاملة وكأنها فيلم سينمائى ! وأنا شخصيًّا زرت قبر لينين وألقيت نظرة على جثمانه - أو ما هو مفروض أنه كذلك - فقط نظرة خاطفة ، فقد كان عدد المتبركين كبيرًا - كما هو دائمًا - وهم يقفون ساعات تحت الثلوج المنهمرة قبل أن يتلقوا هذه النعمة ، كما قرأت مرة عن محاكمة لص ، وكانت امرأة هى القاضية ، وأخذت تصيح بالمتهم ، و"البكلة" تهتز خلف رأسها : "هكذا تفعل ؟! أهذا ما علمه لنا لينين ؟" تمامًا كما تقول "ربنا قال كده ؟" نعم ، رأيناهم يقدسون واحدًا من البشر ، برغم "حتمية التاريخ" ، وكونه علمًا ، كالكيمياء ، فإذا كان حتميًا ، فما كل هذا التقديس يحاط به واحد لو لم يأت لكان هذا سيحدث على أى حال ؟ وبدرجة يحسدهم عليها سكان الكهوف برغم كونه مجرد متغير فى معادلة جبرية ؟

نعم من الذى ينكر أن مرور تيار كهربائى فى ملف معدنى يحدث حوله مجالاً مغناطيسيًا ؟ من هذا المنطلق يقول فريدريك انجلز ، وكأنه يظن نفسه نيوتن أو فاراداى :

"هذان الاكتشافان العظيمان ، المفهوم المادى للتاريخ ، ثم الكشف عن

أسرار الإنتاج الرأسمالي من خلال فائض القيمة ، جاء بهما ماركس ، وبهذين الاكتشافين تصبح الاشتراكية علمًا ، والخطوة التالية هي أن نضع تفاصيل هذا العلم والعلاقات التي تحكمه » .

نعم ، عقل الإنسان هو نفسه مادة ، هي المخ ، وأشعار بوشكين ليست سوى تفاعلات كيميائية في خلايا مخه تحدث تفاعلات مماثلة في أمخاخ القراء قد تقدمت الفيزياء في القرن العشرين وغاص العلماء في أعماق الذرة وأعماق الفضاء وجاءت النسبية والكوانتم لتثبتا لنا أن مكونات العالم المادي : المادة والفضاء والزمن . . ليست مادية ، وأننا حتى الآن ، برغم ما يقولونه من أن جميع حقائق الكون قابلة للمعرفة ، لا نعرف بالضبط ما هو الضوء أو المجال المغناطيسي .

نحن نستخدم هذه الأشياء لصالحنا ، أما « كنهها » فلا يزيده البحث إلا غموضًا ، وقد بدأت بحوث المادة تتقدم بسرعة في الوقت الذي رسخ فيه النظام الشمولي في روسيا ومعه عقائد المادية والحتمية التي كانت جذورها تمتد إلى أيام لابلاس القائل بحتمية كل شيء حتى سلوك البشر . بل إن نظرية الكوانتم جاء بها ماكس بلانك سنة (١٩٠٠) ثم جاء ألماني آخر سنة (١٩٢٦) ، فيرنر هايسنبرج ، بما يعرف بمبدأ عدم الوثوق ، هذا وذاك يدلان بوضوح على أن الحتمية ليست حتمية إطلاقًا ، لا في دنيا البشر وحركة التاريخ ، بل في عالم الذرة والفيزياء الجسيمة ، وقد كان علماء الروس يبحثون طيلة الوقت في نفس الأمور ألكسندر فريدمان سنة (١٩٢٢) مرورًا إلى ليفشتز وخالاتنيكوف سنة ١٩٣٦ - عصر خروشوف - ولكن من الذي يجرؤ على القول بنظرية علمية تتعارض مع ما في مانفستو الحزب ؟ كان ليسنكو يقول بوراثة الصفات المكتسبة لأن ستالين أمره بذلك ، يذكرنا هذا بالفيلسوف بيركلي الذي لم يوافق على قوانين

نيوتن لأنه كان يعتقد أن المادة والفضاء والزمن كلها « تهيؤات » ، وكان من مفكرى عصره الدكتور جونسون ، الذى خبط الأرض بقدمه صائحًا : « وما هذا إذن ؟ » كان يمكنه أيضًا أن يخبطها برأسه دون أن ينفى هذا حقيقة أنه فى الحالتين لم يخرج الأمر عن تنافر بين مجالين كهربيين !

إرادة الأغلبية : الديمقراطية التعددية

أمتعنى وأنا أطالع أخبار انتصارات "الطالبان" فى أفغانستان ، أن أقرأ أنهم عندما دخلوا كابول كان أول ما رأوا أنه يستحق منهم الاهتمام هو وأد النساء جميعًا ، فلا حاجة لهن بتعليم أو تريض ، وأن هذه العورة المسماة بالأنثى يجب إخفاؤها ومنعها حتى من التنفس إذا أمكن ، اللهم إلا إذا كانت ستنضم إلى حريم السلطان . وأنه لا يجوز لامرأة أن تغادر بيتها إلا بصحبة "بعلها" ، بمن فى ذلك من بعلها مشلول غير قادر على الحركة (وهذا مثال أوردته الصحف) أو تجرى على معاش صغار لا عائل لهم سواها، فهى مثلاً أرملة أو مطلقة ، بل إنهم أمروا بدهان زجاج النوافذ بألوان معتمة لكى لا يحدث أن يمر الرجال فى الطرقات ويلمحوا أنثى هنا أو هناك .

لسنا ندرى أيها أشد فتكًا بالديمقراطية التعددية : تحريم المؤسسات الراديكالية ، وهو ما يتناقض مع منطوقها بشأن الحرية ، أم التصريح بها وجعلها تمارس نشاطها على أساس أن الرخاء سيجعل الناس يستنكرون ما تدعو إليه ، وهذا هو الحال فى الدول الصناعية الغربية . وما توحى به مقولة رجل الأعمال الأمريكى وليم ليفيت ، صاحب مشروع مساكن الضواحى الذى غير وجه أمريكا بتسهيل تمليك المنازل من جميع الأنواع لجميع طبقات الشعب : "إن الرجل الذى يمتلك قطعة من الأرض عليها منزل

يمتلكه لن يكون فريسة سهلة لدعاة الشيوعية" .

علماء السياسة يسمون هذه المشكلة "إطاقة من لا يطيقون أحداً" * بمعنى التصريح بوجود أحزاب مبادئها المعلنة هي الاستئثار بالسلطة وعدم السماح بوجود غيرها ، فالماركسيون يعدون مخالفة مبادئ الحزب جريمة يعاقب عليها الفرد بالسجن أو الإعدام ، والأصوليون يعدونها مروقًا أو كفراً يلقى صاحبه نفس العقوبة . ويبدو أن التعددية الحزبية قد تحمل فى طياتها بذور دمارها، وقد رأينا كيف جاءت الانتخابات الشعبية بالنازى فى ألمانيا فى الثلاثينيات، وبالشيوعيين إلى شيلى فى الستينيات ، والأصوليين فى الجزائر فى التسعينيات ، وفى جميع هذه الحالات كان لابد من التدخل بالقوة سواء من الخارج أوالداخل لتخليص الناس من الكابوس الذى هوالشيء الوحيد الذى يزيد سوءاً عن الهزيمة الحربية (التى أنقذت ألمانيا وغيرها من بلدان العالم الثالث) أو حكم العسكر ، الذى أسوأ ما فيه أنه يقود إما إلى الماركسية أو الأصولية ، أو كوكتيل منهما معًا . فالحرية معناها الحرية للجميع ، بما فى ذلك أعداء الحرية ! ولذلك فإن دساتير بعض دول العالم الثالث – حيث يسهل التغرير بالناخبين سواء كانوا رؤساء جامعات أو راسبى ثانوية عامة – تمنع قيام الأحزاب على أسس دينية وتحرم الممارسة الشيوعية أيضًا ، وهو أمر منطقى لا يتعارض مع مبدأ حرية تكوين الأحزاب، فكيف يسمح لفرقة كرة أن تدخل الأوليمبياد مثلاً بينما شعارها المعلن هو هدم قواعد اللعبة ؟

وليس هذا هو العيب الوحيد فيما يجب أن نسميه الديمقراطية الغربية ، وقد فقدت هذه الكلمة معناها ومعها ذلك التعبير الظريف « الاشتراكية » ففى وقت واحد كانت ألمانيا الشرقية هى ألمانيا الديمقراطية ، وكان الحزب

* Toleration Of the Intolerant .

الحاكم فى كل من ألمانيا الشرقية والغربية هو الحزب الاشتراكى «أيام برانت وشميث» وعندما طحنت الدبابات أجسام الشباب فى ميدان السلام السماوى فى بكين ، كان ذلك عقابًا لهم على المطالبة بالديمقراطية فى «جمهورية الصين الديمقراطية» . نقول ليس هذا هو عيبها الوحيد ، فهناك المساواة - أو عدم المساواة ، كما فى المثال السابق ذكره - فى الحقوق الانتخابية ، وكيف يتساوى رئيس جامعة ، رجلاً كان أو امرأة - مع طالب «بنى خيبان» ؟ كل هذه خواص فى هذه المنظومة معروفة من قديم ، وقد علق عليها بطل العالم الديمقراطى فى الصراع العالمى مع النظم الفاشية ، ونستون تشرشل ، بقوله : أنا لا أجادل فى أن الديمقراطية هى أسوأ نظام سياسى واجتماعى . ثم أضاف : هذا إذا استبعدنا بقية الأنظمة !

ربما . فقط فى رأينا المتواضع أن ضوابط عديدة يجب أن ينص عليها القانون قبل أن يتسنى لدول العالم الثالث أن تمارس أفضل السيئات ، ويظل هذا واحداً من مبررات الوصول إلى السلطة وممارسة القيادة : «الشعب يريدنى !»

لعلنا لا ننهى حديثنا عن الديمقراطية التعددية كخيار ، دون أن نرجع مرة أخرى إلى برتراند راسل ، وأرجو أن يعذرنى القارئ فى تكرار اقتباسى عن هذا المفكر الذى أعده أعظم فلاسفة القرن العشرين وأكثرهم إقناعًا ومنطقية، ولا عجب ، فقد بدأ حياته بإضافة هائلة إلى دنيا المنطق وبترسيخ الماتيماطيقا كأساس للفكر الإنسانى وبردها إلى أصولها المنطقية . والذى يشجعنى على أن آتى برأيه فى هذه المسألة هو أننى آتى به لأعترض عليه فى جانب منه وأظن أن القارئ سوف يوافقنى على هذا .

"هناك شيء بالغ الأهمية نحن مدينون به للعصور الوسطى ، وهو الحكومة الممثلة ، للشعب ، تأتى أهمية هذا من أنه لأول مرة أصبح ممكنًا

أن توجد إمبراطورية كبرى يبدو للناس أن حكومتها هي من اختيارهم حينما يتسنى لمنظومة كهذه أن تحقق النجاح ، فإنها يمكن أن توجد درجة عالية جداً من الاستقرار . إلا أنه قد اتضح في الحقبة الأخيرة أن الحكومة التي تمثل الشعب ليست دواء لكل داء ، يمكن أن يتعاطاه الناس في كل موضع على سطح الأرض ، حقًا ، إن نجاحه يبدو أنه يقتصر على الأمم التي تتكلم الإنجليزية ، وعلى الفرنسيين"

ثم "لا يمكننا أن نفترض أن الحضارة العلمية عندما تزرع في مناطق لم تمر بالمراحل التي مررنا بها ستكون لها نفس الملامح التي تتصف بها عندنا . إن العلم عندما يضفي على مجتمع مسيحي وديمقراطي سيعطي تأثيرات تختلف تمامًا عما يحدث في حضارة تتصف بعبادة السلف أو بنظام ملكي مطلق" .

هذه "الحقبة الأخيرة" التي يتحدث عنها كانت أيام النازي في ألمانيا والفاشيين في إيطاليا ، فقد كتب هذا في الثلاثينيات من القرن العشرين وقد عاش راسل بعد ذلك ليرى كيف أن إسقاط هذين النظامين ثم إنعاش أوروبا بمشروع مارشال في النصف الثاني من الخمسينيات قد مكن من إرساء الديمقراطية التعددية في بلاد لا تتكلم الإنجليزية أو الفرنسية . بل إن ممارسة الديمقراطية في ألمانيا كانت كممارسة أي شيء بواسطة شعب في كفاءة الألمان وعلو مستواهم . هذه الممارسة كانت أروع من نظيرتها في أي بلد آخر إذا كان الاستقرار هوالمقياس . فعلى مدى خمس وخمسين سنة لم يتبادل الحزبان الكبيران في ألمانيا مقاعد الحكم نتيجة للانتخاب إلا ثلاث مرات فقط ، بدأت بالحزب الديمقراطي المسيحي بزعامة إديناور الذي تقاعد بحكم الشيخوخة وخلفه صاحب المعجزة الاقتصادية لودفيج إيرهارد ، الذي يبدو أنه كان "الاقتصادي الشاطر" لا أكثر ، ثم جاء الاشتراكيون بزعامة

ويلى برانت ، وهذا أول مرة يحدث فيها التغيير ، وخلفه هيلموت شميث، لشيخوخته أيضًا ، ثم جاءت الانتخابات بالديمقراطى المسيحى مرة أخرى ، حيث استمر هيلموت كول يحكم أربعة عشر عامًا إلى أن عاد الاشتراكيون بزعامة شرويدر . قارن هذا بما جرى فى إيطاليا وهو ما يناظر الفارق بين هذين البلدين فى التطبيق الفاشى أيضًا ، قائمة حكومات إيطاليا فى نفس الفترة يلزمها مجلد منفصل . إن دل هذا على شىء فهو أن العبرة بمستوى الشعب، فى نفس المقالة التى نقلنا منها هاتين الفقرتين عن راسل ، وعنوانها "حضارة الغرب" ، يقول :

"أشك كثيرًا فى أن حضارة تعتمد على العلم إلى القدر الذى تتصف به حضارتنا سوف يمكنها – على المدى الطويل – أن تفرض حظرًا على أىٍّ من أنواع المعرفة التى من شأنها أن تزيد إلى حد كبير من سعادة البشر" .

هذه هى "ضربة المعلم" كما يقال ، الديمقراطية لن تنجح وتؤتى ثمارها إلا إذا توفر للإنسان قدر معقول من هذه القيم الثلاث : المعرفة – الرخاء – الحرية الشخصية . وإلا فإنها تنهار من أساسها ، إذا كانت الديمقراطية هى الحكم بإرادة الأغلبية ، فعلى هذه الأغلبية أن تكون :

(١) مستنيرة وواعية ، ولاشىء يخفى عليها .

(٢) لديها مستوى معيشة تحب أن تحافظ عليه

(٣) يتمتع أفرادها بكامل حريتهم لكى يكون اختيارهم واعيًا ، ولكى يريدوا أن يستمروا فيما هم فيه ، بعبارة أخرى الاستقرار القائم على الإحساس بالرضا .

الاشتراكية : الكلمة السحرية

قضايا البشر والحياة معقدة ومتعددة الجوانب ، ومن الخطأ أن نعالجها من جانب دون البقية ، خطأ من حيث إن من يحاول ذلك لن يحقق أهدافه أو أية أهداف هو بسبيل التوصل إليها . وكما ذكرنا في بداية حديثنا فإن المجتمع الآدمي لا يكون آدميًا إلا بأربعة أشياء منها الأخلاق ، فهناك ثلاثة أخرى هي الوفرة في الموارد ومستلزمات الحياة ، والتنظيم الإداري والسياسي (بما في ذلك سلطات التشريع والقضاء والتنفيذ الإداري ، وهو ما لا يأتي تحت عنوان الوفرة الاقتصادية وإن كان يتشابك ويتداخل معها طبعًا) ، أما الثالث فهو السعي إلى المعرفة والارتقاء بالفنون ، بوصفهما جانبًا متأصلاً في طبيعة البشر . كل الذين يرفعون شعار الاشتراكية – وعلى رأسهم مفكرنا العظيم برتراند راسل – يعالجون الموضوع من ناحية العدالة ، وهي – إلى جانب الاشتراكية – قضية فلسفية لا أول ولا آخر للنقاش في مفاهيمها ، متجاهلين حقيقة أن الحياة ليست مجرد قضية أخلاقية ، وأن رب الأسرة الذي لا يشغل نفسه إلا بالمساواة بين أبنائه في تقسيم رغيف من الخبز يتجاهل ما هو أهم – أو على الأقل ، أسبق – من هذا وهو حجم هذا الرغيف واحتمال أن يصبح صفرًا إذا فرغ كل جهوده لمجرد قضية القسمة ، ولعله يأتي عليه يوم لا يجد على منضدته شيئًا يقتسم .

بعبارة علمية ، ولنذكر مرة أخرى أن هذا الكتاب يدور حول موضوع الإدارة بصفة أساسية – نحن نعيش في عصر يلعب فيه الإنتاج دورًا كبيرًا بحكم تزايد البشر وتطور الوسائل . وأيضًا تشتد فيه المنافسة بحكم هذين العاملين أيضًا ، ومن المشاهد أن أدنى تفوق في جودة المنتجات بالمقارنة إلى أسعارها يؤدي إلى فوارق لا حدود لها ، وكذلك فإن التكنولوجيا تتطور بسرعة هائلة ، انظر ماذا كان حجم الكمبيوتر في بدء ظهوره وكيف كان

يحتاج إلى قاعة هائلة يوضع فيها وكيف أصبح الآن مجرد حقيبة يد صغيرة أو ربما جهازاً للجيب ، تأمل أثر مجيء هذه الآلة التى تفكر ، على تنظيمات العمل وأساليبه وعلى علوم من نوع بحوث العمليات ونظم المعلومات وإدارة الأزمات .. إلخ ، ومع ذلك يتحدث البعض عن أيديولوجيات لكل الأزمنة. تقوم المنافسة على عديد من الأمور، فقط هى بصفة أساسية :

– الجودة فى صناعة المنتجات وتسويقها

– السعر الذى تعرض به على المستهلك وبالتالى تكلفة الإنتاج ، أو بعبارة أخرى : أسلوب استهلاك الموارد .

والذين يريدون تحويل الحياة إلى قضية عدالة – مع إيماننا الذى لا حد له بالعدل وبالرحمة معًا ولسنا ندرى أيهما فوق الآخر – يتناسون أن عالم الإدارة ينقسم إلى عالمين فرعيين : إدارة ما هو مملوك للجميع ، وبالتالى فهو مملوك للدولة ، أو على الأصح ، للمسيطرين عليها ، والثانى هو إدارة ما هو مملوك لفرد أو أكثر – كحملة الأسهم – حيث يتسنى خفض البيروقراطية ومعها ما تتعرض له الإدارة العامة للمرافق العمومية من تدخل كل من هب ودب من قلاع البيروقراطية وأجهزة الأمن والصحافة (وهى هنا جهاز بيروقراطى أيضاً) واللجنة النقابية ... إلخ ، وأظن أن تجربة التأميم فى مصر واحدة من أظهر الأمثلة على حضيض الفشل فى الإدارة وقد وجدت السلطات أن الحل الوحيد هو بيع شركات القطاع العام وسداد مديونياتها للبنوك . وبينما كان الشعار الذى رفعته السلطة أول الأمر هو "القضاء على الاحتكار" فإن الأمر تحول إلى أشد أنواع الاحتكار سطوة ، وبالتالى انعدام المنافسة تماماً ثم فقدان القدرة عليها فى أى سوق محلية أو خارجية ، ومن حيث المبدأ : كيف ستقضى على الاحتكار ، وأنت "ذلك نفسه" ؟ وقد

أتيح لى أثناء عملى الاستشارى أن أرى كميات من الرواكد ، سواء من إنتاج معيب أو خامات متكدسة بسبب الرغبة فى استنفاد الميزانية وهبوط الانتاج، أو معدات رأسمالية تتكدس فى المصانع لأنها جاءت من اتفاقيات التبادل مع الاتحاد السوفيتى وغيره ، ولا تستطيع الإدارة أن تهمل فرصة للحصول على هذا وذاك لأنها فرصة لا تعرف ما إذا كان الزمن سيجود بغيرها ، كل هذه المكدسات عبء فادح على الشركة ولا يجرؤ رئيسها ولا مجلس إدارتها على أن ينقذ نفسه والشركة بعرضها للبيع وإلا وجد نفسه متهمًا بكل ما فى قاموس القانون الإدارى .

وقد اتخذ تعبير الاشتراكية وضعه كـ « موضة » النصف الثانى من القرن العشرين ، وفى كل بلد فى العالم يوجد حزب اشتراكى ، حتى عندما يكون هناك حزب واحد ، فهو طبعًا الحزب الاشتراكى ، من ألمانيا النازية إلى ألمانيا الشرقية إلى البلاد الشيوعية . حتى فى أمريكا - حيث الاشتراكية كلمة بذيئة لا يجوز النطق بها ، ويجب أن تقول "ليبرالية" أو أى شىء آخر - يوجد حزب شيوعى أو ماركسى يستخدم هذا التعبير المهذب الذى خدع به الشيوعيون العالم : الاشتراكية .

وبالتالى فهناك تعريفات كثيرة . وقد سبق ماركس من حاولوا تحقيق العدالة الاجتماعية قبل أن يطلع هو علينا بالماركسية كنظرية علمية ، منهم الفرنسى فرانسوا فورييه (١٧٧٢- ١٨٣٧) الذى وضع فلسفة قوامها إنشاء مجتمعات من حوالى ألف وستمائة فرد يعيشون معًا فى مساكن مشتركة ويقتسمون ثمار جهودهم بحيث يحصل العمال على النصيب الأكبر من المنتجات ، وقد جرت تطبيقات له فى فرنسا ثم فى أمريكا ، وحظيت باهتمام الكتاب من نوع جورج صاند فى الأولى وناثانيال هوثورن فى الثانية، وقد ألف فورييه عدة كتب شرح فيها محاولاته البريئة لتحقيق

العدالة ، منها "نظرية من أربع حركات" و "العالم الصناعى الجديد" ، وهناك فرنسى آخر هو كلود سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) وهو يختلف عن فورييه فى أنه يحرم الملكية الشخصية والتوارث ، بالتالى ، ويجعل لكل نصيبه فى الملكية العامة حسب مجهوده .

ويرى الماركسيون أن هذه كلها أفكار من نوع "يوتوبيا" ، وليست قائمة على ما يسمونه هم "العلم" - وعندما قامت البلشفية فى روسيا تحمس لها الكثيرون - ومنهم راسل الذى كان فى صباه يبغض الملكية الشخصية ويراها وبالاً على البشرية - وعندما أصيب كثيرون منهم بالذعر لأعمال القمع الدموية التى مارسها البلشفيون ، مما دفع بالكثيرين ممن سعوا إلى الحياة فى الجنة الموعودة إلى الانتحار أو الهروب - فإنهم أسسوا حركات اشتراكية أخرى من نوع الفابية التى أنشأتها مجموعة من المفكرين الإنجليز منهم سيدنى ويب وزوجته بياتريس ، وجورج برنارد شو ، وهم يشتقون الاسم من اسم الجنرال الرومانى كونيتاس فابيوس (٢٧٥ - ٢٠٣ ق . م) الذى تغلب على هانيبال فى حرب قرطاجنة بالسياسة والحساب والخطوات المتأنية وليس بالعنف الحربى وحده .

كل هؤلاء - فى رأينا المتواضع - يبحثون عن شىء هو ، ببساطة ، غير موجود ! لن يتيسر أبداً أن يتساوى الناس لا فى دخولهم ولا فى مستوى معيشتهم ولا فى أى شىء آخر ، بل إنهم يجب ألا يتساووا . ولابد للإنسان أن ينال بقدر ما هو نافع لنفسه ولأسرته ومجتمعه وبقدر إقبال الناس على نتائج جهوده ، هناك بالطبع وسائل لمكافحة الفقر والحرمان ومجازاة من هم مستحقون فقط لم تتح لهم الفرصة ، ولكن الطريق إلى ذلك ليس هو تحويل البشر إلى خراف والإمساك بعصا - فيها مآرب أخرى هى أيضًا لتسييسهم "واستئناسهم" .

يقـدم راسل تعـريفـه هو للاشـتـراكـيـة ، فى مـقـالة عنوانهـا "قـضـيـة الاشـتـراكـيـة" ، أو ربما " الدفاع عن الاشتراكية" : الاشـتـراكـيـة هى امتلاك الدولة للسلطة الاقـتـصـادية النهـائيـة ، وهى تشـمـل فى حـدودها الدنيـا – الأرض والموارد المعدنية ، ورأس المال والبنوك والائتمان ، والتجارة الخارجية. وعلى الجانب السياسى فإن السلطة السياسية يجب أن تكون ديمقراطية . وهويضـيف "مـاركس نفـسـه ، وجـمـيع الاشـتـراكـيين من الوجـهـة الفـعليـة ، كـانوا سيـوافـقـون على هذا ، إلا أنه منذ عـمـد البلشـفـيـون إلى حل مـجلس الدوائر النيابية فإن تعاليم جديدة قد ظهرت" .

يمضى فى هذا إلى أن يقول أنه لا داعى لتحريم الملكية الفردية مادامت لا تستخدم كاستثمار ، وهذا هو الطريق إلى انكماشها واختفائها فى النهاية ، لأنهـا هى وسـيلة التـحكم فى البـشـر عندمـا تـتـحـول إلى ملكـيـة للعـمليـة الإنتـاجـيـة ، والسطوة على الناس يجب ألا تكون فى أيدى عـدد من الأفـراد (لا مـانع من أن تكون فى يد فـرد واحـد على مـا يبـدو !) ، لا بأس بأنواع الملكية التى لا تحقق "السلطة الاقتصادية" – كالمجوهرات مثلاً ، والتى يمكن لمن يملكهـا أن يبيـعـهـا ، فـقط لن يـسـتطيع أن يشـتـرى بهـا أوراقًا مـاليـة لأن البورصة لم يعد لها وجود !

وينص الفيلسوف الكبير على أن هذا يجب أن يتأتى بالإقناع لا بالعنف (مـا أكـثـر مـا تـتكرر كلمـة «يجـب» دون أن يقـول لنا يجب على من ، ثـم كيف ؟) ثم ينتقل إلى تسع مشاكل ويرينا كيف أن الاشتراكية ستحلها ، وهى دافع الربحية وحياة الدعة والفراغ التى يتسبب فيها الأغنياء فى شغل الناس بأمزجـتـهـم الفـارغـة (يبـدو أنه فى غـمـرة تجاهله التام لمشكلة الإدارة ينسى أن الممتلكات الشخصية تحتاج إلى الإدارة وأن الأغنياء ليسوا مجرد قوم لديهم صنبور يدر عـسلاً) ثم مـشكلة الاضطرابات السـوقـيـة يبـدو أنه

أيضًا ينسى (موضوع المنافسة والجودة) ، وبطالة الأغنياء (مرة أخرى) ثم التعليم، والخدمات العامة غير الهادفة للربح ، حتى يصل إلى الحرب ، ثم ما يسميه "عتق المرأة وخير الطفولة" وقد جئنا به فى النهاية لأننا لن نعلق إلا عليه ، ومعه موضوع آخر هو "الفن" .

يرى الفيلسوف - وهذا هو "تهافت الفلاسفة" فى أوضح صوره - إن المرأة عندما تقوم بأشغال البيت فإنها تكون طرفًا فى علاقة عمل عند زوجها أسوأ من علاقة هذا الزوج بصاحب العمل الذى يستأجره (فى غيبة الاشتراكية طبعًا ، فهى ستقضى على هذا وذاك) لأنه - أى الزوج - يمكنه أن يترك العمل ويجد غيره ، كما أنه يتقاضى عليه أجرًا ، أما امرأته فلا تطالب بأجر نظير طهى الطعام وتربية الصغار والحل عنده (كما لو كان معادلة جبرية مما هو مولع به) هو أن يتربى الأطفال فى مؤسسات عامة (مملوكة للدولة طبعًا ، لكى ينموا ليصبحوا بلهاء) حيث يستمتعون بقدر وافر من الفضاء الرحب .... إلخ ، بينما تعمل الزوجة كما يعمل الزوج وتتقاضى أجرها وتصبح حرة تمامًا .

حسنًا ، ليس لدينا اعتراض على أن تعمل المرأة ، فهذا قد أصبح شائعًا تمامًا عندنا ، ولا أن يقضى الصغار أيامهم فى المدارس أو دور الحضانة ، فهذا يصبح ضروريًا بالتبعية ، ولا على إعتاق المرأة من العبودية (وإن كنا قد نختلف على حدود ذلك) الذى نعترض عليه هو إمكانية ذلك فى ظل الملكية العامة التى ستحيل الناس كلهم إلى عبيد رجالاً كانوا أو نساء .

أما تحت عنوان "الفن" فإنه لم يستطع هذه المرة أن ينكر أن الدولة عندما تصبح هى الناشر الوحيد للكتب فإن الفكر سوف يعانى ، وقد شهد بنفسه مصير الأدب الروسى الذى ترعرع على أيدى دستويفسكى وتورجنيف وتولستوى وبوشكين وتشخيوف ، ثم لم يجد الناس فيه ما يقرأ سوى ما يطبع فى الخفاء خارج الستار الحديدى .

أو ربما "المتحدث باسمه" أو "المدافع عنه" ، شيء من هذا القبيل ، تعبير شائع فى الإنجليزية يصفون به عضواً فى مناقشة يتخذ وضع الخصم أو المتهم ويتخيل أنه هو ، ويحادث بقية الحاضرين على أنه هو ، ليريهم ما يتوقع أنه سيقوله هذا الشخص دفاعًا عن نفسه ، بقصد دراسة الاحتمالات التى قد يواجهونها فى النزاع الدائر أو المتوقع .

بهذا المفهوم فقط سوف أتحدث عن الرأسمالية كأحد الخيارات ، ياللهول ! كما يقول يوسف وهبى ، إن القلم يرتعد فى يدى ! خصوصًا وأن أكبر قوة رأسمالية فى العالم وفى التاريخ هى الولايات المتحدة الأمريكية ، والتى لابد أن تكون هى مصدر كل الشرور وكل ما يقع فى الدنيا من فظائع . ليس موضوعنا هو هذا على أية حال ، وقد أصبح شائعًا فى هذا الزمن أن يعمد تجار الدجل السياسى إلى التلاعب بعواطف البشر وعلى رأسها الغيرة، لكى يتزعموهم فى حرب مقدسة للدفاع عن حقوق الفقراء ، على طريقة برجنيف ومن سبقوه . ليست أمريكا هى موضوعنا ، ولا نظن أن الأمريكان قد ابتدعوا الرأسمالية ، من حيث إنها - طبقًا لتعريف الاشتراكية وكونها هى المضادة لها - الرأسمالية هى ملكية وسائل الإنتاج ، وبالتالى إدارتها ، بواسطة رجال الأعمال ومن يشاركونهم فى استثماراتهم بشراء الأسهم والأنصبة ، سواء كأفراد أو مؤسسات . كل هذا موجود فى العالم بل هو القاعدة الأساسية منذ قديم الزمن وقد أدخل الأمريكان وغيرهم فى البلاد الرأسمالية الغربية ، تعديلات كثيرة بقصد تهذيب الرأسمالية والحد من استغلالها للبشر ، وذلك بإصدار الكثير من تشريعات العمل والعمالة ، كالتامين والمعاشات ، والتامين ضد الاصابات ، وقوانين السلامة المهنية وبيئة العمل ، وتشغيل النساء والأحداث ، وقوانين

منع الاحتكار والسيطرة على قوى السوق أو مداولتها ، وإعانات البطالة ، والإعفاءات الضريبية على فوائد قروض الإسكان لتشجيع الناس على أن يتملكوا مساكنهم لتكون فى آخر العمر مصدراً لمزيد من الدخل عند التقاعد ، وأظن أن أحداً لن ينكر أن الفرد الأمريكى قد نعم بما لم ينله النوع الإنسانى فى تاريخه ، العامل المهنى، الذى هو مثلاً محصل فى السكة الحديدية (أذكر هذا لأنى سافرت مرة بالقطار مع مجموعة من الأصدقاء إلى شلالات نياجرا وجاءنا بسيارته فى الصباح ليأخذنا إلى هناك !) ، هذا العامل لديه منزل يملكه وسيارة أو أكثر وحديقة يلعب فيها أطفاله ، لم يعد هذا قصراً على الملوك والأمراء والباشوات وأصحاب الملايين ، بل يناله الرجل العادى ، إلا أننا دأبنا على أن نلوم غيرنا على أنهم لا يحلون مشكلاتنا على طريقة "هاتوا لى حبيبى" ، نشخرم أنفسنا ونلوم كل شخص آخر على عواقب ذلك .

مأثور عن كالفين كولديدج ، الذى كان رئيساً لأمريكا من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٦ ، أنه قال : إن أهم "بيزنس" عند الأمريكان ، هى الـ "البيزنس" ، وهى كما نعرف كلمة تستخدم بواسطة كل سكان العالم ، وهى تأتى فى مقولة كولديج أول مرة بمعنى الانشغال وهو منطوقها الحرفى ، ثم فى الثانية بمعناها الشائع وهو النشاط الاقتصادى ، وإنتاج المشغولات وتسويقها، وتقديم الخدمات ، كل أنشطة البيع والشراء والمبادلة . . . إلخ . هذه هى شريعة الرأسمالية ، اكسب وادفع ما عليك للآخرين ، وهم لا يعيبون على أحد أنه واسع الثراء أو يقدمونه للمحاكمة لأنه جمع "ثروة طائلة" مادام قد جمعها دون أن يخالف القانون ، وأدى ما عليه من ضرائب، ومعروفة قصة الشاب بيل جيتس صاحب ومؤسس "مايكروسوفت" الذى بدأ من الصفر ويتوقعون له أنه إذا استمر بنفس المعدل فسوف يصبح فى بضع سنوات

أغنى رجل فى العالم – فهو قد يكون كذلك الآن – بل أغنى رجل فى تاريخ البشرية . أمر خليق طبعًا بأن يثير النقمة عند مثلى ، وربما عند الملايين من أمثالى * ، ولكنه ليس كذلك هناك ، هذا عندهم يعد بطلاً قوميًا ونموذجًا يحتذى ، وهم فى كل عام ينشرون القصص التى تدل على هذا النوع من البطولة ، وخصوصًا بين الشباب، وهو أمر يتكرر كثيرًا ، أن تجد شابًا أو فتاة فكر فى مشروع وجمع مليونًا أو أكثر وهو دون العشرين ، ربما بكثير ، أمور من نوع صنع الملبس من الفراولة والطواف على البلدان لبيعه . . ، من الأمثلة أيضًا الكاتب الراحل هارولد روبنز ، الذى ولد لقيطًا وأصبح صاحب ملايين وهو فى الواحدة والعشرين . وليس عيبًا عندهم أن يعرض عليك ابن الجيران أن يساعدك فى مأزق أو فى تنظيف بيتك أو كى ملابسك أو الجلوس لمؤانسة أطفالك وأنت غائب ، ثم يتقاضى أجره فى آخر اليوم مع أنه ليس أدنى منك مستوى بأى مقياس ، والكثيرون من عمال النظافة وخدم المنازل هناك طلبة يدرسون الدكتوراة فى أرقى الجامعات ، يشتغلون ليدعموا قدرتهم على المعيشة ، والكثيرون منهم أبناء أثرياء ، ولكن هذا هو العرف السائد . مسئولية الفرد عن نفسه مادام يقدر، وأخذ المال نظير العمل واجتناء ثمار عرق الإنسان هو الذى قصده كوليدج، وأيضًا هنرى لويس ، مؤسس دار "تايم لايف" ، صاحب العبارة الشهيرة : "اربح المال ، وكن فخورًا بذلك ، واربح المزيد ، وكن أكثر فخرًا" ! إنه بالمال وحده تستطيع أن تكون كريمًا ، ووفيًا ، وأبا راعيًا لأولادك ، وابنًا بارًا بأبويك ، وصدق أو لا تصدق ، هذه هى الأخلاقيات الشائعة هناك ، فقط نحن لا نريد أن نرى – وهم ، بكل أسف لا يجعلون أحدًا يرى سوى ضرب

(*) إن كان هذا يهم القارئ ، فإن كاتب هذه السطور لم يمتلك فى حياته مالاً لم يكن أجرا على عمل

الرصاص وشم الكوكايين والفوضى الجنسية (أو ما يبدو لنا أنه كذلك، قدر كبير من المبالغة من جانب الإعلام).

تحقق الشركات وبيوت الأعمال الأمريكية دخولاً سنوية بالترليونات (يعنى ملايين الملايين) ولكنها تتعرض للضرائب مرة بعد مرة وذلك بعد استبعاد ما يعاد استثماره لأن الاستثمار هو الذى يخلق فرص العمل ويفتح البيوت، وبعد فرض الضرائب على أرباح الشركات فإنها تفرض على أنصبة المستثمرين، ثم على أجور العاملين، إلى أن ينحدر صافى الأرباح إلى ما لا يتجاوز أربعة فى المائة، وكما هو معروف فإن الضرائب هناك أولاً فيدرالية، تدفع للحكومة الاتحادية لتغطية الدفاع وغيره من أنشطة الرئاسة، ثم يأتى ما يدفع للولاية نظير الخدمات المحلية كالمرافق والتعليم والصحة والبيئة ... إلخ . والحكومة الفيدرالية تحظى بنصيب يعادل ضرائب الولايات عدة مرات، وأى انخفاض فى أرباح الشركات يؤدى حتماً إلى تزايد العجز فى الميزانية، أما بالنسبة لحكومة الولاية فإن هذا يؤدى إلى انحطاط أحوال المعيشة . صناديق المعاشات وشركات التامين والأرصدة الموقوفة على المؤسسات التعليمية كالجامعات، وعلى أعمال الخير بأنواعها، كل هذه تستثمر أموالها فى الشركات، وهكذا فإن "شرور" الرأسمالية هى الطريق الوحيد لتحقيق خير المجتمع وضمان الوفاء بمعاشات الشيخوخة وتأمينات البطالة ... إلخ .

والنظرة القاتمة إلى الربح سلوك ذهني قديم، وفى التراث الغربى توجد شكوك دينية وفلسفية عميقة الجذور تحيط بفكرة الربح وأخلاقياته، إذا عبرنا عنها بأبسط صورة ممكنة فإنها تكون شيئًا كهذا «الربح الذى يأتى من وراء جهود الآخرين، وهو ليس إلا صورة من صور الاحتيال الذى ينطوى على الشر»، وقد اتخذ المفكر الفرنسى مايكل دى مونتاج الذى عاش فى

القرن السادس عشر هذه الجملة عنوانًا لإحدى مقالاته «إن الربح الذى يأخذه رجل ليس إلا ضرراً يقع على رجل آخر» وكانت فكرته أن على الإنسان أن يدين كل أنواع الكسب» .

إلا أنه بمجيء عصر الرأسمالية منذ مائتى سنة ، وجد دافع الربح مؤيداً قديراً ، ففى كتاب «ثراء الأمم» قرر آدم سميث أن الأرباح عائد شرعى يستحقه الذين يبذلون الجهد ويتحملون المجازفة ، وأن «اليد الخفية» التى تحرك السوق سوف يمكنها أن تحول الأطماع الشخصية إلى فوائد عمومية ، وبعد ذلك بقرن من الزمن جاء كارل ماركس ليشكك فى ذلك ، اتخذ ماركس وجهة النظر المضادة وأكد أن المكون الأساسى الذى يعطى للسلعة المباعة قيمتها والذى يحول المادة الخام عن طريق التصنيع إلى شيء نافع ، هذا المكون الأساسى هو الجهد البشرى ، وليس رأس المال ، وهكذا فهوى يرى أن الربح ليس سوى "قيمة فائضة" أو زيادة على السعر يتقاضاها الرأسمالى دون وجه حق: إلا أنه منذ انطلاق الصناعة فى أواخر القرن التاسع عشر أثبت الربح أنه شيء لا غنى عنه لسير الحياة واستمرار النمو ، كما أنه أصدق المؤشرات دلالة على النجاح أوالفشل ، وبالتالى على الاتجاهات الواعدة للاستثمارات وأيضاً على كفاءة المديرين والقائمين بالعمل .

ما السبب إذن فى النظر بعين الشك إلى النظام الاقتصادى القائم على الربح ؟

السبب الأكبر – فى الولايات المتحدة – هو المغالاة إلى درجة الانخداع فى نسب الربح التى تحققها الشركات كما يتصورها الكثيرون . وفى استفتاء حديث ظهر أن أغلب الناس يتصورون أن هذه النسبة تصل إلى ٣٣٪ والواقع أنها أقل من ٥ ٪ ، والاتجاه العام هو إلى خفض هذه النسبة ، وقد انخفضت نسبة الربح فى خمسمائة شركة تمثل كبريات المنشآت الصناعية فى الولايات المتحدة إلى ٣,٩ ٪.

ومن أسباب انخفاض الربح الاتجاه إلى رفع الأجور ، كانت الأجور فيما مضى تمثل ٦٤٫١ ٪ من دخول الشركات بينما يمثل الربح ١٥٫٦٪ منها ، وفى السنوات الأخيرة وصلت الأجور إلى ٧٦ ٪ وانخفضت نسبة الربح إلى ٨٫٣ ٪ .

والأرباح الآن أبعد ما تكون عن الارتفاع غير المقبول ، بل إنها وصلت إلى درجة من الانخفاض أصبحت تهدد سلامة الاقتصاد وتوفير الاستثمارات اللازمة للتوسع الصناعى . ومن بين عشرين دولة تمثل القمة بين الدول الصناعية فى العالم كانت الولايات المتحدة فى ذيل هذه الدول من حيث قيمة الاستثمارات الجديدة بالنسبة للفرد الواحد ، فى السنوات الأخيرة ، باستثناء لوكسمبورج وبريطانيا .

وفيما يبدو ، فإن الديمقراطية التعددية هى رفيق الرأسمالية ، ومن النادر أن تجد نظامًا تسوده ديناميكية السوق وحرية رأس المال فى بلد نظامه أوتوقراطى ، لأن الدكتاتور سوف يتدخل بين آن وآخر بما يثير الفزع عند المستثمرين ورجال الأموال ، كما أن ملكية وسائل الإنتاج بواسطة الدولة تجعلها هى المستوظف الوحيد أو الرئيسى للقوة مما يعجز أى تنظيم آخر عن ممارسة المعارضة ، وهذا هو المزيج الذى يسود العالم الصناعى الآن ، وإن كانت ألمانيا النازية وإيطاليا قد خضعت كل منهما للحكم المستبد مع بقاء الاقتصاد حرًا ، وكذلك أسبانيا واليونان (أيام بابا دوبولوس) - يبدو على أية حال أن القوى العظمى فى أواخر القرن العشرين والتى قد تدخل القرن الحادى والعشرين بوضعها هذا ، كلها تتصف بالملكية الخاصة للاقتصاد والصناعة مع تهذيب الرأسمالية بالقوانين ، مع ديمقراطية تعددية - ولهذا أهمية سنأتى لها - يهومسيحية التراث ، فيما عدا اليابان ، بحكم تاريخها .

فى دنيا الأعمال

كان كل من جون روكفلر وهنرى فورد قائداً فى قمة الاستبداد بالسلطة والاستئثار بالقرار ، مع إقرارنا بفضل كل منهما على المجتمع الأمريكى من حيث رعاية الحريات والحث على حرية الرأى والقول وحماية الديمقراطية الأمريكية . قد بدأ هذا النمط من العباقرة الطغاة يتوارى فى دنيا الأعمال مفسحًا الطريق لفلاسفة الإدارة المحدثين مثل أ . ف شوماخر « ١٩١١ - ١٩٧٧ » وتوم بيترز « ١٩٣٥ » اللذين دعيا إلى التمكين «Empowerment» وإشراك القوة العاملة فى صنع القرار وتسطيح التنظيم ، بمعنى إنقاص طبقات الإشراف «Flattening» ، وإلى عقيدة أنه إذا كان الضخم قويًا ، فالصغير جميل ، وهو شعار مستمد من اليابان ونماذجها ، ومن ذلك تفتيت الشركات العملاقة إلى إدارات أو وحدات مستقلة تزود مديريها بحرية الحركة وأيضًا تسهل تحديد مواضع النجاح والفشل . هكذا تدخل الديمقراطية إلى دنيا الأعمال من أوسع أبوابها .

إلا أننا مازلنا نرى أن القضية - سواء هنا أو هناك - ليست مسألة « حقوق » بقدر ما هى « كفاءة » ، ولاتزال الكفاءة بمعنى نسبة الانتفاع بالموارد، والفاعلية « نسبة تحقيق الأهداف » ثم الإنتاجية « نسبة المخروجات إلى المدخولات » لا تزال هذه هى أدوات البقاء فى وجه منافسة طاغية وحامية الوطيس ، والديمقراطية التى تمارس فى بيئة أغلبيتها تفتقر إلى هذه العناصر ستكون طريقًا إلى المعاناة ثم الفشل . إذا نحينا الأخلاق جانبًا ثانية واحدة ، فإن أحداً لن يستطيع ان ينكر ان أدولف هتلر رفع ألمانيا من حضيض الفوضى والإفلاس إلى قمة الكفاءة فى زمانه وبنى لها آلة حربية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً فى القوة وخفة الحركة . وكان فى سبيل ذلك يحسن اختيار القادة ويعرف كيف يكتسب ولاءهم « إلى ان وقعت الواقعة

بعد ذلك طبعًا وهو ما لا ينفى حقائق هذه التجربة ، التى تمت فى أربع سنوات ؛ وهو فى ذلك كان نقيضًا لحليفه الخائب موسولينى . والتاريخ ملىء بمثل هذه التجارب . وقد حكم البطالمة مصر قرونًا وكان عصرهم قمة الرخاء والإبداع فى العلوم والفنون مع أنهم لم يكونوا فقط مستبدين بل كانوا أجانب ، ولكنهم – كما وصفهم إدوارد ماير – كانوا ملوكًا موهوبين.

إلا أن هذا شىء آخر ، وقد تميز النظام السوفيتى بوجود "قوميسار سياسى» فى كل وحدة مدنية أو حربية ، وهذا ما ترجمه تلامذتهم الخائبون إلى هذا الشعار التعس الذى قد يصلح لزعامة عصابة لا لإدارة دولة ومجتمع: «أهل الثقة وليس أهل الكفاءة» – وقد أدى هذا بالجيش الروسى إلى ما نراه اليوم : شراذم من الجياع الحفاة ، يبيع الضباط أسلحة وحداتهم لمقاتلى الشيشان نظير رغيف من الخبز أو جرعة من نبيذ القوقاز عالمين بأن جنودهم سيقتلون بهذه الأسلحة . أما بأسهم فى معركة ستالنجراد فقد كان الألمان إذ ذاك يقاتلون الحلفاء فى جبهة والجنرال «البرد» فى الأخرى ، كما أن ضباط تلك الحقبة لم ينشئوا فى ظل الشمولية ولم تكن حتى ذلك الوقت قد أحدثت أثرها فى محو آدمية الإنسان مما دفع بعشرات من المفكرين والشعراء إلى الانتحار أوالموت كمدا .

وسوف تظل الديمقراطية تستلزم أن يكون كل فرد فى كل مؤسسة وفى كل مجتمع ، مستحقًا لما يسمى «حقوقه» وإلا فالنتيجة هى الفوضى . والمجتمع الذى يعانى من التضخم السكانى هو نظير المؤسسة التى تعانى من البطالة المقنعة ، مصيره الإفلاس المحقق .

وفيما نرى ، فإن قضية الامتياز تظل تتعارض مع فكرة المساواة المطلقة . وفى مجتمع أثينا القديم كانت الحقوق الديمقراطية مقصورة على «الصفوة»، مما كان يعجب الخواجا باريتو لو أنه عاش تلك الأيام ، ومرورًا

من أثينا إلى جنوب إفريقيا ، سنجد أن الـ « ابارتيت » كانت نفس الشيء مما كان موضع الرضا من العجوز الاستعمارى تشرشل .

الحب والحكمة

نعم ، هذه الكلمة المبتذلة : الحب ! وضعناها فى عنوان كل قصة وفى كل سطر من كل أغنية وفعلنا بها كل شيء إلا أن ندرك مضمونها و« نضعه موضع التنفيذ » كل هذه الأنظمة فى الإدارة والقيادة حققت نجاحًا مدهشًا فى مختلف عصور التاريخ ، وكلها أيضًا جاءت بمحن وآلام ومآس لاتزال آثارها توجع الناس بعد أن مضت ألوف السنين على الحروب والمجاعات ،التى تأتى من عجز الحكام عن الحب . ولسنا فى حاجة إلى أن نستعرض تاريخ البشرية لكى نجد أن الديمقراطية لم تكن دائمًا هى النمط الذى حقق للناس قدراً من السعادة والرخاء ، فهى تطور حديث نسبيًا ، ومحدود جداً ، وإن كان لا يفوتنا أن نذكر « الحلم الأمريكى » ، لقد أسهمت أمريكا بأمور كثيرة فى تراث البشرية منها فيما يزعم رالف ستوجديل ، أحد فلاسفة القيادة الإدارية ، شيئان : موسيقى الجاز ، والقيادة (!!) فى ظنى المتواضع أن تحقيق الحلم الأمريكى بدرجة أو أخرى ، كان فتحًا جديداً فى تاريخ البشرية ، مكن من إخراج شعب ينعم بقدر غير مسبوق من السعادة وبالتالى بقدر غير مسبوق من الطيبة وعدم الرغبة فى ارتكاب الفظائع التى لا حصر لها فى تاريخ الفتوحات ، هذا مع إدراكنا لخطورة امتداح أى شيء أمريكى . إن أحقية القائد فى القيادة تأتى من « الحب » ، من أنه يحب من يقودهم ، مهما كانت سطوته عليهم ، ثم من « الحكمة » . ستجد كلمة « الحكم » تأتى فى أكثر من موضع فى الكتاب الكريم ، بمعنى « الحكمة » ، فى سورة يوسف : ﴿ ولما بلغ اشده آيتناه حكمًا وعلما ﴾ ، وفى سورة مريم

﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ ، لأن الحكم هو حسن الحكم على الأمور ، هو الحكمة ، وليس التحكم فى رقاب العباد وتسخير أولادهم فى صنع أمجاد المتحكمين ، بناء المعابد وبناء الحصون والموت فى الحروب الحمقاء. نحن فى حاجة إلى « مانيفستو » ينتهى بنداء أيضًا « يا حكام العالم ، اتقوا الله » .

...ومواثيق أخلاقية

المـرأة

"تعد قضية تحرير المرأة جزءاً عضوياً من قضايا تحرير المستضعفين من النساء والرجال ، وبالنسبة للمرأة فإن خضوعها لتركة الموروثات الثقافية والاجتماعية التاريخية يجعلها تعاني أضعاف ما يعانيه الفقراء مهانة واستذلالا وفقدانا للثقة بذاتها وقدراتها ، ويأتي ذلك من الطوق الحديدي الذي شكلته العادات والتقاليد والقيم السلفية عبر مئات السنين والتي رسخت فكرة النقص الأنثوي والهيمنة الذكورية ، وجاءت ثورات النساء عبر التاريخ في شكل هبّات أو انتفاضات متعثرة أو غير متكاملة ، ولم تأخذ شكل تيار مجتمعي يضم العناصر الواعية المستنيرة من الرجال والنساء معا ، ولم تنجح في خلق حركة جماعية ترفع صوت المرأة وحقوقها الإنسانية المشروعة ، إلا بمساعدة المستنيرين من الرجال" .

من مقال بعنوان "تحرير المرأة ، قضية مجتمع "
للدكتورة عواطف عبد الرحمن
جريدة الأهرام ١٨ / ٧ / ٩٩

"إلى متى يظل قاصرو النظر وغلاة المتشددين من الدعاة والمدعين والمخدوعين الذين يقف فكرهم ويمتد بصرهم ويظلون حبيسي الماضي والعهود السحيقة التي لم تعد تصلح إلا لزمانها وعهودها ؟! إن الذين سبقونا لا يبددون جهودهم أو يضيعون وقتهم ، فهم مشغولون بالتقدم ونحن مشغولون بالجن والعفاريت وعذاب القبر وإطالة اللحى وحف الشارب والارتداد إلى عصر الحريم ما

بين مشروعية الحجاب أوالنقاب أو الخمار أيها يؤدى إلى الجنة ، وغير ذلك من قضايا فرعية وغيبية جدلية عقيمة . لقد استغرقنا الماضى وأهلكتنا المرجعيات ووقفنا عند حد التراث نصحو على ذكريات التاريخ المجيد وننام فوق أمجاد التراث التليد نلوك أحداث الأمس ونغفو عن صحوة الغد، فهل حان الوقت لأن نعمل بروح جديدة ونرفع صخرة الماضى الجاثمة على صدر الحاضر ونحد من وصاية الأموات على الأحياء ونعيش حاضرنا ومستقبلنا ؟ إن المرأة العاملة فى وضعها الجديد أصبحت أكثر نضجًا ووعيًا وارتباطًا بالمجتمع ، فلنعطها فرصة متكافئة مع الرجل دون تمييز إلا بمعيار الكفاءة وحسن الأداء ، فالحياة تتآلف منهما معًا »

محمد خالد ، مدير تحرير مجلة أكتوبر
من مقال بجريدة الأهرام ١٩ / ٧ / ٩٩
تحت عنوان "المرأة العاملة"

"وكانت الزوجة قد أقامت دعواها بطلب الاعتراض على إنذار الطاعة المعلن من زوجها إليها للدخول فى طاعته فى المسكن المبين فى الإنذار ، وشيدت اعتراضها على أن المعترض ضده ، عِنّين ، لا يقدر على معاشرة النساء ، رغم إمهالها له لعامين من تاريخ دخوله بها أملاً فى التماس علاج لحالته ، إلا أن العلاج لم يجد نفعًا . وانتهت المحكمة فى قضائها إلى عدم قبول الدعوى لخلو الاعتراض من الأوجه الشرعية التى تستند إليها الزوجة فى امتناعها عن طاعة زوجها"

مقتطف من فقرة بعنوان "عنة الرجل لا تبرر امتناع الزوجة عن طاعة زوجها" ، واردة فى جريدة الأهرام يوم الجمعة٢ / ٧ / ١٩٩٩ ، فى باب "مع القانون"

"مرض شهرى ! دم فاسد ! لابد من التطهير بالاستحمام الجيد ! تصورت بخيال الطفلة أن فساد هذا الدم معناه النجاسة ، وأن النجاسة أمر معيب ومزر ، وأننى يجب أن أخفى مظاهر ذلك المرض عن جميع الأعين وبالذات عن أبى الذى كان يتصورنى فتاة مثالية ، ويعجب بذكائى وتفوقى فى المدرسة ، ورجوت أمى أن تكتم الأمر بينى وبينها ، ولزمت غرفتى أربعة أيام متتالية لا أملك الشجاعة على أن أواجه أبى أو أخى أو حتى الخادم الصغير ، وحينما أذهب إلى الحمام أتلفت حولى خشية أن يلمحنى أحد ، وقبل أن أخرج من الحمام أغسل بلاطه جيداً ، وكأننى أطمس آثار جريمة مشينة، ثم أغسل يدىّ وذراعىّ بالماء والصابون عدة مرات لأزيل كل أثر لرائحة الدم الفاسد" .

"إن معظم النساء يتزوجن وينجبن عشرات الأطفال ثم يمتنَ ، ويدفنَّ دون أن يعرفن لذة الجنس أو يصلن مرة واحدة إلى قمة اللذة" .

د . نوال السعداوى : "المرأة والجنس"

الناشرون العرب : ١٩٧١

"أحمدك يا ربّ أن خلقتنى رجلاً لا امرأة"

سقراط : "الدفاع ، لأفلاطون"

بدء السعادة أن لم تخلق امرأةً فهل تَودّ جمادى أنها رجبُ ؟

أبو العلاء المعرى : لزوم ما لايلزم

لم يكن لحكيم المعرة شأن كبير - ولا صغير - في عالم المرأة ، وفيما عدا ما نظمه في صباه من غزل تقليدى لمجرد شحذ قريحته ، ثم رثائه لأمه ، قد يبدو للمرء أن هذا الشيخ الضرير الرقيق عاش دون أن يدرى أن الله خلقنا من ذكر وأنثى . ولكنه برغم كامل اغترابه عن دنيا النساء مازال يتساءل عما إذا كانت جمادى - وهى ، أو هو الشهر الوحيد المؤنث في اللغة ، جمادى الأولى ، وجمادى الثانية ،ما إذا كانت تتمنى أن تكون مذكراً مثل رجب أو شعبان أو رمضان ... فالكائن البشرى الذى يأتى أنثى إلى هذه الحياة . لا أمل له - أولها - في السعادة كما يراها ، وهو لم يذقها حسب قوله .

تذكرت مقولته هذه منذ فترة وأنا أقرأ خبر وفاة واحدة من ألمع نساء القرن العشرين ، كانت تستمتع بالسباحة فى حمام فندق ريتز الشهير فى مدينة النور والجمال فى باريس ، عندما وافاها الموت الذى يدركنا ولو كنا فى بروج مشيدة ، كانت فى السابعة والستين ، ولدت فى نعيم الأرستقراطية ، وهبها الخالق جمالاً خلابًا وذكاءً لماعًا ، ألفت الكتب عن حياتها الخاصة ، وهى حياة بدأتها بمصادقة أكثر الرجال ثراء ونفوذًا ، كانت دون العشرين عندما قامت برحلة إلى فرنسا بمصاحبة رجل متزوج ، نبيل إنجليزى يكبرها بعشرات السنين ، وكذلك عندما تزوجت ابن ونستون تشرشل الذى كان إذ ذاك رئيس وزراء بريطانيا ، ثم شحنته إلى الحرب وأنشأت علاقة مع سفير أمريكا فى لندن ، الذى كان يكبرها أيضًا بما يقرب من ثلاثين سنة ، ومضت تستمد منه المعلومات الدقيقة لتنقلها إلى تشرشل الذى كان حلمه أن يجر أمريكا إلى الحرب . سرعان ما طلقت من راندولف تشرشل ومضت تبسط شباكها لكل من يروق لها من المشاهير والأثرياء وذوى النفوذ ، محطمة أسر هؤلاء الرجال وحياة نسائهم ، على خان ، شيخ

الطريقة الإسماعيلية ، جياني انجيلي ، مالك مصانع فيات في إيطاليا والذي تحولت من ديانتها إلى الكاثوليكية لتصطاده ، ثم المليونير الفرنسي اليهودي إيلي دي روتشيلد . وانتهى بها الأمر إلى أن تزوجت ليلاندهيوارد منتج "صوت الموسيقى" وغيره من الأعمال العالمية ، وواحد من أعظم الناس نجاحًا وثراء وقد عاش معها أحد عشر عامًا ووصفها - متفاخرًا فيما يقال - بأنها "غانية القرن العشرين" ثم عادت في النهاية إلى رفيقها القديم الدبلوماسي الذي مثل بلاده في بريطانيا ثم في الاتحاد السوفيتي وعمل حاكمًا لولاية نيويورك ، أفريل هاريمان ، من أعظم الأمريكان ثراء ونفوذًا هو أيضًا ، وتزوجته بعد أن كان قد ترمل ، ومضت تقيم الدنيا وتقعدها بمغامراتها في دنيا المال والأعمال والسياسة والغرام . من ذلك أنها فتحت بيتها لأساطين الحزب الديمقراطي من أجل جمع المال لنصرة الحزب مما أدى في النهاية إلى فوز بيل كلينتون بفترة رئاسته الأولى سنة ١٩٩٢ . بقي أن نعرف ماذا كانت غانية القرن العشرين تعمل عندما توفيت في باريس في شتاء ١٩٩٧؟ كانت سفيرة الولايات المتحدة هناك !

كانت قد سبقتها إلى ذلك كله سفيرة أخرى لأمريكا ، هي كلير بوث ليوس . زوجة الرجل الذي أنشأ دار "تايم لايف" هنري ليوس ، كانت سفيرة بلادها في إيطاليا وصاحبة الحكمة الشهيرة : "إن طريق النجاح للمرأة في الحياة هو النفوذ والمال والجنس ، سواء كان هذا الأخير شرعيًا أم غير شرعي" .

ليس في هذا كله جديد على أية حال ، فالتاريخ مليء بأشجار الدر وأقوات القلوب ، وبنساء طموحاتهن تشمل الدنيا بأكملها : بلقيس ، ملكة سبأ ، كانت تطمح إلى أن تفحم سليمان الحكيم . زنوبيا ، ملكة تدمر ، حشدت جيوشها وقادت أعنف المعارك طامعة في قهر إمبراطورية

الروم وبسط نفوذها عليها ، ثم ماتت في المنفى . إليزابيث ، ابنة هنرى الثامن ، حكمت إنجلترا خمسًا وأربعين سنة ووضعت الأساس لكل ما عرفته بريطانيا بعد ذلك من رخاء وقوة بحرية مكنتها أن تسود العالم . وكان شكسبير معاصرًا لها ومسرحياته تمثل في بلاطها وبذلك فإن عصرها كان بداية لفتح عظيم في اللغة والآداب الإنجليزية أيضًا . كاترين ، قيصرة روسيا، كانت تطمح إلى أن تضم القسطنطينية إلى أملاكها ، واستولت على أوكرانيا ووصلت بحدود روسيا إلى البحر الأسود . كانت من أعظم البشر طموحًا وسطوة وكانت تراسل فولتير وديريرو وتستمد أفكارها من مونتسكيو وغيره من مفكرى العصر ، وامتد حكمها أربعة وثلاثين عامًا وكانت تحتفظ في قصرها بـ "حريم" من الرجال .

إلا أنه ليس في مقدور كل امرأة أن تكون واحدة من هؤلاء ، تمامًا كما أنه ليس في مقدور كل رجل أن يكون يوليوس قيصر أو أن يصل إلى ما حققه نابليون وهذا من رحمة الله علينا ، فهؤلاء دائمًا يحققون طموحاتهم أو يفشلون في تحقيقها بخديعة الشعوب وتسخيرها وإهلاك أبنائها وتبديد مواردها في مغامرات لا يريدها إلا هم ويتحمل عواقبها كل الناس إلا هم . وتنتهى بأهوال ومآسٍ من الخراب وسفك الدماء وينتهى الواحد منهم محبوسًا في جزيرة أو منتحرًا في خندق .

المرأة الحديثة

"يتخذ الطموح عند النساء اشكالاً وانماطًا تتأتى أحيانًا من النزوع إلى المساواة أو التساوى ، وهى كلمة يصعب تحديد أبعادها ومغزاها . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين جاءت الثورة الصناعية والحركات السياسية بتطورات سريعة حققت للمرأة اقدارًا متلاحقة من الحقوق

السياسية والسطوة الاجتماعية . وبدأ البعض منهن يصلن إلى مراكز السلطة والحكم بوسائل تختلف عن وراثة العروش وما يماثلها . ولعل بلدان القارة الهندية الأربع هى بعض من أوضح الأمثلة ، وإن تكن فى أغلبها ماتزال وراثية بشكل أو آخر ، فقد صعدت سيريمافو باندرانيكا إلى رئاسة الوزارة فى سيلان أو سريلانكا نتيجة لاغتيال زوجها ، وورثت أنديرا غاندى زعامة حزب المؤتمر عن أبيها (مع إقرارنا بانفراد الهند بين دول العالم الثالث بديمقراطية غربية كاملة تقريبًا) كما أن بنظير بوتو لم تكن لتشتغل أصلاً بالسياسة والحكم لو لم يكن والدها الراحل زعيمًا . أما فى الأرجنتين فقد كانت إيفابيرون هى التى جاءت برفيقها الضابط جوان بيرون ليكون تجسيدًا لأحلامها فى السلطة ثم تزوجته لتحكم من ورائه ثم ماتت وتركته يهتز إلى أن هوى ، وعندما رجع من منفاه كان قد اعتاد أن يكون عرشه حجر امرأة أخرى جميلة يذيب بها قلوب الجماهير الساذجة ، ثم مات هو هذه المرة وصعدت إيزابيلا إلى مقعد الرئاسة فى غفلة من الزمن أيضًا وما لبثت أن تعرضت للمحاكمة والنفى .

وهكذا فإن المثل الرائع يظل هو مارجريت تاتشر التى انتزعت زعامة حزب المحافظين فى بريطانيا من إدوارد هيث ووصلت إلى الحكم بأحقية سياسية كاملة ثم مارسته بعزيمة يحسدها عليها "أتخن شنب" - ووضعت بصماتها الثابتة على صفحات التاريخ ، وعندما تنحت (فعلاً !) فإنها أعلنت - بعد أربعة عشر عامًا فى السلطة - أن هذا يأتى بناء على رغبة أعضاء أسرتها ، فقد ظلت طيلة هذا الوقت زوجة لنفس الرجل .

إلا أن هذا كله ليس مقياسًا لموضوعنا وهو إنجازات المرأة بعيدًا عن مواقع الحكم والسلطة التى رأينا أنها ترجع إلى أزمنة بلقيس وزنوبيا وكليوباترا . وقد ذهبت بلدان الغرب ، وخاصة بلدان شمال أوروبا واسكندنافيا - إلى

حدود بعيدة فى مساواة المرأة بالرجل وتمكينها من اللحاق به دون أية عوائق. وقد أصدرت المحكمة العليا الأمريكية حكمًا تاريخيًا يقضى بعدم دستورية اقتصار المعاهد العسكرية على الذكور دون الإناث ، وفى هذا المضمار فإن المحاكم العسكرية الأمريكية تحفل بقضايا التحرش الجنسى ، وقد بدأت الفتيات يقدمن استقالاتهن من الكليات العسكرية احتجاجًا على ما يلقينه مما ينتظر أن يحدث فى أوضاع شاذة كهذه . ذكرنى هذا بمونولوج فكاهى كان شائعًا فى طفولتى (وهذا زمن بعيد جدًا !) أظن كان يؤديه الثنائى الرائع حسين ونعمات المليجى - رحمة الله عليهما - بمناسبة ظهور فكرة أسموها إذ ذاك فى مصر : "البوليس النسائى" ، فى المونولوج مقطع يخاطب فيه الثنائى طابورًا خياليًا من نساء الشرطة ويقولان : أمباشى فاطمة ! آه شفايفك ، خف الحمار عنها شوية ! طبعًا نحن لم نر الأمباشى فاطمة ولكن الدنيا كلها الآن فيها نساء فى الشرطة والقوات المسلحة فى وظائف تستلزم ذلك . لكننا عشنا لنرى فصائل الجنود فى القوات الأمريكية تقودها "جاويشة" من النساء ، ولديهن امرأة فى رتبة جنرال ، وهى تعادل بمسمياتنا رتبة "الفريق" وشفتاها أكثر حمرة من شفتى الأمباشى فاطمة بكل تأكيد ، وقد تثب قريبًا إلى قيادة السلاح الجوى . هذا مع أن من مشكلاتهم فى الجامعات مثلاً ما يسمى "حفلات التدشين" ، مؤداها أن المتقدمين للالتحاق بالكليات - سواء المدنية أو العسكرية - يجتازون محنة مطلوب منهم أثناءها - ومنهن الآن أيضًا - أن يثبتوا - ويثبتن - رجولتهم- ورجولتهن ، باحتمال أنواع من الصعاب التى يخلقها الزملاء القدماء ، بما فى ذلك الضرب والركل والتلويث . وقرأت مرة وصفًا لإحدى هذه الحفلات ، جاءوا بخنزير ملئوا أمعاءه بعقاقير تحدث الاسهال وأطلقوه فوق رءوس الطلبة ، والذى يحتج أو يحاول الهرب من الموقف فهو

"خرع !" (مثل إيدن) ، وغير جدير بالالتحاق . هل صحيح أن المرأة – فى المجموع أو فى المتوسط – أضعف من الرجل جسمانيًا ، وبالتالى فهى أيضًا أدنى منه ذكاء ومن كل وجهة أخرى ؟ لقد أصبحنا نراها تتدرب على الكاراتية ويمكنها أن تثب فى الهواء وترفس أقوى رجل وتصرعه أرضًا ، ولكنها لم تدخل معه حلبة كرة القدم أو المصارعة ، ولا نراها تتساوى معه فى الفرق الرياضية المختلطة . أما فى مجال العلوم والآداب والفكر ، فللمرأة ظهور واضح فى أغلب المجالات ، ولكنها أيضًا تختفى تمامًا من بعضها بشكل يستدعى الالتفات . لماذا لا توجد فيلسوفة واحدة ؟ ولا مؤلفة موسيقية أو ملحنة ؟ أو قائدة أوركسترا برغم وجود عازفات مبدعات ؟ كذلك تتدنى مكانة المرأة فى التأليف المسرحى والإخراج أيضًا ، برغم أنها فى الأداء الدرامى ، لا تقل عنه . كما أبدعت المرأة فى التأليف الروائى – وإن كانت عادة تشغل نفسها بقضيتها ، عدا حالات نادرة مثل إيريس ميردوك ، أما فى الشعر فهى عادة تحس بالحرج من التعبير عن مشاعرها ، بصرف النظر عن أحكام المحاكم العليا . هناك نساء متمردات مافى ذلك شك ، ومن كل لون ، يفقن السيدة السفيرة ونظيراتها بشأو بعيد ، منهن الكاتبة الاسترالية صاحبة الكتاب الذى أثار ضجة فى الستينيات ، "الأغا الأنثى" ، جيرمين جرير ، وغيرها ، فقط هذا ليس مقياسًا بالطبع ، ومازال الحياء كما نراه فى شعر عمر بن أبى ربيعة وأمثاله ، والعفة بمفهومها التقليدى ، مايزال هذا يتمثل كقيمة إنسانية فى الأسرة الغربية برغم ما نحن مولعون به من تجريحها . بعبارة أخرى : الدنيا مازالت بخير ، والمسلسلات التى يسمونها هناك "أوبرا الصابون" لا تعبر إلا عن رغبة منتجيها فى إحداث الانفعال عند من يدمنونها ، شأنها شأن بقية أنواع العقاقير المثيرة لمثل هذه الأحاسيس .

الناس والنحل

يقودنا هذا إلى السؤال القديم : هل الإنسان كائن بيولوجى له طبيعة ثابتة تفرض نفسها على الذكر والأنثى بحيث يظل مركز المرأة فى المجتمع ودورها فى حياة البشر ناشئًا عن طبيعتها كأنثى ودورها كأم ، كما فى بقية الكائنات ؟ أية إجابة على هذا السؤال يمكننا إثباتها أو نفيها بدرجة أو أخرى .

لديهم فى طوكيو ملهى ليلى اسمه "ملكة النحل" . الذكور لا يتعرضون فيه للموت البيولوجى فى الواقع ولكن للاسم مغزاه الواضح . فى مملكة النحل توجد أنثى واحدة ، لاغير ، هى الملكة . وهى أصل الحياة ومستودعها ومصدرها الوحيد . وهى تستعمل الذكور فى الإخصاب فقط، ثم تقتلهم ! وهذا يجرى وهى فى طيرانها والذكر يلاحقها إلى حتفه ، فهو بعد أن يفرغ من أداء مهمته ترى الملكة أنه لاداعى لإبقائه عبئا على المجتمع، وهى تجتذب إليها ذكراً بعد الآخر فى أداء تحسده عليها القيصرة والسفيرة ومضيفات الملهى الليلى ، والذكور يهلكون بفعل انتزاع أعضائهم بواسطة الملكة بقسوة ونذالة لا مثيل لهما ، اللهم إلا عند بعض فصائل العناكب (وهناك آلاف منها) ، تعود ملكة النحل إلى الخلية حيث تتلقاها الشغالة (وهؤلاء مجرد أغوات) لتخليصها من بقايا المغامرة القاتلة ، استعداداً لـ "طلعة" جديدة ، وهو نفس الأسلوب الذى تتبعه أنواع أخرى كالنحل الأبيض الذى يمارس الإخصاب فى رحلات فضائية هو أيضًا ، وأنثى العنكبوت لا تكتفى بالتخلص من الذكر لتعفى نفسها والمجتمع من "أعباء معيشته بعد أن أصبح بلا فائدة ، بل إنها .. تفترسه ! تلتهمه فعلاً ! وذكر العنكبوت يمارس الإخصاب مستلقيًا على ظهره مما يمكنها من أن تنقض عليه بوحشية لا يقدر عليها ذكر من أى نوع ، لا داعى لأن يظل مجرد

"جسد على الأرض ملقى" كما يقول عبد الوهاب فى أغنية شوقى .

استطراداً من هذه الظواهر البيولوجية يريد البعض أن يصوروا أنثى الإنسان كما لو كانت ملكة النحل على هيئة الإنسان :

فى مسرحية برنارد شو "الإنسان والسوبرمان" ، نجد حواراً بين الفتى الرقيق "أوكتافيوس" وصديقه المتفلسف "جون تانر" ، بشأن وقوع الأول فى غرام الفتاة "آن" التى هى الشخصية الرئيسية فى المسرحية ، نرى تانر يحذر صديقه من أن يتزوج محبوبته ، فالمرأة كائن متوحش مهمتها أن تلتهم الرجل بنفس طريقة النحل والعناكب :

تانـــــر : هذا هو الجانب الشيطانى فى انبهار امرأة برجل ، إنها تجعله يرغب فيما هو فى الحقيقة دماره وانتفاء وجوده .

أوكتافيوس : ولكنه ليس دماراً ، إنه الإشباع ، تحقيق الهدف .

تانـــــر : نعم ، ولكنه هدفها هى وحده الذى سيتحقق ، وهذا الهدف ليس سعادتها ولا سعادتك ، إنه هدف الطبيعة . إن الحيوية عند المرأة ليست سوى فورة الخلق ، إنها تضحى بنفسها فى سبيله ، فهل تظن أنها تتردد فى أن تضحى بك ؟

أوكتافيوس : ولم لا ؟ إنه بالضبط لكونها ناكرة لذاتها فهى لن تضحى بمن تحب .

تانـــــر : هذا هو الخطأ الفادح يا عزيزى ، إن المرأة التى تنكر ذاتها هى بالضبط تلك التى تضحى بالآخرين دون أدنى تردد ، إن النساء لكونهن غير أنانيات ، يظهرن العطف فى أمور تافهة ، وهذا لأن لديهن هدفًا آخر، بعيداً ، إنه ليس هدف المرأة ، إنه هدف الكون كله ، والرجل عند المرأة ليس سوى أداة لتحقيق هذا الهدف .

أوكتافيوس : لا تكن مفتريًا يا جاك ، إنهن يبذلن عناية فائقة بنا .

تانـــــــر : نعم ، كما يعتنى الجندى بسلاحه والموسيقى بالآلة التى يعزف عليها . فقط هل يسمحن لنا بأى قدر من الحرية أو بأن يكون للواحد منا هدفه الخاص ؟ هل يستطيع الرجل أن يفر بجلده بعد أن تستولى عليه المرأة ؟ إنهن يرتعدن عندما نتعرض للخطر ، وينتحبن عندما نموت ، ولكن الدموع لا تذرف من أجلنا ، بل حزنًا على أب مفقود ، وابن كان يمكن إنجابه ، إنهن يتهمننا بأننا نعاملهن كأدوات للمتعة ، فقط كيف يمكن لأنانية الرجل التى تتمثل فى نزوة ضئيلة عابرة ، أن تستعبد امرأة بالقدر الذى يتعرض فيه الرجل لاستعباد من المرأة وهى مدفوعة بما هو كامن فيها ، وهو هذا الطاغى من جانب الطبيعة ، هدف الخلق !

لا بأس بهذا عندما يأتى فى كوميديا فلسفية ، ولكن أنثى الإنسان ليست نظيرة لملكة النحل مهما كانت غرائزها الأمومية متفقة مع دستور الحياة ، فللأب مهام تتجاوز مجرد الإخصاب ! وفى دراسة حديثة للمواليد فى الدول الأوروبية ، حيث يعانون من الانخفاض الذى يؤدى إلى تزايد أعداد العجائز الذين يعيشون على كدح شباب تتناقص أعدادهم – أجريت أخيراً دراسة إحصائية كشفت عن أن نصف مواليد الدول الإسكندنافية يولدون من نساء غير متزوجات يعاشرن آباء هؤلاء الأطفال ويعرفنهم ، وفى فرنسا – حيث النسبة تصل إلى ٣٥ ٪ والشكوى من قلة المواليد حادة وقديمة – عرضت الصحف صورة للرئيس الفرنسى جاك شيراك وهو يحمل حفيداً جديداً جاءه من ابنته « مادموازيل كلود شيراك » ، التى رأت أول

الأمر أنها ليست مضطرة للبوح باسم والد طفلها فهذا أمر يخصها هى فقط، ثم عادت فقدمته للأسرة ، وفى واحد من الأحاديث التى دارت مع العديد من النساء الأوربيات الشابات اللاتى رأين أنهن بهذا السلوك يشبعن رغبتهن السامية والطبيعية دون حاجة لأن تبتلى الواحدة منهن بمعاشرة هذا الكائن القبيح الذى يسمونه الرجل ، صاحت واحدة منهن : ما الذى سأجنيه من معاشرة رجل لمجرد أنه والد طفلى ؟ أن أظل طيلة حياتى مسئولة عن غسل جواربه ؟

بل والأمر قد يصل إلى أبعد من ذلك ، فقد سمعنا أخيراً عن زوجة فعلت بزوجها ما تفعله ملكة النحل بذكورها ، والأكثر من ذلك ،أن المحكمة برأتها واعتبرتها محقة فى ذلك ، بالنظر إلى سلوكه الوحشى معها ، إذ قد ثبت أنه حاول "اغتصابها" - وهو ما يذكرنا بفيلسوف التاريخ أرنولد توينبى ، فقد كانت فلسفته قائمة على القول بان المجتمع ا لآدمى يمر بثلاث مراحل هى النوم ثم النضج ثم التحلل والانهيار - (وهو يشبه ما يقول به أوزوالد سبنجلر أيضاً) تماماً كالفرد الآدمى . ويبدو أن أوروبا قد دخلت إلى المرحلة الثالثة ، إذ إننا لا نظن أن نشوء الصغار دون آباء ودون رعاية يؤدى إلى نتائج طيبة للمجتمع ككل ، عندما يكون هو القاعدة وليس الاستثناء . ومن يدرى ، فقد تتحول قصة الدوس هكسلى «عالم جديد شجاع» من مجرد التناسل المعملى بالإخصاب الصناعى إلى تعميم الاستنساخ ، وعندئذ لابد فعلاً من إبادة الرجال والاعتماد على أنواع من الروبوت لكى يظل هناك معنى لأغنية كالتى يغنيها سيناترا : «غريبان فى الليل ، يتبادلان النظرات» .

وظيفة الأمومة

لا أحد ينكر حنين المرأة إلى الإنجاب ولا حقيقة أنها « مبرمجة » هكذا . ونحن عندما نتحدث عن المرأة لسنا مضطرين لأن نتخذ لها أنموذجًا مثل الخيزران ، أم هارون الرشيد ، التى جعلت جواريها يزهقن أنفاس ابنها الخليفة موسى الهادى فى صراعها معه على السلطة ، نحن نتحدث عن المرأة العادية: موظفة ، طبيبة ، محامية ، وأيضًا زوجة أوكتافيوس هذا أو أوكتافيوس قيصر ، فإنها عادة ستكون أما أكثر من أى شىء آخر فالخالق قد صنعها لتريد ذلك .

لنأخذ هذا المثال من البرازيل ، ماريا سيلفيا ماركويز – كانت مديرة الشئون المالية لبلدية مدينة ريودى جانيرو سنة ١٩٣٣ ، وصعدت بها من خمسة ملايين إلى ١,٢ بليون فى ثلاث سنوات فأسموها « امرأة البليون دولار » وذلك عن طريق برنامج لخفض التكلفة ومكافحة الهالك والفاقد والتفاوض مع متعهدى الخدمات من أجل أداء أفضل ، ومكافحة التهرب الضريبى . عرض عليها منصب عمدة ريو ولكنها وجدت منصب رئيسة شركة الحديد والصلب أكثر إغراء . بدأت هذه الشركة كمصنع فى بلدة تبعد مائة كيلو متر شمال العاصمة ، فى سنة ١٩٤٦ وكانت مملوكة للدولة، وهى الآن أضخم شركة فى البرازيل كلها ، وقد حولتها هذه السيدة إلى ملكية خاصة ولجأت إلى تقسيمها إلى مراكز ربحية منفصلة ومستقلة ، هدفها الأسمى إشباع سوق البرازيل بمنتجات رفيعة المستوى بأسعار أدنى مستوى من المنافسة العالمية ، محتذية نماذج فى الإدارة من اليابان وكوريا . أطلق عليها وزير مالية البرازيل لقب « قوة الطبيعة » – ظلت تعمل فى مكتبها فى رئاسة الشركة إلى أن أوشكت على الوضع وحذرها طبيبها من أنه لن يظل مسئولاً عنها إذا لم تكف ، وقد وضعت توأمين ، ولم يمنعها

هذا من أن تصدر تعليماتها من سريرها بالمستشفى .

آيلين كولينز ، أول امرأة تقود رحلة فضاء ، انطلقت فى الساعات المبكرة من صباح ٢٣ يونية ١٩٩٩ ، بمكوك الفضاء "كولومبيا" وطاقم يشمل أربعة رجال ، بعد ثمانى ساعات من الإقلاع ، أطلق المكوك مرصد الفضاء "تشاندرا" الذى تكلف تجهيزه مليارًا ونصف من الدولارات ، والذى يتكون من أربعة طوابق ويزن ثلاثة وعشرين طنًا ، أضخم حمولة يأخذها المكوك ، ليبقى خمس سنوات فى الفضاء ليستخدم أشعة إكس فى دراسة ظاهرة الثقوب السوداء . عادت السيدة كولينز بالمكوك وطاقمه بعد رحلة استغرقت أربعة أيام .

السؤال هو : بعد أن نالت المرأة الغربية كل هذا القدر من الفرص ومن الحرية ومن المساواة التامة بالرجل فى الحقوق والواجبات ، ما هى النتائج التى حققتها وهل يتناسب عطاؤها مع ما بذل من أجله ؟ وما هو المردود المتوقع من حيث خير البشرية أو شرها ؟ وهذا الفارق الهائل بين المرأة الغربية التى تحوز كل ما تصبو إليه ، ونظيرتها فى مجتمعات العالم الثالث ، فى عصر تسوده الـ «إنترنت» و«الساتلايت» وتنتفى فيه الحدود ، ماذا سيكون تأثيره؟ هل نحن حقًا فى حاجة إلى «نساء الإدارة» ، ولماذا ؟ إن المرأة دخلت إلى قوة العمل بفعل الحاجة إلى أعداد متزايدة من الرجال مما يجعل اشتغالهم بالأعمال التى لا تتطلب العلم والمهارة والقدرات التى لديهم ، يصبح إسرافًا وتضييعًا . ومما تجدر ملاحظته أنه تقليديًا - حتى الأعمال التى درجت النساء على احتكارها على مدى العصور ، كالطهو والحياكة ، عندما تتطلب مستوى عاليًا جدًا أو رفيعًا ، فإنها تنتقل إلى أيدى الرجال ! وكل هذا الحديث عن نماذج رائعة من النساء فى كل شىء ليس إلا حالات استثنائية لا يجوز استنباط القواعد منها هل نحن نحسن استخدام هذا

المورد البشرى العظيم ، الذى تمثله المرأة ؟ إننا قد نحسن استخدام كل مورد عدا المورد البشرى ، سواء كان هو الرجال أم النساء ! إننا لا نرى فى الشباب من الذكور سوى وقود لآلات الحروب الحمقاء التى يشنها سفهاء الحكام من أجل أطماعهم الصبيانية ، ولا نرى فى النساء إلا أهدافًا للجانب البيولوجى من غرائزنا نحن الرجال . يبدو أننا ننسى أن كل واحد فينا قد جاء من رحم امرأة ورضع من صدرها وأنها بذلك جديرة بالقداسة لا بالشراسة . إنها هى أساس الحياة كما وجدناها ، ومن يدرى ما تكون عليه حال الدنيا لو أن المرأة تولت إدارة كل شىء ؟ رحمتك يارب !

إلى أين نحن ماضون ؟

من متوسطات الربع الأخير من القرن العشرين ، يقول الباحثون أن المرأة لم تحقق نتائج تتناسب مع ما أعطيت من فرص للتقدم ، وقد كانت الحرب العالمية الثانية هى أعظم هذه الفرص لأنها كانت البداية الفعلية لخروج النساء من دائرة الأعمال التى درج أصحاب الأعمال ورؤساؤها على قصرها عليهن ، وهى الأعمال الكتابية والإدارية والخدمات المكتبية والتمريض ، ومنذ ذلك الحين لم يحدث لواحد من العوامل أن يكون له كل هذا التأثير فى توزيع الأعمال بين الجنسين ، وإلى جانب بدئهن فى الاشتغال بأعمال الرجال بسبب ظروف الحرب ، فإن وظائف عديدة من التى انتقلت إليهن أصبحت الآن حكرًا عليهن فى العالم الصناعى ، مثل وظائف البيع فى المتاجر وخدمات الغرف فى الفنادق وغير ذلك . فى مهن الطب مثلاً ، نسبة النساء أقل من ١٠٪ وفى الجراحة لا تزيد على واحد إلى٢ ٪ .

ولكن المدافعين - والمدافعات - عن المرأة يرون (نعم يرون ، ولو كانوا رجلاً واحدًا ومائة امرأة!) أن قصور المرأة عن التساوى مع الرجل فى الأعمال

والوظائف قد يكون راجعًا إلى أن الداء الأصلى ، وهو تفوق الرجل وسيطرته، لايزال سائدًا . كلا القولين له نصيب من الصحة على أية حال ، خاصة أن المقاييس متنوعة وتعطى مؤشرات متباينة ، كما أنه حتى فى العالم الغربى - يعنى الصناعى - نجد النسب متفاوتة جدًا . فبينما نجد النساء فى الدول الإسكندنافية لهن الآن نصف مقاعد الوزراء مثلاً فإنه فى أمريكا قد لا تجد أكثر من واحدة أو اثنتين فى الحكومات المتعاقبة . وبينما تمثل القوة العاملة من النساء فى أمريكا حوالى الثلث (وهو أقصى ما ينتظر، فلا تزال النساء يقمن بوظائف الحمل والولادة والإرضاع) ، فإن هذه النسبة لا تصل إلى نصف ذلك فى اليابان وهى بلد صناعى بنفس القدر . وبينما نجد الدارسات فى معاهد الصحافة والإعلام فى أمريكا يمثلن النصف ، فإنه وبرغم بربارا ولترز وهيدا هوبر وغيرهما - فإن أغلب الصحفيات الأمريكيات يشتغلن فى المجلات الأسبوعية والجرائد غير واسعة الانتشار ، وأجورهن منخفضة نسبيًا برغم رقابة التنظيم القومى للنساء والذى يضم عشرات الألوف من المتنمرات ، ولاتزيد نسبة النساء فى الصحافة والإعلام على متوسط لا يتجاوز ١٥ ٪ ، وفى أوائل السبعينيات حصلت أول امرأة على جائزة بولتزر وانضمت أول امرأة إلى نادى الصحافة القومى . وهذه النسبة محفوظة - أو تنخفض عن ذلك - فى الفنون ، أما فى القضاء فخريجات القانون نسبتهن فى أمريكا ٥ ٪ والقاضيات لا يزدن على ذلك برغم تعيين امرأة لأول مرة فى منصب قاضية فى المحكمة العليا هى « ساندرا داى أوكونر» لأول مرة ، وكذلك وجود امرأة فى مركز وزير العدل فى حكومة كلينتون وهى جانيت رينو . بينما هذه النسب تصل إلى أكثر من ذلك بكثير فى ألمانيا وروسيا .

أما فى الإدارة فلديهم - كما لدينا - شهادة تسمى MBA - يعنى

ماجستير فى إدارة الأعمال - هى الطريق إلى النجاح فى مسار مهنى قوامه تنظيم الإدارة أو ممارستها . برغم أن الذكور والإناث يتساوون فى أعداد الخريجين من كليات إدارة الأعمال ، فإن النساء لا يحظين إلا بنسبة لا تجاوز ١٥ ٪ من الحاصلين على الماجستير . ويرجعون ذلك إلى خشونة الجو الذى يسود الفصول التى ينتظم فيها رجال يريدون احتراف الإدارة طيلة حياتهم، وإلى فداحة ما هو مطلوب من المرأة « المسكينة » أن تستثمره من مال ووقت وجهد باهظ من أجل مسار ما تلبث وظائف الأمومة أن تقطعه إربًا .

عقول عاملة

فى سنة ١٩٤٦ وعلى إثر إضراب وقع فى شركة جنرال إلكتريك ، وقف مدير العلاقات الصناعية يخاطب مجلس الإدارة : لقد تصور عمال المصانع أنهم يجلسون فى مقاعد القيادة ، هذه هى الخيالات التى لابد أن نمحوها من الوجود ! بل إنه فى سنة ١٩٨٦ دارت مناقشة لاحتمال مشاركة العاملين فى الإدارة فى شركة « إيسترن إيرلاينز» ، أى الخطوط الجوية الشرقية الأمريكية ، وهى عملاق آخر ، ووقف رئيس الشركة - وكان يدعى فرانك بورمان - يقول : أنا لن أسمح للقرود بأن تتولى إدارة الحديقة . يقصد حديقة الحيوان ، ويكفى أنه هو الذى وصف شركته بهذا .

كل هذا ينتمى الآن للماضى السحيق فى دنيا الإدارة . إذا فتحت أى مرجع حديث فى فلسفة الإدارة الصناعية فستجد أن المهارات الأساسية التى تلزم للمدير هى : الإنصات ، لكى يستطيع أن يستخرج من العاملين أفضل ما لديهم من أفكار للابتكار ، من أجل القدرة على المنافسة ، ثم التفويض، من أجل إطلاق طاقات الرجال - والنساء طبعًا ! - ثم التحفيز ، من أجل حث المواهب على الظهور وعلى الإبداع ، لقد انتهى زمن المدير أو الرئيس

الديكتاتور ، وظهرت « الإدارة التشاركية » Participative Management التى تهدف إلى بناء القدرة على المنافسة عن طريق تكوين فرق العمل المستقلة من أجل التوصل إلى استنباط أصلح الأفكار من رءوس العاملين وليس من عضلاتهم ، وقد صدر فى الولايات المتحدة سنة ١٩٧٤ قانون يقضى بإعفاء ضريبى تستمتع به كل شركة يصل فيها إسهام العاملين فى امتلاك أنصبة فى الشركة إلى ٢٥ ٪ ، وقد تزايدت الإنتاجية نتيجة لذلك بنسب تتراوح ما بين ٢٠٠٪ إلى ٣٠٠ ٪ . جميع المؤلفات الحديثة فى الإدارة تدعو بصفة خاصة إلى إشراك العاملين فى الإدارة بأفكارهم . من أهم هذه المؤلفات كتاب يورد تحليلاً لهذه الدراسة ونتائجها ، عنوانه « ملكية العاملين فى أمريكا » - والجمع عندهم دائمًا هو جمع تكسير كما هو معروف ! وهو من تأليف ثلاث من النساء الخبيرات .

من أنت أيتها المرأة ؟

ظهر هذا العنوان فى مجلة أسبوعية فى أواسط الأربعينيات ، أظنها كانت "العروسة" ، وإن لم أكن واثقًا ، نعم هكذا : من أنت أيتها المرأة حتى تساوى الرجل ؟ وسرعان ماجاءت الردود وثارت مناقشات علنية أسهم فيها عدد من الكتاب فى محاولة الإجابة على هذا السؤال الذى لا إجابة له، لأنه سؤال خاطئ أصلاً : أيهما أعظم الرجل أم المرأة ؟ كنت إذ ذاك ما أزال طالبًا ، ولكن الأمر - برغم مشاركة الكبار فيه - بدا لى شيئًا غاية فى الطفولة والتفاهة .

وقد كان فى تلك الأيام أيضًا - وإن كنت لا أتذكر ما إذا كان ذلك فى نطاق تلك المعمعة الصحفية الفارغة - أن سئل المرحوم الأستاذ توفيق الحكيم عما يريده من المرأة المثالية ، فقال كلمته التى اشتهرت به واشتهر بها : "أن تجيد إعداد صينية البطاطس" ، بمعنى أنه يرى أن مكانها هو

المطبخ فقط . وكان الأستاذ الحكيم يُسمى "عدو المرأة" ، ونحن طبعًا نعرف أنه بعد ذلك بسنوات تزوج وأنجب ، وألف رواية أسماها "الرباط المقدس" ، كانت - بدرجة أو أخرى - انفعالاً بتجربته الشخصية أو استفادة منها . الذى أظنه أن أستاذنا الكبير (أو الذى أصبح كبيرًا بعد ذلك) كان قد ترك وظيفته فى سلك النيابة والقضاء - والتى كانت إذ ذاك مركزًا مرموقًا يكفل للمرء حياة كريمة لكى يتفرغ للكتابة وما يلزمها من اطلاع واسع (كان الكتاب إذ ذاك يظنون هذا ضروريًا !) على نحو ما صوره فى نفس روايته هذه ، فى شخصية "راهب الفكر" ، وأيضًا قبل ذلك فى مقالة رائعة له بعنوان "عهد الشيطان" ، تنويعًا على قصة فاوست . كانت هذه بالطبع خطوة شجاعة ، أن يعيش الكاتب من أدبه فقط دون راتب شهرى يمكنه من «فتح بيت» كما يقال ، الذى أظنه أن الأستاذ وجد أنه ليس من "الحكمة" أن يتزوج ويتحمل مسئولية أسرة بدون دخل أو راتب منتظم مضمون ، ومعروف أنه كان إذ ذاك يعيش فى غرفة فى بنسيون فى شارع قصر النيل ، حياة متواضعة بطبيعة الحال ، وهو فى تلك المرحلة باع مسرحيته "رصاصة فى القلب" للسينما (والفيلم إذ ذاك لم يعجب صديقه أحمد الصاوى محمد ربما بدافع الغيرة ، وكتب يقول أنه - أى الحكيم - يشبه رجلاً قبل أن يزوج ابنته من عجوز قبيح ، لأن المهر أغراه !) لعل ذلك "المهر" - وغيره من أجره عن الكتابة فى أخبار اليوم التى كانت قد فتحت عالمًا جديدًا له وللعقاد وغيرهما من الأدباء ، لعله هو الذى مكنه من أن ينتقل إلى شقة جاردن سيتى التى عاش فيها حتى آخر عمره ، ولعل هذه الظروف أيضًا هى التى جاءته بصفة البخل التى ألصقوها به - ظلمًا فيما يقول ، وفيما سمعته منه فى المرة الوحيدة التى حادثته فيها فى مكتبه بالأهرام فى منتصف السبعينيات ، وكان حاضرًا هذا اللقاء الكاتب الصديق

يوسف الشاروني ، قال الحكيم وهو يطلق ضحكته الشهيرة : "الناس بيقولوا عليً بخيل وأنا من مصلحتي أسيبهم فاكرين كده" – في ظروف كهذه ، ينتظر من رجل في اتزانه واعتداده بنفسه أن يكون حريصًا على ألا يواجه مواقف محرجة بالطبع .

لنرجع إلى صاحب المقال – وأنا لا أذكر من كان هو ، حقًا – "من أنت أيتها المرأة" ، حتى تساوى الرجل – (وأظن أنها كانت "حتى تساوين الرجل") – قلت لنفسي إذ ذاك : هذا الشخص يحتقر المرأة ؟! ترى ما نظرته إلى أمه ؟ هل يحتقرها هي أيضًا ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فلا عجب . كل منا جاء من رحم امرأة ورضع ثديها وتربى على يديها ، فإذا كان يحتقرها فما أحقر الناس جميعًا في رأى هذا الأحمق التافه ! إن جسد المرأة، هو الوعاء الذي شاء الخالق سبحانه وتعالى أن تتكون فيه النفس الآدمية وأن تنبت فيه خليقته وأن تتغذى منه بعد خروجها إلى الوجود وبارك الله فيمن أفتوا بأن انتهاكه جريمة عقوبتها الإعدام . ويد المرأة هي التي أطعمتنا ونحن صغار ، وغسلت أجسامنا وبدلت ملابسنا ووضعتنا في الفراش وأسبغت علينا الحنان ، إن الجنين يستمع إلى دقات قلبها وهو حبيس بداخلها ، ثم يتعرف عليها وهي تضمه إلى صدرها ليرشف حتى يغلبه النعاس وهو يستمع إليها ليتعلم أن يحب . . . ولذلك فإن المرأة هي أصدق مقياس لآدمية المجتمع ، قل لي كيف يعاملون المرأة في أي مجتمع وأنا أقول لك ما مدى أمل هذا المجتمع في الحياة ، وما نوعية نسائه . . لا ، بل ما نوعية رجاله . المرأة التعسة الذليلة لن تنشئ إلا رجالاً تعسين أذلاء ، لأن المرأة لن تكون كذلك إلا إذا عاشت مع رجل هذه أوصافه هو أيضًا إن "بدء السعادة" كما يقول المعرى ، هو الاعتراف بمكانة المرأة واحترام حقوقها وتأمين حاضرها ومستقبلها . أذكر هنا ذلك المشهد الذي مثلته أمينة رزق

فى فيلم "أريد حلاً" عن قصة حسن شاه . امرأة عاشت عمرها مع رجل ولم تنجب - غالبًا لعلة فيه وإلا لكان قد رماها واشترى غيرها ، وعندما تقدم بها العمر طلقها بعد أن خارت قواها ولم تعد تقدر على خدمته ، لا مورد لها ، ولا تستطيع أن تعمل ، القانون لا يعطيها إلا مؤخر صداق مضت على تقديره عشرات السنين وأصبحت قيمته واحداً فى المائة مما كانت عليه إذ ذاك ، ونفقة شهرية لعدة شهور ، ماتت هذه المرأة فى القصة . كيف ؟ لا أحد يعرف . المهم أن هذا كان مصيرها الوحيد .

كاتب معروف ، لديه عمود صحفى في جريدة كبرى ، كلما جاء رمضان ، فإنه يخصص كتاباته ثلاثين يومًا للاحتفال بالشهر المبارك ، مهديًا قراءه أحاديث طيبة تتفق حقًا مع هذه المناسبة الجليلة . لديه قصة حكاها عدداً من المرات لا أذكره لكثرة ما رواها . ومع تقديرى وإجلالى لما يقدمه لقرائه ، فإننى أتمنى ألا تكون هذه القصة حقيقية ، بل إننى شبه واثق من أنها مختلقة ، وما أكثر ما اختلقه المرجفون ، لا على صحابة الرسول عليه السلام ، كما فى هذه الحالة ، بل على الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم . وكما قيل ، فإن ثلاثة أرباع التاريخ من اختلاقات الناس . مفاد هذه القصة أن الأنصار تلقوا المهاجرين بترحاب عظيم وفتحوا لهم بيوتهم ونفوسهم . ثابت هذا تاريخيًا . وأنه كان من نصيب عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنه ، أن تآخى مع الأنصارى الجليل سعد بن الربيع ، وان سعداً أنزله فى داره وعرض عليه أن يقتسم معه ممتلكاته ، وهو قول قد يكون فيه شيء من الإفراط لأنه كان للرجل امرأتان وأبناء بالطبع ، ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل أضاف "ولدى امرأتان فانظر أيتهما تروق لك لأطلقها وتتزوجها" ، وأن ابن عوف - كما ينتظر من رجل كهذا - اعتذر شاكرًا عن كل هذا وأعلن أن "دلونى على السوق" راغبًا فى أن

يكسب معاشه بجهده . هنا تنتهى القصة .

كنت أود ألا أعلق عليها فليس القارئ في حاجة لذلك . فقط ، ماذا عن شعور المرأة التى ستروق للضيف العزيز فيختارها ؟ وماذا عن شعور أبنائها من هذا الزوج الذى قد يتصادف أنها تفضل أن تظل تعيش معه ؟ (وإن كنت أسمح لنفسى أن أشك في ذلك ! فأى امرأة ستحب أو تحترم رجلاً يعرضها على ضيفه كما لو كانت مقعداً يجلس عليه أو حذاء يرتديه؟ إلا أننى كما ذكرت ، لا أريد أن أصدق أن هذا حدث) كما أنه مع إجلالنا لهؤلاء الرجال الذين حاربوا من أجل بقاء الديانة التى تملأ قلوبنا إلى اليوم فالعصمة لله وحده - ثم ماذا عما يقال عنا عندما نتشدق بمثل هذا ؟ أذكر أننى كتبت لهذا الصحافى الشهير إذ ذاك ، وكانت أحداث البوسنة تمزق القلوب ، وصور النساء من ضحايا الاغتصاب وغيره من جرائم قطعان الصرب الهمجية تنشرها صحافة الدنيا كلها - مما تكرر بعد ذلك فى حق الألبان المسلمين أيضًا - كتبت له لأقول : لو أننى كنت صحفيًا من الصرب - وحاشا لله ! - لاعتبرت هذه القصة التى أنت مولع بها إلى هذا الحد ، هدية من السماء ! ولكنت أكتب قائلاً لحكومات القوات المتحالفة : تأملوا ! أتبكون على نساء المسلمين ، هذه هى قيمة المرأة عند هؤلاء . إنها ليست زوجة وليست أمًا ولا رفيقة عمر ، مجرد أداة للمتعة وتأملوا ! انظر أيتهما تعجبك ! أما هو فلا فرق ! ما الفرق بين هذه وتلك ؟

كنت أتمنى لو أن الراوية الجليل أجابنى على هذا السؤال : ماذا كان يحدث ياترى لو أن هذا الاقتراح جاء من جانب الضيف ؟ وتأمل : انظر أيتهما تعجبك ! وكيف ستكون "المعاينة" يا ترى ؟

لا أحد يتصور شيئًا كهذا الآن بطبيعة الحال . وحتى لو صدقت هذه القصة فإننى أفضل أن أعللها بأنه ربما كان هذا أمراً جائز الحدوث فى تلك

البيئة أيام الجاهلية ، ولم يكن - شأنه شأن وأد البنات ، وهو نفس النوع من النظرة إلى الأنثى ، وهى نظرة بالغة الانحطاط وإلا ما نهى عنها القرآن بهذا البت القاطع - قد انتفى بعد كلية ، فالناس لا يتخلصون من ممارساتهم الاجتماعية فى يوم وليلة مما يمكن أن يقال أيضًا عن تحريم الخمر ، والذى بدأ بتحريم الصلاة "وأنتم سكارى" ثم بالمنع القاطع بعد ذلك بحين .

كتابنا هذا كما هو مذكور فى موضع آخر يعالج مشكلة الإدارة على مستوى المجتمع ، وهو تعبير أفضل من كلمة "الحكم" ، فالحكم إنما هو للحكيم تبارك وعلا ، وكانوا فى مصر قد ابتدعوا تعبير " الحكم المحلى" ثم عدلوه إلى "الإدارة المحلية" .

من وجهة نظر الإدارة فإن معاملة النساء كالدواب ، يحرم المجتمع من نصف موارده البشرية ، فى عصر يتربى فيه الصغار فى المدارس ، وتشيع فيه المنظفات الصناعية وشفاطات الغبار ، ويباع الدجاج جاهزًا للطهو ، والغاز الطبيعى فى كل مكان ، وإعداد صينية البطاطس لم يعد يستغرق اليوم بأكمله . هذا لمن لا يفكر إلا فى ملء بطنه حتى يتبلد ذهنه ، ثم فى هذا الشيء الآخر الذى عز على مضيفنا الشهم أن يحرم منه ضيفه .. هذا مع كامل إدراكنا لأهمية هذا وذاك فى الحياة الأسرية السعيدة ، التى أظن أنها فى متناول كل رجل فى مجتمعنا ، بشرط أن يكون ... رجلاً ، وبشرط ، أن يدرك أن كل المتع من بطاطس وخلافه - لابد أن تكون مشتركة ومتبادلة، وأنه لن يكون سعيداً بمفرده فى أسرة محطمة الأعصاب . أخشى أن غالبية الشباب لا يعرفون هذا ، وهذه مهمة الكبار .

رأس النعامة

وقد سرنا جميعًا أن وزير الصحة المصرى استطاع ، بعد صراع قانونى

مرير ، أن يكسب معركته ويحرم على المستشفيات التابعة له أن تمارس هذا الانتهاك الدموى البشع لملايين الفتيات المصريات . قد اكتفت السلطات الدينية فى مصر بأن أصدرت فتوى مؤداها أن "هذا الأمر متروك للأطباء !" ، وهو مايزال "أضعف الإيمان" ، سادتنا الأئمة اكتفوا بأن "يقوموه بقلوبهم" ! معروف لكل من حاول أن يلتحق بالمدرسة ، فضلاً عن العلماء ، أن هذه الممارسات جاءتنا من أعماق أفريقيا ، حيث يخيطون شفاه النساء فى أقراص من المعدن أو الخشب لكى تتخذ أشكالاً يعدونها من علامات الجمال بمقاييسهم ، ورأيت صوراً لنساء تستطيع الواحدة منهن أن تصفق بفمها ، أظن أن التأكد من أن شيئًا من هذا لم يسمع به أحد ، فضلاً عن أن يمارسه ، فى الجزيرة العربية فى أى عصر مضى أو سيأتى ، ليس أمراً عسيراً ؟ فقط ، إذا كان هناك زعماء سياسيون سيحرمون من السيطرة على خلق الله بإذلالهم وانتهاك بناتهم ، فسرعان ما يأتى حديث غير شريف يضاف إلى مئات الألوف من الأحاديث التى لم يعد يعلم حقيقة الكثير منها إلا الله سبحانه وتعالى ! وإذا كانت هناك مافيا من النسوة اللاتى يرتزقن من هذه الجزارة البشرية ، ووراءهم فتوات الزوايا من أباطرة الحوارى ، فهناك وسائل كثيرة لإبطال قرار الوزير وغير الوزير : "أتريدين لابنتك أن تكبر لتصبح عاهرة ؟ نحن لن نسمح لعاهرة أن تعيش بين بناتنا !" أعرف حالة كهذه ، وكانت الفتاة وعمرها اثنتا عشرة سنة ، تنزل من بيتها لتجد لجنة مستقبلين تدعوها بالعاهرة ، إلى أن انصاعت الأم التى حاولنا أن نجعل منها "جان دارك المطرية" !

هذه هى حدود السلطة على أية حال . فى قدرة أى حكومة أن تنشر الفقر والتعاسة ، وتجعل الشقاء يصيب كل فرد بدرجة ما ، ما أسهل أن تكسر كوبًا أو تمزق وثيقة ، أما العكس فلا تقدر عليه حتى الحكومة ، مهما كانت وسائلها .

أظن أنه آن الأوان لقراءة هذه الفقرات من كتاب الدكتورة نوال السعداوى، الأولى فى هذا الموضوع ، والثانية تصف "الفرح، نعم : الفرح!

* "مر عام وراء عام ، وقصص أخرى بمشاكل أخرى تمر أمام عينى ، ومآسٍ عديدة لفتيات ونساء وأطفال راحوا ضحية الجهل الشائع والتقاليد السائدة ، بعضهن مات موتًا حقيقيًا أثناء عملية إجهاض أو ختان أو ولادة فى ظروف سيئة ، أو حوادث قتل أو اعتداء لعدم ثبوت دم العذرية، وبعضهن مات موتًا نفسيًا واجتماعيًا بعد مأساة لسبب أو آخر، وما أكثر الأسباب التى تتعرض لها المرأة فى مجتمعنا لتقتل نفسيًا وتعيش عمرها فى حال تجعل حياتها كالموت ، بل إن الموت قد يكون أرحم فى كثير من الأحيان .

وكثيراً ما استدعيت لإنقاذ حياة بعض البنات إثر هذه العملية البشعة ، فقد كانت الداية لجهلها ولاعتقادها بأنها إذا ما أوغلت بالموس فى لحم الفتاة فإن هذا يضمن عفتها وزهدها الأكبر فى الجنس . وكان الموس يحدث نزيفًا غزيراً وفى بعض الأحيان تفقد الفتاة حياتها قبل أن تنقذ . ولم تكن الداية تعرف شيئًا عن التعقيم بطبيعة الحال ، وكان الموس القذر يسبب الالتهابات فى معظم الحالات . أما الصدمة النفسية لهذه العملية المهينة على الطفلة الصغيرة فقد كانت بالغة لا شك ، وتظل صورة هذه المذبحة الصغيرة راسخة فى ذاكرة الطفلة مما يسبب لها فى حياتها الزوجية مشاكل كثيرة منها ذلك البرود الجنسى الذى ينعكس أثره على الرجل بالانحرافات الجنسية وإدمان الحشيش .

وهناك مجتمعات أخرى أخصت نساءها بعمليات أكثر قسوة من هذا فقد فوجئت وأنا طالبة حديثة التخرج سنة ١٩٥٥ حين فحصت سيدة سودانية لأول مرة فوجدت جميع أعضائها التناسلية الخارجية قد استؤصلت تمامًا ولم يبق مكانها إلا جرح قديم طويل تتوسطه فتحة صغيرة

مستديرة لخروج دم الحيض . ومن الطبيعى أن مثل هذه الفتحة الصغيرة تتمزق عند ولادة أول طفل وتتعرض المرأة للنزيف الشديد أو المضاعفات الخطيرة " .

* "جاءت الداية وأمسكت العروس من ساقيها كما تمسك الدجاجة قبل الذبح ومدت أصبعها بظفره الطويل المدبب كالسكين (وهى غالبًا تطيله لهذا الغرض) وبهذا الأصبع تفض الداية غشاء بكارة العروس وتجفف الدم الذى يسيل فى "بشكير" أبيض يختطفه منها أبو العروس ويرفعه عاليًا ليراه كل الناس ويشهدوا بأعينهم على شرفه وشرف ابنته .
وفى إحدى المرات لم تسقط إلا قطرات قليلة ، فخدشت بظفرها المدبب ، غرق البشكير بالدم ، وارتفعت الزغاريد ودقات الطبول ، وقلت للداية بصوت خفيض أنها أحدثت جرحًا فى المهبل ، ولكنها همست فى أذنى : إن هذا ضرورى ، فالناس يحكمون على شرف العروس بمقدار ما يسيل من دمها" .

العلاقة مع المرأة

تتأثر العلاقة الزوجية بعوامل كثيرة على رأسها الأوضاع الاقتصادية للمجتمع ، فمهمة الزوجين تتغير مائة وثمانين درجة بمجرد الإنجاب ، يتوارى الحب والاستمتاع ويبدأ الكفاح من أجل تنشئة الصغار ، وهى – عند المرأة – وظيفتها الأساسية ، ولكنها ليست الوحيدة فنحن لسنا عناكب (والحمدلله !) ، نحن أعظم ما خلق الله . ولكن الإنسان يظل راغبًا فى الاستمتاع ، من كل جانب بالآخر . وليس هذا عيبًا ولا أمرًا مشينًا ولا "غرائز دنيئة" كما يقال أحيانًا ، مما يحير العقل ! الطريق الذى جعله الخالق وسيلة لمجيئنا لهذه الحياة ولاستمرار معجزته العظمى ، كيف يوصف

بالدناءة ؟ إنه ذات الطريق الذى جاء منه الرسل والأنبياء ، وليس عيبًا أن نقر بحق المرأة فى أن تشبع هذه الرغبة الجارفة التى أودعها الله فيها كما أودعها فى الرجل ، الذى لا يعرفه الجهلاء الذين يظنون أن إزالة الأعضاء الحسية عند المرأة يجعلها تزهد فى هذه المتعة هو أن الأمر ليس كذلك ، فالرغبة تبقى كما هى ولكنها تتعذر على الاشباع ، وتعيش المرأة حياة قوامها الإثارة دون أدنى إحساس بالرضا ، وبذلك فإن الأمر على العكس تمامًا ، هذا الحرمان من الإحساس بالرضا يدفع المرأة - ربما دون أن تدرى - إلى اشتهاء رجل آخر فآخر ، لأن زوجها غير قادر على إرضائها ! ليس معنى هذا طبعًا أن هذا الاشتهاء سيؤدى إلى أى شىء سوى المزيد من الإحساس بالحرمان والتعاسة ويعكس نفسه على الخلافات والمشاحنات . نحن الرجال من أكثر رجال العالم إحساسًا بالثقة فى نسائنا - (وما عليك إلا أن تشاهد الحلقات الأجنبية) وهذا أمر طيب ، ولكن إخلاص النساء يصبح مضمونًا بدرجة أكبر عندما يكنّ أيضًا سعيدات ، وأتوقف هنا لأترك هذا الموضوع لرجال التعليم والصحة النفسية والدين ليقرروا معًا مدى ما يجب تلقينه للشباب من الجنسين من أجل مستقبل أكثر سعادة ، أو على الأصح - أقل تعاسة ، هذا إذا أمكن تزويجهم ! فقط سأضيف إن غالبية الآباء والأمهات عندنا يقصرون فى توفير المعرفة فى هذا المجال لأبنائهم وبناتهم ، ربما تكون الأمهات أفضل كثيرًا من الآباء فى هذا الشأن ، بحكم درجة الخصوصية والثقة بين الأمهات والبنات والتى يأتى بعضها من تعاطف الضحايا . . .

إننى أجد نفسى غير قادر على فصل هذا كله عما نعانيه من فوضى الطريق العام ، وانتشار الجريمة وانحطاط المستويات الأخلاقية والمهنية ، وسوء الأداء الحكومى والخاص ، إن أغلبنا - بل كلنا - لا يدرك مفهوم السعادة ، نحب المأساة والنكد والهزيمة ، وهذا يرجع لسبب واحد ، وهو تعاسة .

أمهاتنا وزوجاتنا وبناتنا .

أن نستمر في ازدراء المرأة واعتبارها عورة ، وأن نعاملها معاملة الدابة ، وأن نمضي في إذلال النساء بحجة الرجولة ، وتشريدهن باسم الشريعة ، وتمزيق أعضائهن بدعوى الفضيلة ، إنما هي نواتج لقصور المعرفة العلمية وبالتالي الوقوع تحت طائلة تجار الدجل السياسي . والسياسة ، شأنها شأن كل بضاعة يروج لها بائعوها ، تتفاوت في الجودة ، تمامًا مثل الدخان والمعسل ، ولن ننجو من هذا كله طالما كانت طريقتنا في حل المشكلات هي أن ننكر وجودها ونتهم من يثيرها بالتشاؤم أو الشذوذ عن المألوف .

فلسفة الأخلاق

"أثناء الخمس عشرة سنة الأخيرة، قد شهدنا انحلالاً مأسويًا يطرأ على مواثيقنا الاجتماعية وعلى المفاهيم التقليدية للأخلاق . وبدأ الناس - بتأثير ما ينهال عليهم من صناعة الاستعراض ومن وسائل الإعلام - يعتقدون أن ممارسة الجنس قبل الزواج تجربة سامية ، وأن النشاط الجنسى الذى يمارسه المتزوجون مع أزواج الآخرين وزوجاتهم ظاهرة صحية ، وأن الشذوذ الجنسى أمر مقبول تمامًا ، بل وأن اتباع الطريقين افضل كثيراً ! لقد أصبح الصغار يعدون حالة غريبة إذا لم تكن هذه هى أساليبهم فى الحياة ، أنا لا أعد نفسى نبيًا مهمته التحذير من مصير مظلم ، ولكننى فقط أحس بالذعر من الأرقام الإحصائية التى تدل على تلك الحالة ، وأراقب هذه النزعات مأخوذًا وملتاعًا مما أتوقع أن تؤدى إليه من دمار لمجتمعنا ولأسلوبنا فى الحياة"

دكتور جيمس دوبسون
"عن النساء" (١٩٧٦)

لو أن كائنًا من الفضاء هبط على الأرض ، وبدأ يدرس أحوالها من مشاهدة التليفزيون والأفلام السينمائية والإذاعة والجرائد والمجلات والفكاهيات والكثير من الكتب - لانتهى حتمًا إلى ان رسالة سكان الأرض هى أن يعلموا صغارهم القتل والاغتصاب والعنف والخرافات وأن يبثوا فيهم عادات الاستهلاك الباذخ . نحن نمضى فى ذلك إلى أن يؤدى التكرار إلى غرس هذا كله فيهم . ترى اى نوع من المجتمع يمكننا بناؤه لو أننا - بدلاً من ذلك - قدمنا لهم المزيد من العلوم والمعرفة والأمل فى المستقبل ؟

كارل سيجان ،أستاذ الفلك والحياة الكونية
"دنيا مسكونة بالعفاريت" ، (١٩٩٥)

كنت طالبًا بالجامعة منذ أكثر من نصف قرن ، وكنت أتردد على ندوة أدبية أسبوعية كان يرأسها شاعر شهير ، وكانت تحمل اسمه . وكنا دائمًا نلتئم قبل أن يصل هو ، وكان دائمًا يأتى مصحوبًا بسيدتين أو ثلاث ، وكنا - أنا وأبناء جيلى فى تلك السن وذلك الوقت ، لا ننعم كثيرًا بصحبة النصف الآخر من خليقة الله ، وبالنسبة لى فلم أكن قد دخلت فى حياتى مدرسة مختلطة ، كانت كلها "للبنين" ، حتى كليتى الجامعية لم تكن حتى ذلك الوقت قد دخلتها أنثى منذ إنشائها ، ولا حتى كزائرة ! ولذلك كان يخيل إلى أنهن - صاحبات الشاعر الكبير - كنّ جذابات رائعات الجمال ، وعندما مضت سنوات طويلة وانتقل إلى رحمة الله ، قرأت مقالة للمرحوم الأستاذ صالح جودت ، الذى كان صديق عمره ، يروى فيها بعض ذكرياتهما ، وقال فيها أنه - رحمة الله - "لم يكن يترك فرصة لمصاحبة حسناء ، أو حتى نصف حسناء !" وذات مساء - إذ ذاك - جاء ومعه الباقة المألوفة من النصف حسناوات وكان هو المتحدث فى تلك المرة ، وكان موضوع الحديث "فلسفة الأخلاق" ، وأذكر أننى سألت نفسى متعجبًا : أأجلس لأستمع إلى زير نساء كهذا يتحدث عن الأخلاق ؟ وضح لى بالطبع أن الموضوع لم يكن ما يدور فى رأسى أنا وأبناء جيلى من الصابرين ، ولم أفهم كل ما قيل طبعًا ، مع أننى استمتعت به تمامًا .

وعاد هذا كله إلى ذاكرتى عندما قرأت لصحفى أمريكى كبير مقالة يتحدث فيها عن سلوك الشباب هناك ، كما هو الآن ، وكما كان أيام كان هو شابًا ، ويقول : كانوا ينصحوننا بممارسة الألعاب الرياضية ، لنستهلك طاقاتنا الفائضة ونصرف أذهاننا عما يعتمل فى أعماقنا من رغبات مكبوتة، الشبان يتواثبون والكرة تتطاير ، ثم تسقط فوق السلة ، وتنفذ منها مسجلة هدفًا ! هذا بالضبط كان يعادل حالة حمل لفتاة صغيرة أمكن تجنبها !

قد تعودنا فى الشرق - وهذا هو الخطأ الذى وقعت أنا فيه فى تلك الندوة - أن نتصور أن كلمة "الأخلاق" لا تنطبق إلا على هذا الجانب من حياة البشر . إلا أن الواقع أن علوم الأخلاق وفلسفاتها عالم بأكمله فى الفكر والمعرفة يتناول أفعال الناس ومعتقداتهم وأفكارهم ومعاني كلماتهم فيما يتصل بالخير والشر وما ينال أنفسهم والآخرين من جراء هذا كله ، ثم تفسير وتعريف الخير والشر واللذة والسعادة والخطأ والصواب والعدالة والفضيلة والصدق وغيرها من القيم ، وهى كلها أمور عويصة تناولها الفلاسفة من أفلاطون إلى أرسطو إلى كانط وابن مسكويه وجورج مور وبرتراند راسل . . إلخ . نحن لسنا معنيين بها هنا إلا من حيث أثرها فى حضارة الأمم ومستقبلها ، ومن حيث ضرورة أن ندرك أن سلوك البشر معادلة عسيرة الحل وأن الخير والشر أمور نسبية متغايرة التعاريف وأن كلاً منهما يأتى مصاحبًا للآخر ومؤديًا إليه . هل كانت إبادة الهنود الحمر عملاً له ما يبرره فى سبيل إنشاء دولة حديثة قوية كالولايات المتحدة ؟ المؤيدون لها يرون ذلك ، أما من يكرهونها فسيرون الأمر مخالفًا ، فقط عليهم أن يثبتوا أن الحياة البدائية لسكان القارة الأصليين كانت أفضل . وحتى عندئذ، أفضل لمن ؟ كل شخص أنقذ طفله من الموت أو الشلل بفضل الأمصال والمضادات التى جاءت من علماء الغرب سيجد صعوبة فى مهاجمتهم فى سبيل الدفاع عن البداءة وحياة الرعاة ، وسيجد صعوبة أكبر فى العودة إليها ، وإن كانت هناك دعوات كهذه ، فى قلب أمريكا نفسها ، أعضاؤها من أصول أوروبية ، وليسوا من الهنود الحمر ، الذين يتكالبون على الانتقال إلى الحياة العصرية هربًا من الفناء فى مستعمراتهم .

إلى هذا الحد هى مشكلة معقدة . المركيز دى صاد (١٧٤٠ - ١٨١٤) الذى تشتق من اسمه كلمة "الصادية" التى تعنى القسوة التى تصل إلى حد

التلذذ بالتعذيب والقتل وليس مجرد الانتفاع بنتائجه ، إلى جانب ممارسة الجنس باستخدام الكرابيج والجنازير ، وهو ما يسمى باسمه أيضًا في دوائر الطب النفسي ، كان دى صاد - برغم فضائحه التي قضي بسببها ثلاثين سنة في السجون - كان ، للأسف الشديد ، كاتبًا بارعًا ، وقد بدأت الدوائر الأدبية تعترف له بذلك الآن .

على لسان شخصية تعتاد القتل ، كتب دى صاد يقول : "ما الذى تخسره الطبيعة إذا كانت كتلة من اللحم تمشى على قدمين سوف تبعث على هيئة ملايين تمشى على ستة ؟" - يقصد الحشرات التى تتغذى على جسد القتيل . وحقًا ، ما الفرق ؟ خصوصًا إذا كان الذى ستتغذى عليه الحشرات أو الديدان هو جسد مخلوق مثل دى صاد المذكور ؟

إلا أن المشكلة الأخلاقية - فى رأينا المتواضع - ليست من قبيل المنطق الخالص ، أنت تشاهد فى التلفزيون منظرًا ينطوى على القسوة فتحس بالغضب ، مع أنك تعرف أن كلاً من المعتدى والمعتدى عليه ليس إلا فنانًا يقصد إمتاعك بفنه ! الواقع أنه من الصعب أن نفصل عقولنا عن مشاعرنا وعواطفنا ، هذا ما يجعلنا بشرًا . خذ موضوعًا كالشذوذ مثلاً . كم كانت الحياة تكون أجمل وأكثر أمنًا لو لم يوجد هذا الشيء ، فقط هو يوجد . وسوف يظل يوجد ، لأنه من نتاج الطبيعة البشرية ، ولو تخيلنا أننا - بقدرة قادر - أمسكنا بكل الشواذ ، وبنزعة صادية ، محوناهم من على وجه الأرض ، فهذا لن يحل المشكلة ، سيأتى غيرهم كما أتوا أول مرة ، لأن من يوجدون الآن - ومنهم ، للأسف الشديد ، شلة من ألمع كتاب القرن العشرين ، هؤلاء ليسوا من نسل سدوم وعمورة ، إنهم كلهم أبناء ناس عاديين وطبيعيين ، ونظرًا لأنه فى الغرب الصناعى (وإسرائيل ، بالمناسبة) لم يعد هذا الأمر يعتبر جريمة تستوجب العقاب (انظر ما فعلوه

بأوسكار وايلد ، سجنوه مع المجرمين وتبرأت منه زوجته وولداه وغيروا أسماءهم ليتطهروا منه ، ومات الجنتلمان الرقيق كمدا مع أنه لم يكن فى واقع الأمر شاذاً) بل ولم يعد يعتبر حتى مرضًا يستوجب العلاج ، إنها مسألة أفضلية ، أنت تحب النساء وهو يفضل . . . أعوذ بالله ! وهكذا أصبحوا يجاهرون به بمن فيهم أعضاء فى الكونجرس وفى الهيئات الدينية ، يبدو هذا بالطبع شيئًا قبيحًا وبغيضًا ، ولكن الحقيقة تبقى وهى أن الحل لا يتمثل فى الإمساك بهم وسجنهم أو تعذيبهم ، الواقع أنه – من وجهة نظر معينة – فإن السجن عندهم لا يخلو من مميزات !

علم الأخلاق وفلسفتها جانب هام وخطير فى حياة البشر . ولا غنى عن الأخلاق ، المكونات الثلاثة الأخرى الكفاية الاقتصادية ، ونظام الحكم ، والعلوم والفنون ، هذه لا تغنى عن الأخلاق ، فالناس لا يقضون كل حياتهم فى الأسواق أو المحاكم أو المعاهد ، وحتى وهم فى هذه الأماكن ، بدون الأخلاق لابد أن ينحدر الناس إلى كائنات أدنى . الإنسان وحده هو الذى يستطيع أن يمنع نفسه مما يشتهيه لأنه "عيب" .

عيب !

كلمة "الجنس" فى لغتنا كلمة مستعارة ، بمعنى أننا "نستلفها" من أصحابها الأصليين لنستخدمها من باب التورية ثم نعيدها إليهم ، وذلك لأسباب منها أن المتحدثين بالعربية وبكل اللغات لغاية أواخر العصر الفيكتورى فى إنجلترا – كانوا يمارسون "الجنس" دون أن يتحدثوا عنه . إلا أنه لكثرة استخدام هذا اللفظ المستعار فإنه قد أصبح يحمل هذا المضمون برغم عدم دقته التى تتمثل فى صورة الجمع مثلاً ، فنجده فى عبارة "علم الأجناس" يدل على مفهومه الأصلى ، فهناك الجنس الآرى مثلاً

والسامى . . . إلخ ، أما بين الفرد والجمع ، أى المثنى فنحن نقول : "الشباب من الجنسين" ، فإذا اشتققنا النعت ، فإننا نجد أن "جنسية" الفرد هى البلد الذى ينتمى إليه كائنًا ما كان جنسه ، سواء بمعنى أصوله العرقية ، أو بمعنى أنه ذكر أو أنثى ، فإذا جئنا لهذا التصنيف الأخير فإننا فى شهادة الميلاد نذكر "نوع" المولود ، من حيث كونه ذكرًا أو أنثى ، فإذا انتقلنا إلى التفرقة فى معاملة أبناء الأجناس - أو "الأعراق" ، وهى ماتزال نادرة - فإننا نقول "التفرقة العنصرية" ربما تأثرا بحديثنا عن "عنصرى الأمة" وهو تعبير أتمنى أن يختفى من الوجود شكلاً وموضوعًا ، خلاصة الأمر أن الحرج من الحديث عن موضوع هو فى الحقيقة محرج ، يثير تساؤل الصغار ، ويخدش حياء بعض الكبار ، هذا الحديث بطبيعته شائك ، ولكن هذا لا ينفى حقيقة أنه ضرورة لا مفر منها ، خصوصًا فى هذا العصر الذى نعيشه . ولسنا ندرى هل يبحث علماء اللغة عن مخرج من هذه "الخلطبيطة" اللفظية أم يتركون الأمر على ما عليه حيث مجرد أن يقول أحد ان "فلانًا حصل على الجنسية" أو أن يظهر إعلان فى الصحف ، صادر عن "مصلحة الجوازات والجنسية" ، شىء كهذا قد يؤدى إلى أن يتلفت الناس حولهم وأن تحمر بعض وجوه الصغار من البنات . وقد حدث نفس الشىء فى الإنجليزية ، فكلمة Sex مشتقة أصلاً من اللاتينية Sexus ومعناها قسم ، فالناس قسمان ، مذكر ومؤنث وكذلك المدن ، ففى لندن "إيست سكس" يعنى القسم الشرقى ، و"ميدل سكس" ، يعنى القسم الأوسط ، وليس - والعياذ بالله - القسم المتوسط بين المذكر والمؤنث ، ثم انسحبت الكلمة لتشمل العلاقة أو ربما "التفاعل" بين القسمين ، ولكنها ظلت كما هى فى الأوراق الرسمية ليدون أمامها ذكر أو أنثى حسب الحالة ، ولما تزايدت درجة الصراحة فى الحديث عن هذه الأمور ، والتى تجاوزت كل خيال فى أزمة مونيكا لوينسكى

وأصبح لزامًا على الآباء والأمهات فى العالم الغربى أن يفسروا لأطفالهم عبارات شائكة وشائنة ، بدأوا هناك يبتعدون عن هذه الكلمة ويقولون فى الأوراق "gender" وهو تعبير كان يقتصر على التفرقة بين المذكر والمؤنث فى علم النحو .

هناك على أية حال "تابو" - أى حظر - يفرض على هذا الموضوع لأسباب مفهومة ومعقولة ، فالحديث فيه أو الإشارة إليه فى محيط الأسرة أمر يثير الشعور بالحرج عند الآباء والأبناء - وإن كنت لا أشك فى أن الأمر يختلف كثيراً بين الأمهات والبنات ، فعلى الأم - إذا كانت مستنيرة - واجب تبصير الابنة بحقائق كثيرة تتعلق بطبيعة الأنثى ووظائفها وتطوراتها العضوية وأمور عديدة تتعلق بذلك . يحضرنى هنا واحد من المواقف الأدبية التى تهز مشاعر القارئ وتحتل موضعاً فى ذاكرته يستخرجها منه كما أفعل الآن . للكاتبة الأسترالية المعاصرة كولين ماكالوك ، رواية ملحمية من عيون الأدب المعاصر هى "طيور الشوك" * ، تدور أحداثها داخل المجتمع الكاثوليكى الديانة هناك، أنتجت سينمائيًا وعرضها التلفزيون المصرى على هيئة حلقات فيلمية ، ولعب دور البطولة فيها الممثل الجذاب روبرت ريدفورد ، والبطولة لقسيس شاب كاثوليكى ، قمة فى الخلق والشعور بالواجب . مسرح الأحداث ضيعة اسمها "تروجيدا" ، تملكها أرملة ثرية قامت بدورها الممثلة القديمة باربارا ستانويك ، وتعيش فيها أيضاً أسرة الأب والأم فيها أجيران عندها ، صاحبة الضيعة مولعة بالقسيس الشاب ، تراوده عن نفسه، ولكنه يحكم السيطرة عليها دون أن يتجاوب معها ودون أن يفقد إيمانها به كرمز للفضيلة والشهامة . وهناك طفلة ابنة للأسرة العاملة ، كان كثيراً ما يصطحبها فى أوقاته ، نشأت هذه الطفلة منذ نعومتها على

* The Thornbirds

حب القسيس الشاب الوسيم ، حبًا طفوليًا أول الأمر ، تطور بعد نضوجها إلى حب بالغ عميق ممزوج بتقديس وعبادة . فى موقف – وهى ماتزال طفلة – كانت تسير بجواره فابصرت زوجًا من الطيور ، لا نقول "يتبادلان الحب" ، لسبب سيتضح حالاً ، بل ربما "يتزاوجان" ؟ فسألته عما يفعلانه فشرح لها أن نظام الكون كما خلقه الله هو أن يشترك الذكر والأنثى فى هذه الوظيفة التى تؤدى إلى الإنجاب . فعادت تسأله "وهل يفعل الآدميون ذلك ؟" فأجاب – استمراراً لهذه المحادثة التى هى وثيقة الصلة بما سيأتى من أحداث الرواية ، والتى تدل على عمق بصيرة المؤلفة – "نعم ، فقط عند الآدميين يكون هذا مصحوبًا بالحب" ، سرحت بأبصارها برهة ثم قالت : "لابد أنه شيء بالغ الروعة" ، فأجاب القس الشاب "هكذا أتصور" ، هو طبعًا هنا يشير إلى أنه – بحكم صفته – لم يجرب شيئًا من هذا وملزم بأن يقسم ألا يفعل .

حقائق لا حيلة فيها :

لهذه الحياة حقائق هى من صنع خالقها وموجدها ولا حيلة لنا فيها ، والعصر الذى نعيشه بتطوراته الاجتماعية الاقتصادية ، يضيف المزيد إليها .

من هذا :

– الأنثى هى التى تحمل وتلد وترضع . لا ندرى ما إذا كان المستقبل يحمل فى طياته تعديلات على ذلك ، ولكن هذا – إذا حدث ، كما تخيل الدوس هكسلى أنه سيحدث ، مما سنأتى له ، سيكون أمرًا بعيداً على مقياس الزمن ، نادراً بين سكان الأرض ، بل لعله سيقتصر على من يهاجرون من الكوكب إلى الفضاء الخارجى حتى الآن ، المرأة هى التى تؤدى وظيفة استمرار الحياة من الوجهة البيولوجية ، وهى بحكم هذا هى الجانب الخاسر

في أى علاقة لا يقرها المجتمع الذى تعيش فيه مما كان موضوع قدر هائل من الكتابات العلمية والأدبية والفكرية .

– سن النضج عند الكائن الإنسـاني ينتـمى لمرحلة الطفـولة ، ولذلك كانت المجتمعات القبلية تزوج الصغار فى أعمار الطفولة لأن الكل يعيشون في كنف القبيلة بما في ذلك الأطفال وأطفال الأطفال . وكانوا بشكل أو آخر يسهمون في الجهد المبذول من أجل توفير احتياجات الحياة ، فالصغار ذكوراً كانوا أو إناثًا يمكنهم أن يرعوا الأغنام وينثروا البذور . . . إلخ ، أما الآن ، فإن الزواج أصبح يتطلب من الذكر أن يكون قادراً على إعالة أطفاله لا على مجرد الإتيان بهم إلى الحياة . فى دنيا المدينة ، يتراوح الفارق الزمنى بين النضج البيـولوجى والقـدرة على الإعـالة ، بين ١٥ و٢٠ سنة ، هذا إذا كان الفتى من أبناء "القادرين" كما يسمون . بعبارة أخرى :

– مطلوب من الشباب – من "النوعين ؟" – أن يقضوا هذه الفترة من حياتهم مكتفين بالتطلع إلى يوم بعيد .. ذات يوم ، سوف نتزوج ، وهذه الفترة – وهذه حقيقة وليست رأيًا شخصيًا – هى المرحلة من عمر الإنسان التى تكون فيها الدوافع الغريزية المصحوبة بالعواطف الطبيعية ، فى أقصى درجاتها وفى قمة فاعليتها .

قرأت رأيًا فى جريدة الأهرام منذ فترة ، لواحد من علماء الدين ، يقترح فيـه على الأسـر أن تقـبل فكرة الزواج مع بقـاء الفـتـاة والفـتى (آسف ، بالعكس!) كل فى بيت أبويه ، أو – على الأقل – إنشاء مساكن صغيرة متواضعة ، يعنى مجرد عش لـ "طيور الشوك" . فكرة لا بأس بها سوى أنها كـمـا هو مـعـتـاد فى حـيـاتـنـا – تعـالج من جـانب واحـد مـشـكلة مـتـعـددة الجوانب. فالأستاذ الفاضل يعالج المشكلة من جانب دينى بحت ، ويجنب الشباب ارتكاب الذنوب وهذا ما بدأ يتفشى تحت مسمى الزواج العرفى ،

وهو بالضبط ما يشيع فى الغرب تحت مسمى "الحياة معًا" ، فقط بعد تنقيته من ذنوب الخطيئة ، إلا أن هذه ليست هى المشكلة ، فالمشكلة هى الفقر ، والفقر فقط ، وصاحب الاقتراح ، الذى أظن أنه خطر بأذهاننا جميعًا ، لا يقول لنا شيئًا عن "الإنتاج" الذى قد يأتى من هذه المعاشرة المتقننة ؟ ترى هل تأتى هذه الممارسة مصحوبة بوسيلة مضمونة لمنع الحمل (ولا نقول تنظيم الأسرة ، فليس هناك أسرة) ، وهل يتسنى ذلك ؟وكيف؟

الحل الأوحد هو الزهد والفضيلة . طيلة الحياة ، للملايين من الشباب ، يذكرنى هذا بنقاش حاد دار في الولايات المتحدة منذ بضع سنوات . لديهم منصب حكومي يسمونه "الطبيب العمومى" أو "الجراح العمومى"* ، عادة يكون عسكريًا من أطباء الجيش أو البحرية ، مهمته نشر الوعى الصحى ، وهو الذى تجده يحذر العموم من التدخين بكلمة يفرض القانون على الشركات المنتجة للدخان أن تنشره فى مكان ظاهر على الإعلانات وعلى العلب ذاتها . كان يشغل هذا المنصب رجل يدعى "إيفريت كوب" ، وكان ملتحيًا ويشبه لنكولن ، وكان معروفًا بحماسه للسلوك القويم وبانه محافظ ومتشدد فى اتجاهاته التقليدية ، ومن هنا كان محبوبًا من رجال الدين متمتعًا بتأييدهم له . عندما ظهر مرض الإيدز ، اتخذ موقفًا أغضبهم عليه وأدى إلى استقالته ، مؤداه أنه طالب بتعليم الصغار طرق وأساليب الوقاية من هذا الداء الجرثومى القاتل ، وبنشر هذا فى المدارس وفى كل وسائل الإعلام ، وكان فى هذا صادقًا مع نفسه كطبيب هذه مهمته ، فهو ليس بصفة أساسية معلمًا أو مصلحًا ، وكانت وجهة نظر معارضيه أن تعليم الصغار استخدام وسائل الوقاية من خطر ما ينطوى على الإقرار بأنهم معرضون لهذا الخطر وبالتالىٰ على التصريح لهم بذلك . كلتا المقولتين لها

* Surgeon general

وجاهتها وكلتاهما صحيحة ولا سبيل إلى معارضتها ، وهذا هو لب المشكلة الأخلاقية وأساسها بل وكل شيء في حياة البشر دون استثناء ! كل شيء له قيمة سيكون له ثمن ، وكلما ارتفعت قيمته كلما علا ثمنه . إذا كنا نريد الحرية - وهي من القيم العظمى في حياة البشر ، لعلها أثمن شيء فيها - سوف نتعرض للخطر ، لا من سبيل الأمراض المعدية فحسب ، بل من الجريمة والعنف ، ومن مشكلات المجتمع الأمريكي مسألة حمل وحيازة السلاح مثلاً ، وقد أصدر كلينتون أخيراً قانوناً أسماه "قانون بريدي" ، نسبة إلى ضابط بهذا الاسم أصيب في الاعتداء على حياة رونالد ريجان الذي وقع في أوائل سنوات حكمه ، وأصيب فيه ريجان برصاصة اخترقت صدره بينما أصيب هذا الضابط برصاصة اخترقت جبهته ونفذت بطول رأسه إلى أن خرجت من الجانب الآخر ! ومع ذلك ، تمكنوا من إسعافه وعلاجه ومازال حيًا للآن ! هذه العظمة في الجراحة لا يمكن أن تتأتى لمجتمع أفراده محرومون من الحرية ، بكل تأكيد . ولكن الحرية تنطوي على الحرية في حمل السلاح ، وعلى حرية الحركة والإقامة ، أن المسافر عندما يغادر ذلك البلد لا يمر على نقطة جوازات ، فالجوازات لمراقبة دخول الأجانب فقط، أما الفرد الأمريكي فهو حر في بلده ، والذي يريد أن يتسلح حر في ذلك أيضًا لأن من حقه أن يدافع عن نفسه ، كل هذه الحريات تزيد من معدل وقوع الجريمة وأيضًا من صعوبة تتبع المجرمين والإمساك بهم . بل وعند الإمساك بهم يستطيع المحامي البارع أن يجد ثغرة في الإجراءات يمكنه بها تبرئة موكله مع أن كلمة "مذنب" مكتوبة على سحنته ، ورأيت مرة فيلماً سينمائيًا كان الممثل الشهير مايكل دوجلاس يلعب فيه دور القاضي الذي أسقط في يده في موقف كهذا ، ومعه النيابة والشرطة مما اضطر عددًا من القضاة إلى التعاون مع المافيا في اصطياد المجرمين الذين يفلتون من العقاب

بهذه الطريقة ... مجرد حبكة قصصية ذكية ، لا أكثر ، ولكنها تكفى لإظهار هذه الحقيقة ، حقيقة مرة ، هى ، ولكنها دستور الحياة ، لا يمكنك أن تحل كل المشكلات ، يمكنك طبعًا أن تقضى على مؤسسات الجريمة على الأقل ، وهذا واحد من منجزات الحكم الشمولى ، لا توجد المافيا طبعًا...، كانت توجد فى أبشع صورة لها فى ألمانيا الغربية ، ولا وجود لها فى ألمانيا الشرقية ، فقط انظر كيف كان حال هذه وتلك ! ماتزال ألمانيا الشرقية حتى الآن شيئًا يشبه "الخراج" فى جسد ألمانيا الموحدة ، وقرأت مرة حديثًا لجنرال كان يشغل منصب رئيس الأركان ، وكان يقول أن مشكلة توحيد القوات المسلحة لا تتمثل فى التسليح أو أى شىء آخر ، إنها فى نوعية الإنسان ، فالإنسان الذى يعيش فى ظل القهر والإجبار على كل شىء حتى ما يقوله وما يفكر فيه ، لا يساوى الإنسان الذى ينعم بالحرية ، كبت الحريات يساعد على الحد من الجريمة ما فى ذلك شك ، ولكنه سيؤدى أيضًا إلى كبت الأذهان والعواطف وكل ما فى البشر من مكونات ، حل المشكلة - سواء فى موضوع الجنس أو الجريمة - هو تحويل الأشرار والمنحرفين والمجرمين إلى أقلية ، بإصلاح أحوال المعيشة ، وتوفير احتياجات البشر ، وهذا يتأتى بشىء واحد هو : الإدارة العلمية الجيدة ، وتوفير المدير الذى لديه المقدرة ، والخُلق ، وهى أمور لا تتوفر بسهولة ولا تباع فى الصيدليات ، إنها تتأتى بالإدراك ومراقبة ما يجرى فى العالم والاستفادة منه .

هل هى ثقافة مكان ؟

أم مرحلة فى طريق التطور المحتوم ؟

نهاية الأسرة فى العالم الصناعى

قد تنتمى الشرائع والديانات إلى مواطن أو قوميات ، فهناك مثلاً ديانات فرعونية وفارسية وهندوسية ، وكذلك الفلسفات ، فهناك مثالية ألمانية ، وبراجماتية أمريكية ووجودية فرنسية ودانمركية ، وكذلك التشريعات والقوانين بعضها أصوله رومانية أو فرنسية أو إنجليزية . ولكن العلوم التجريبية ، سواء فى ذلك ما يبدو لنا أنه حقائق أو مايزال نظرية لتفسير غوامض العالم المادى ، فهى بلا وطن . وما أن تأتى بجديد حتى يصبح هذا الجديد ملكًا للدنيا بأسرها .. ومع أن الجبر والكيمياء كلمتان عربيتان ، دخلتا قواميس اللغات العالمية بمنطوقهما هذا ، ومع تقديرنا العظيم للخوارزمى – الذى دخل القواميس هو أيضًا ليصبح اصطلاحًا فى النماذج الماتيماتيكية – ولجابر بن حيان والحسن بن الهيثم ، فإن ما جاءوا به لم يكن علومًا عربية ، وكذلك فإن أصول الرياضيات ليست علومًا يونانية ، ولا التفاضل إنجليزيًا بفضل نيوتن ولا ألمانيا بفضل لايبنتز ، برغم النزاع على ملكيته والذى أصاب الأخير بـ "النقطة" التى مات بها .

إلا أنه برغم عمومية المعرفة التجريبية فإنه يبدو أنها – ومعها تطبيقاتها ، وهو ما نسميه "التكنولوجيا" – قد كانت دائمًا ، وماتزال ، هى أقوى عامل يؤثر على حياة البشر ومعتقداتهم ، حتى فى الأزمنة التى كانت فيها هذه المعرفة ليست تجريبية كما هى الآن ، أى عندما كانت العلوم هى صناعة

الكهان ، ثم صناعة الفلاسفة النظريين من أمثال أرسطو ، هذا - مرة أخرى- مع تقديرنا العظيم .

لو تأملنا من بعيد أعظم التطورات في تاريخنا فسوف نلحظ أن كل معرفة جديدة جاءت بفتح عظيم في وسائل الحياة ، كان لتطبيقاتها أعظم الأثر في تنظيمات البشر وسلوكاتهم ، وأنه برغم استعدادنا الهائل للوقوع تحت تأثير أصحاب المذاهب والزعامات فإننا ننقاد لهم عندما يوهموننا بأنهم سيهيئون لنا حياة أفضل . صحيح أنهم أيضًا قد يركزون دعوتهم على رذائل المستجدات ، ويجدون الاستجابة الفكرية من جموع البشر ، سواء في الجانب "المتطور" من العالم ، أو في الجانب الآخر ، أي الذي يتلقى وقع هذا التطور بوصفه مجرد "مستورد" للحضارة الجديدة ، وليس "منتجًا" لها ، إلا أن هذه الاستجابة تظل من باب السباحة ضد التيار .

في العالم الصناعي ، وهو على الخريطة : أوروبا (التي يبدو أنها سوف تتوحد بعد انتهاء تجارب الشيوعية والفاشية) ، وأمريكا الشمالية ، واليابان (التي أصبحت منتجة للحضارة بحق بعد ما أدخلته من أساليب جديدة في الإنتاج والإدارة الصناعية مما سنأتي له ، وذلك في النصف الثاني من القرن العشرين) ، وحفنة من دويلات شرق آسيا .

هذا هو الجانب من العالم الذي يتغير مستجيبًا لتطورات العلوم والتكنولوجيا ، مما ينتج عنه - بعلاقات سببية مادية - أنماط جديدة ، في الحياة والممارسات الشخصية والاجتماعية ، لا ترضى عنها أجياله القديمة ، وبالقطع تتنافى مع القيم الدينية والأخلاقية السائدة . في هذا الجزء من العالم يظهر أصحاب المذاهب داعين إلى هجر هذه الممارسات مركزين دعاياتهم على شرور المجتمع الصناعي ، ولكن الواقع المادي يغلب هذا المنطق ويجرفه في تياره ، بينما يستميت هؤلاء من أجل الوصول إلى السلطة

السياسية ومواقع الزعامة ، ويقتصر مريدوهم على شراذم من الدراويش من نوع أتباع الزعيم الروحى اليابانى "شوكو أساهارا" الذى بدأ يدعو سنة ١٩٨٧ إلى نبذ الأساليب الأمريكية فى الممارسات الجنسية والوجبات السريعة التى تهدف إلى تدمير حضارة اليابان ، وتنبأ بنهاية العالم فيما بين سنتى ١٩٩٧ و٢٠٠٠ ، وبقية قصة تسميم ركاب القطار معروفة . مثل هذه الحركات تنتهى عادة بتدخل القانون أو بالانتحار الجماعى لأفراد تنظيم لا أمل له فى السباحة ضد تيار حضارى جارف يستمد جذوره من الواقع التكنولوجى الصلد ، الذى ينبع من باطن هذا المجتمع ذاته .

أما على الجانب الآخر ، فالمجتمعات تتلقى كل أنواع التطور فى المعرفة والتكنولوجيا من ناحية ، وفى الممارسات الاجتماعية من ناحية أخرى . دعاة المقاومة يجدون آذانًا صاغية من الآباء والأمهات والمؤسسة الاجتماعية ، ولكن الأمور التى ينادى أساهارا وأضرابه بالقضاء عليها ماتزال هى النمط الذى يغرى الشباب ، الإنترنت والديسكو والـ«فاست فود» ، وهى على أى حال قد جاءت إلى الوجود بقصد اجتذاب الشباب وتحقيق الربح والنمو الاقتصادى ، ويجرى تصميمها بحيث يتحقق ذلك . الذى يحدث - على وجه العموم - هو أن أبناء الأثرياء هم الذين يقبلون على هذه الأساليب العصرية السائدة ، أما الباقون فهم لا يقدرون عليها ويجدون فى اتباع التقاليد والتمسك بالقيم القديمة أوضاعًا مريحة ومقنعة .

نهاية القبيلة

قبل اكتشاف الزراعة كان الإنسان يعيش على صيد الوحوش والأسماك وعلى جنى الثمار والحبوب الوحشية ، ولم يكن يتميز عن غيره من المخلوقات الراقية إلا بأنه يتحادث مع أبناء جنسه . يقول ويل ديورانت ، صاحب "قصة الحضارة" :

«ليس الإنسان بطبعه كائنًا سياسيًا ، والآدمى لا يتآخى مع أقرانه بحكم الرغبة فى ذلك ، بل بتأثير الاعتياد والتقليد والضرورة . وهو لا يحب المجتمع بقدر ما يخاف الوحدة . العزلة تعرضه للأذى ، وهناك الكثير مما يسهل أداؤه جماعيًا . وهو فى أعماق نفسه منفرد ميال للعزلة ، ولو ترك لنفسه لما نشأت الدولة وهو يريد القانون ليحميه من جاره فقط ، أما فيما يخصه هو فالقانون شيء لا لزوم له"

هكذا فإن الإنسان القديم كان يخرج فى جماعات ليمارس الصيد ، وهى خاصية تشاركه فيها أنواع الذئاب والحيتان ، يمضى ديورانت :

"بينما يغيب الرحال فى رحلات الصيد ، كان النساء يلتقطن كل ما تصل إليه أيديهن الناعمة من الثمار الدانية القطوف أو المتساقطة على الأرض . وفى أستراليا والمناطق النائية فى مدغشقر ووديان الغرب الأمريكى، مايزال نساء الجماعات والقبائل القديمة يكتفين بانتزاع الجذور والتقاط الفواكه والحبوب وعش الغراب دون محاولة لحث النبات على النمو بغرس البذور . ولعل نساء الأزمنة السحيقة قد اكتشفن بمحض الصدفة أن البذور التى تتساقط منهن تغوص فى التربة وتنبت من جديد . وإلى عهد قريب كان زوار مكان مثل مدغشقر يرون النساء وهن يقفن صفوفًا لدق الحفر باستخدام العصى وغيرها من صور أدوات الحفر البدائية ، لهذا الغرض"

من حسن حظ المؤرخين للحضارة أن كوكب الأرض مايزال متحفًا يعرض كل مراحلها فى وقت واحد ! فقد هاجر الأوروبيون إلى كل هذه الأنحاء وكان وقع حضارتهم على سكانها الأصليين متباينًا بطبيعة الحال ، ولكن الذين قاوموا التغيير – كما يقول الإداريون – بقوا على حالهم ، وفى ولاية مثل كاليفورنيا ، التى يسمونها الولاية الذهبية ، قد تجد قبائل الهنود الحمر يكاد يكون حالهم كما كان منذ آلاف السنين ، وعلى بعد بضع

مئات من الأميال تجد قبائل من النوع الآخر ، قبائل دراويش عبادات الشيطان وغيرها من التقاليع داخل أحياء من نوع بيفرلى هيلز . فى جميع هذه الحالات فإن شيخ القبيلة مازال يتشمل فى أنماط من نوع أساهارا أو "مون" أو "جيم جونز" ، ويتفاوت إيمان أتباعه بقدراته وألوهيته ، ولكن سطوته تظل قاصرة على الممارسات الاجتماعية والشخصية التى لا تغضب السلطات الحكومية ، فمنذ مجيء الزراعة أصبح الإنسان يرتبط بالأرض وليس بقيادة تجمعات الصيد أو رعاة الأغنام وغيرها من الحيوانات التى تمثل النشاط الاقتصادى الرئيسى . وقد يهيمن شيخ القبيلة على أمور الزواج والطلاق مثلاً ، وقد يحرم على أتباعه قتل الحيوانات والحشرات كما حدث مرة فى مدينة فيلادلفيا ، أو تعاطى أدوية هذا العصر الشرير كما حدث فى أنحاء كثيرة ، ولكنه قد يصطدم بالقانون عندما تتكاثر الحشرات أو الجرذان أو عندما يموت طفل من الحمى وترى السلطات أنه لو تناول الدواء لربما كان قد شفى . عندئذ تجد الحكومة أن من حقها أن تنقض على موقع القبيلة كما حدث فى ولايات تكساس ومونتانا وغيرهما ، وتتهم الزعيم بالقتل الخطأ أو تعريض الناس للخطر أو الإهمال الجسيم حسب الحالة . هذا هو الفارق بين قبيلة اليوم وقبيلة الأمس التى كانت مجتمعًا مستقلاً بقوانينه وإجراءاته ، يشن الحروب على طريقة عبس وذبيان ويملك الزعماء أقدار الناس وأرزاقهم فى نظير إعطائهم الأمن . وليس معنى ذلك أن كل مجتمع ينتقل من النظام القبلى إلى الحكومة المركزية لابد أن يمر بطور الزراعة طبعًا ، فقط حدث هذا فى مصر كما نعرف . وفيما يرى إليوت سميث وجيمس بريستد ، شيخ مؤرخى حضارة مصر القديمة ، كان هذا لأول مرة فى تاريخ البشر . ويستند الكثيرون إلى أنه فى سنة ١٩٠١ اكتشف الباحثون أجسادًا ترجع إلى ستة آلاف سنة ، بقيت على حالها بسبب الجفاف والرمال ،

بالقرب من قرية البدارى فى صعيد مصر ، ووجدوا فى أحشائها بقايا نبات وحبوب الشعير التى لم تكن تنمو بشكل وحشى فى مصر مما يدل على أن جهود الرى والزراعة وتطهير المستنقعات ترجع إلى ذلك الوقت ، وأنه كان عصراً متوسطًا بين حضارة الصيد وحضارة الزراعة وأيضًا مرحلة الانتقال من الأدوات الحجرية إلى العدد المعدنية ، وكما يقول ديورانت ، فإن بداية الإنسان هى الكلام وبداية الحضارة هى الزراعة وبداية الصناعة هى اكتشاف النار .

التقاليد إذن تستمر فى إحداث آثارها ، هذا مع القول بأن نوعية النشاط الاقتصادى هى العامل الأساسى فى تغيير نمط الحياة وتنظيم المجتمع ، ولكن تأثيرها قد يتضاءل وينمحى – وسنأتى لذلك – إذا طغى عليه النمو الصناعى . وكما نعرف فإن ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية قد وضع حداً للممارسات القبلية فى أمور كالعبادات الوثنية وتوقيع القصاص وإشعال الحروب للثأر وغير ذلك ، بفضل استقرار كرسى الخلافة وإرساء النظام العام، ولكن التقاليد التى لا تتعارض مع ذلك ظلت باقية تحرم على والد ليلى أن يسمح بزواجها من قيس بن الملوح برغم حبه الشخصى له وافتتانه بشعره ، هى نفسها ترفضه لأن زواجها منه معناه أن « يمشى أبى فيغض الجبين ! " لأن هذا بقى إلى عصور طويلة هو السلطة الوحيدة فى يد شيخ القبيلة : "فلانة لفلان ! " ، ومن هنا جاءت قاعدة "ممنوع الحب ! " لأن الحب يحدث خارج نطاق "السلطة" . نسوق هذا كله لنتحاشى مظنة أننا نقول بأن نوعية النشاط الاقتصادى هى العامل الوحيد الذى يشكل سلوكيات البشر وأخلاقياتهم ، فما تزال العقائد والتقاليد تحدث أثرها وقد يكون قويًا وجارفًا ، خصوصًا عندما تدعمه التعاليم والدعايات، فقط عندما يكون النشاط الاقتصادى الجديد – كالصناعة فى عالم الغرب فى القرن العشرين–

نابعًا من نفس هذه البيئة ومتفقًا مع ممارساتها إلى حد بعيد ، فإنه يكون خليقًا بأن يحدث ما سنأتى له من انقلاب عظيم فى التقاليد والعوائد ، هذا الانقلاب الذى نرجو من القارئ أن يوقن بأننا نشاركه أحاسيسه بشأنه ، وبأننا لا نأتى هنا إلا بتحليل للمؤثرات والنتائج ، مجتهدين فى كشف علاقاتها السببية ، وأننا لسنا بسبيل تقييم لما هو صواب وما هو خطأ ، أو ما هو مشين ، فهذا ليس موضوعنا على الإطلاق . هذا فضلاً عن حقيقة أن الخير والشر توأمان فى هذه الحياة ، وقضية الأخلاق معضلة قديمة حار فيها المفكرون والفلاسفة . من أوضح الأمثلة : الزراعة . كان التحول إلى الزراعة بداية لاسترقاق البشر ، لم تكن حياة الصيد والرعاة مصحوبة بهذه الظاهرة المقيتة : عبودية الإنسان ، لم يكن لها داع ولم تكن أيضًا ممكنة فى حياة القبائل الرحل ، وعندما بدا الارتباط بالأرض والإنتاج الزراعى ، ظهرت الحاجة إلى الجهد العظيم الذى لابد أن يصاحب ذلك ، وكان جهداً عضليًا بالطبع ، يتساوى فيه الحيوان والإنسان واستمر ذلك آلاف السنين ، من المصريين القدماء إلى الرومان ، وهم أساتذة البشاعة وقمم البربرية والفظائع، ولغاية الجنوب الأمريكى حيث ازدهرت صناعة القطن وحيث دارت الحرب الأهلية الأمريكية بسبب هذا الموضوع ، مما هو مصور بدرجة عظمى من التفنن فى رواية أليكس هيلى "الجذور" التى تحولت إلى دراما عرضها التلفزيون . وبرغم الدعوة إلى إلغاء تجارة الرقيق ثم تحريمه ، فإن هذا لم يتم إلا بمجىء الطاقة الآلية ، وهذه ظاهرة مؤسفة فى تاريخ البشرية ، إن التغير لا يتم بناء على آرء المصلحين ونصائح المفكرين ، بل بناء على الواقع المادى والحقائق الاقتصادية .

آثار الصناعة

إذا صحت مقولة ديورانت ، من أن اكتشاف أوليات الزراعة كان الفضل فيه لأنثى الإنسان ، فإن الذكر قد رد لها هذا الفضل مضاعفاً :

(١) الصناعة الآلية ، التى أدت - فى أوروبا وأمريكا - إلى تزايد هائل فى الطلب على الأيدى العاملة ، بما فى ذلك النساء ، فى الوظائف المساندة والإدارية أول الأمر ، ثم فى دوائر أخرى أخذت تتزايد بفضل العامل الثانى فى هذا التطور ، وهو :

(٢) الحروب ، التى أدت إلى نمو هائل فى الصناعة لإنتاج أدوات الحرب، مع الاضطرار إلى تجنيد مئات الملايين من الرجال وهلاك عشرات الملايين منهم وحلول النساء محلهم .

(٣) ابتداع وسائل منع الحمل ، وهذه لم تقف عند حد إعفاء الأنثى من عواقب المعاشرة داخل إطارالزواج أو خارجه ، وتسهيل ممارستها للعمل ، وبالتالى ، تحقيق ما تحتاجه من الاستقلال الاقتصادى ، بل إن بعض الوسائل تقى أيضاً من الأمراض التى تتفشى نتيجة لهذا النوع الجديد من الحرية ، والذى ينشأ عن الفصل بين ممارسة الجنس وإنجاب الأطفال ، . .

نحن طبعاً مازلنا نقصر حديثنا على العالم الصناعى ، وهو بالتحديد : أوروبا بشرقها وغربها ، أمريكا بشمالها وجنوبها ، صحيح أن أمريكا اللاتينية ليست صناعية بالمفهوم الذى نتحدث عنه والذى أدى إلى هذا النمط الجديد فى الحياة والعلاقات الأسرية وعلاقة الرجل بالمرأة ، ولكنها تأثرت بالثقافة الغربية دون أن تكون صناعية إلى هذا الحد ، ثم هناك اليابان، وهى بعكس ذلك ، صناعية إلى هذا الحد ولكنها ماتزال متأثرة بثقافتها القديمة ، بدرجة آخذة فى التناقص طبعاً ، فقط لأن نهضتها

الصناعية ماتزال حديثة نسبيًا فإن المرأة اليابانية لم تصل إلى درجة التحرر الاقتصادى التى وصلت إليها المرأة فى أوروبا الشمالية وأمريكا الشمالية ، وبينما نحن لا نهدف هنا إلى التركيز على تأثير الصناعة على سلوك الفرد اليابانى والمرأة اليابانيةبصفةخاصة ، إذ أن مثل هذا التركيز سيكون بحثًا أطول مما هو متاح لنا فى هذا المقام ، إلا أنه لامفر لنا من أن نقر بأن التطور الصناعى الذى اجتازته اليابان منذ بداية عصر الإمبراطور العظيم ميجى (هذا فى الحقيقة هو الاسم الذى يطلق على عصره الذى يمتد من ١٨٦٨ إلى ١٩١٢، وهى سنة وفاته ، ولكن اسمه الحقيقى هو موتسوهيتو ، وهو مولود سنة١٨٥٢ ، "هيتو" هذه مشتركة بينه وبين حفيده الشهير هيروهيتو ، وابن هذا الحفيد وهو الإمبراطور الحالى آكيهيتو) أطلق ميجى فى أبريل سنة ١٨٦٨ إعلانه الشهير :

"سوف يكون ميثاقنا هو أن نطلب المعرفة من كل مكان فى هذا العالم ، وسوف تكون هذه المعرفة هى دعامة النظام السياسى الإمبراطورى ومصدر قوته" .

الاستثناءات التى تثبت صحة القاعدة :

إلا أن التغير الهائل فى المواثيق الاجتماعية وأنماط الحياة والعلاقات الأسرية الذى نرى أنه قد ساد عالم الغرب الصناعى نتيجة للثورة الصناعية التى اتخذت أوضاعها فى أوروبا وأمريكا فى القرن التاسع عشر ، مستندة إلى التطور الآلى ، هذا التغير لم يصاحبه تطور مماثل فى اليابان . أسباب ذلك كثيرة ولكننا نوجزها فيما يلى :

* برغم "المعجزة اليابانية" كما تسمى ، فإنه حتى نشوب الحرب العظمى سنة١٩١٤ كانت الغالبية العظمى من المعدات الصناعية والسفن الكبيرة

وعربات السكة الحديدية فى اليابان مستوردة من أوروبا . الطفرةالمادية كانت أسرع من تطور المجتمع .

* قد استمر النمو الصناعى بعدذلك حتى سنة ١٩٤٥ ، نهاية حرب الباسفيك ، مع درجة لا تكاد تكون محسوسة من تحرر المرأة وارتقائها . كانت نسبة النساء العاملات لا تكاد تعدو ٧٪ من مجموع القوة العاملة ، ثم جاء الدمار الذى كاد يكون شاملاً ، فشطر نهضة اليابان إلى عصرين مختلفين ، وبدأت من جديد بدستور جديد ودرجة من "الأمركة" . ماتزال المرأة اليابانية حتى ذلك الوقت خاضعة تمامًا لتراث شرقى كونفوشى فى المقام الأول ، مطلوب منها طاعة الأب ثم الزوج ثم الابن فى سنواتها الأخيرة . وحتى ذلك الوقت وبرغم النهضة الصناعية لم تكن اليابان تنتمى إلى ثقافة "الخواجا" بأى شكل وبأى درجة.

* مع النهضة الصناعية الجديدة ، قد تزايد اشتغال النساء ، فقط – وحتى يومنا هذا – ماتزال هناك تفرقة عنيفة ، وحتى عندما بلغت نسبة النساء حوالى ٤٠٪ من القوة العاملة فإن أكثر من ثلاثة أرباع هذا الحجم يقتصر على وظائف الخدمة والسكرتارية ، وإذا دخلنا إلى المستوى الجامعى فإن نصيب الفتيات منه لا يتجاوز ١٥٪ ، وأغلبهن يشتغلن سنوات قلائل ثم يتزوجن ويبقين فى بيوتهن للقيام بواجبات المنزل (التى أصبحت الآن أسهل كثيراً بفضل الأجهزة الحديثة ومساعدة الأبناءبعد العودة من المدرسة) وتدبير المدخرات، هذه ماتزال "مقدسات"

* مستوى المعيشة أدنى بكثير من نظيره فى أوروبا وأمريكا ، خصوصًا مع ضيق الرقعة وضآلة المساكن .

* إلى جانب البعد الجغرافى والعزلة الطويلة عن أوروبا ومستعمراتها ، فاليابانيون يكرهون التزاوج ويرفضونه ، كل هذا يجعل اليابان – بحكم

تاريخها وثقافتها وميول أبنائها وبناتها - استثناء من القول بأن الصناعة كانت طريقاً إلى تفكك النظام الأسرى كما كانت الزراعة أداة لإنهاء القبيلة كوحدة اجتماعية .

لا ينفى هذا أن اليابان تتحرك فى نفس الاتجاه ولدينا هذه المؤشرات :

- فى سنة ١٩٢٥ كان متوسط العمر ٤٥ سنة .

وكان متوسط نصيب المرأة من الأبناء (١ر٥) .

الآن . "متوسط العمر (٧٩) سنة ، وانحدر نصيب المرأة من الأبناء إلى أن وصل الآن إلى ١ر٥٧ طفلاً للمرأة .

لا يفوتنا أن نضيف أن اليابانيين يستخدمون مايقرب من مائتى ألف روبوت ، أى ٧٠٪ مما يوجد فى العالم كله ، لكى يتجنبوا العمالة الأجنبية الرخيصة ، التى هى كفيلة بـ "تلويث" ثقافتهم .

الاستثناء الآخر هو : أمريكا اللاتينية .هذه المجتمعات تعيش حضارة الغرب من الوجهة الاجتماعية ، برغم أنه حتى الدول الكبرى فيها وهى المكسيك والبرازيل والأرجنتين وشيلى ، لا تعد من القوى الصناعية أوالرائدة فى العلوم أو الصناعات ، حتى أيام الازدهار التى عاشتها قبل أن تعانى من حكم العسكر من أمثال بيرون وبينوشيه وجالتييرى أو المغامرين من أمثال الليندى ، حتى فى تلك الأيام لم تكن هذه الدول قوى صناعية ، وللآن ليست بالطبع عضواً فى مجموعة الدول السبع أو الثمانى أو كائنًا ما كان عددها الآن ، وأغلب الظن أنها لن تكون ، بحكم التضخم السكانى والفقر ، وهما خاصيتان تساند كل منهما الأخرى . ولكن الحقيقة تبقى وهى أن هذه الشعوب أوروبية الأصل والمزاج ، لغاتها أوروبية وديانتها كاثولوكية رومانية وحضارة الغرب وممارساته هدف تسعى إليه وتغار ممن يحققونه وليست فساداً وانحلالاً كما تبدو فى بقية العالم - أو العالم

الإسلامى على الأقل ، ونتنهز الفرصة لنؤكد أن ما نقول به هو أن نوعية النشاط الاقتصادى أو المعيشى تمثل العامل الأساسى فى تشكيل المجتمع وتعديل القيم التى تسوده ولكنه العامل الأساسى وليس الوحيد .

تقويم فورد :

سبق أن تحدثنا عن رواية هكسلى التى تصور إنتاج البشر فى مصانع التفريخ وباستخدام هندسة الوراثة ، "ممنوع الحب" فى هذا المجتمع المستقبلى ، لأنه قد يؤدى إلى التناسل بالطريقة "القديمة" ، وهم يعثرون مرة على رجل"متوحش" ، يعنى مثلى ومثلك ، جاء من أب وأم ، وذلك فى ولاية نيومكسيكو الصحراوية التى تهبط فيها مركبات الفضاء والتى جرت فيها تجارب القنبلة الذرية قبل استخدامها . هذا المخلوق كان أعجوبة من الزمن القديم ، وهم يجرون عليه الأبحاث إلى أن ينتحر هربًا من هذا المجتمع الذى تسوده المعامل وأنابيب الاختبار . متى يحدث هذا فى تصور هكسلى؟ إنه يحدث سنة ٦٣٢ – أى تقويم هذا ؟

إنه ليس .B.C يعنى "ق . م" ، وليس A.D يعنى "م" ، إنه A.F ، يعنى بعد فورد ، أى بعد مجىء نبى الصناعة ورسول الإنتاج الكثيف ، الذى ابتدع طريقة "خطوط التجميع" كما تسمى حتى الآن ، هنرى فورد ، الذى حول المصنع إلى آلة واحدة كانت – سنة ١٩١٣ – تخرج سيارة جديدة كل ٩٣ دقيقة بالضبط ، كان الخفض الهائل فى تكلفة الإنتاج بتحقيق الكفاءة فى الإدارة، هوالسبيل إلى مضاعفة أجور العمال ، الذين وصلوا إلى مائة ألف ، وعدهم بأن يصبحوا زبائن لهذا الانتاج الغزير ، وقد حقق هذه الرؤية المستقبلية ، وضاعف أجورهم مرة أخرى ، لم تعد سكنى القصور وامتلاك وسائل الراحة والترف حكرًا للملوك والأمراء وملاك الإقطاعيات ،

أصبح الإنسان العادى يمتلك منزلاًوحديقة وسيارة وزورقًا آليًا وكل ما تتيحه التكنولوجيا ، بلغة علماء الاجتماع المعاصرين ، تكون ما يسمى "الطبقة الوسطى" ، وتضاعف عدد سكان المدن فى أمريكا ثم فى العالم الصناعى ، بالذكاء والابتكار والكفاءة .

ليس واضحًا ما إذا كان هكسلى يبنى تقويمه على مولد فورد (١٨٦٣م) أو سنة وفاته أثناء زوبعة قطعت التيار الكهربائى عن مقر إقامته ، وكأنها تذكرة بعجز الإنسان أمام حقائق الكون ، سنة ١٩٤٧م ، أو ربما يؤرخ لإنجازاته الهائلة فى تصميم السيارات وخطوط التجميع ، فى جميع الحالات ، أمامنا حوالى خمسمائة سنة تتبقى على "مصانع هكسلى لإنتاج المواليد" .حقًا ؟ الاستنساخ ؟ الإخصاب المعملى ؟ هندسة الوراثة ؟ فى دراسة حديثة لمعهد عالمى ، تناولت بلدان أوروبا مع التركيز على إحدى الدول الأسكندنافية ، لدينا هذه الحقائق التى نرجو من القارئ أن يتأملها أول الأمر كحقائق وألا يجعل الصدمة تنفى كونها كذلك ، ولعل الكثيرين منا قد سمعوا بقصص المهاجرين من بلادنا إلى أوروبا وأمريكا ، حيث ينشأ أبناؤهم وبناتهم فى مجتمعات تعطى – بحكم كونها صناعية – درجة غير مسبوقة من الحرية والانفرادية . ومن هؤلاء أب لطم ابنته لعودتها من الخارج فى ساعة ليلية متأخرة ، وانتهى به الأمر إلى إنذار من الشرطة بأنه سيقدم للمحاكمة ويتعرض للسجن إذا تكرر منه ذلك .

المدينة الفاضلة :

الذين اتخذوا هذا التعبير ليكون مقابلاً لكلمة "يوتوبيا" لم يكونوا موفقين فى ترجمتها ، إلا من حيث أن كلتا الكلمتين تصف شيئًا لا وجود له ! يقول ابن خلدون فى أهل المدينة ، ومدينة عصره ! "داعية ذلك كله

إفراط الحضارة والترف ، وهذه مفسدات فى المدينة على العموم ، فى الأسواق والعمران . وأما فساد أهلها فى ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب فى حاجات العوائد والتلون بألوان الشر فى تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها ، فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهة ومن غير وجهة ، وتنصرف النفس إلى الفكر فى ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له ، فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور فى الإيمان والربا فى البياعات ، ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة فى الخوض فيه حتى بين الأقارب وذوى المحارم الذين تقتضى البداوة الحياء منهم . . ."

حقًا ، إن الشيخ عبد الرحمن يجعلنا نظن أنه كان يشاهد قناة "بلاى بوى" ! وهذا كان قبل ابتداع الطاقة الكهربائية التى ضاعفت طاقة الصناعة وخدماتها التى لا حدود لها ومكنت من إسكان عشرات الألوف من البشر فى أبراج سكنية لو كانت أرضها زراعيةلما وسعت حفنة منهم . فى المجتمع الزراعى ، كانت المدينة هى المركز التجارى والإدارى ، والريف هو الطاقة الإنتاجية ، أما فى الصناعى فالمدينة هى آلة الإنتاج والريف هو "المطبخ" ، حيث الخدم يعرفون بعضهم بعضاً ، فى موقف لنجيب محفوظ نجد واحداً من الشخصيات يقول : نحن نعيش فى عصر يعرف فيه المرء ما يدور فى فيتنام أكثر مما يدرى بما يحدث فى الشقة المجاورة ! "كما أن الكهرباء لم تقف عند حد تكثيف الإنتاج والعمالة بل قضت على المسافات ، مما يؤدى إلى إمكان الانفرادية . وتزايد الحرية الشخصية ، وهى واحدة من مبادئ الدساتير الغربية .الذى جد فى الأمر أن ما كان يدخل فى نطاق هتك العرض مثلاً ، لم يعد جريمة حتى ولو كانت الضحية قاصراً ، بل إن مؤسسة المجتمع

ترحب بعواقبه ، فالمجتمع يشكو من الشيخوخة بفعل تناقص المواليد وإطالة الأعمار بشكل يهدد صناديق المعاشات والتأمين الاجتماعى (وقد فكر اليابانيون مرة فى "تصدير" العجائز إلى بلدان أكثر رخصًا واتساعًا) والدولة فى شمال أوروبا تهب الأمهات الصغيرات سكنًا لرعاية المولود المنتظر ، كما تمنحها معاشًا شهريًا لرعايته ، بعبارة أخرى ، تنشئ مزارع للأطفال مثل السمك . والأم من هؤلاء - وهى فى سن تتراوح بين ١٢ ، ١٩ سنة ، قد تأتى بوالد الطفل ليعيش معها ، ولكنها تصطدم بعقبة هى أنه إذا تزوجته سوف تحرم من هذه المميزات ، وهذه قد تكون من أكبر مفارقات الحياة الإنسانية بعد انتفاء القبيلة ، وهى الفارق الكبير بين قدرة الذكر على الإنجاب وصلاحيته لأن يكون رب أسرة ، وهو فارق زمنى يصل الآن إلى ما يقرب من عشرين سنة فى المتوسط ، نحن فى الشرق ليست لدينا حيلة سوى أن ننصح الشباب بالصبر وممارسة الرياضة البدنية كبحًا لغريزة هى فى أعلى مستوياتها فى هذه المرحلة من العمر والخالق سبحانه هو الذى أودعها فينا - وكما سبق فإن أحد الفقهاء ينصح بتزويج الصغار إما فى بيوت أسرهم أو فى مساكن لشخصين فقط ، يعنى بنظام القبيلة ، فقط "مودرنيزيه" كما يقال ، ولكن العالم الجليل لم يذكر شيئًا عما يمكن أن ينتج عن ذلك من ذرية ! الذى يحدث الآن فى الدول الأسكندنافية مثلاً هو هذا فقط هم قد استبعدوا الديانة من كل ما يجرى خارج أماكن العبادة : نسبة المواليدمن أمهات غير متزوجات تصل إلى ستين فى المائة ، المدارس تقدم لفتيات المرحلة الثانوية برامج فى العناية بالمواليد ، التلميذات الصغيرات يتفاخرن بأنهن حبالى ، ويطلين بطونهن المنتفخة بمختلف أنواع التصاوير ويعلقن صورهن هكذا على حوائط الفصول ، وتقول هذه الدراسة أن حوائط المدارس وأرضياتها نظيفة إلى حد أنه يمكن "الأكل عليها" -

الغالبية العظمى من الأسر الجديدة تحولت الآن إلى أمهات وأطفال ، أما الآباء العزاب فنسبتهم عشرة فى المائة فقط ، ولا يرجع ذلك إلى مجرد الإنجاب خارج نطاق الزواج ، بل إلى ارتفاع نسبة الطلاق أيضًا ، وهى من نواتج الرخاء هى ذاتها ، فما دام الإنسان - رجلاً كان أو امرأة - يستطيع الحياة بمفرده فلماذا يتحمل مضايقات الزواج غير المتوافق ؟ هذه الأمور لم تنشأ بالطبع عن "فرمان سلطانى" ، إنها نتيجة تطور أساليب المعيشة ، وإن كنا لا نزعم أبداً أن الصناعة هى العامل الوحيد فى تغيير الممارسات الاجتماعية ، وهنا نود أن نقتبس هذه الفقرة من برتراند راسل ، تحت عنوان "سطوة التقاليد" ، يقول شيخ فلاسفة القرن العشرين :

تستمد التقاليد ثباتها من سطوة الاعتياد ، وهى ليست ملزمة بأن تبرر نفسها فى كل حالة ولا بأن تثبت بصفة مستمرة أن القوى التى تعارضها لن تقدر على إبطالها ، كما أنها بصفة دائمة تقريبًا - تأتى متوافقة مع معتقدات دينية أو شبه دينية تمكنها من أن تزعم أن كل من يعارضها شرير وسيئ . ومن هنا فإنها تستطيع أن تستند إلى الرأى العام بدرجة تفوق كثيراً ما هو متاح لقوى الثورة أو عوامل التغيير .

نحن إذن نأخذ هذا فى اعتبارنا ، بل نقول أنه هو تفسير الاستثناءين اللذين جئنا لهما فيما سبق ، وهما أن أمريكا اللاتينية أكثر انتماء لممارسات المجتمع الصناعى من اليابان ، رغم أن اليابان تسبقها وتعلو فوقها بكثير كقوة صناعية وهى تعد الآن رائدة فى العلوم والتطور الصناعى ، بينما شعوب أمريكا اللاتينية متخلفة عنها بكثير بل ولا نظن أنها ستصبح نداً لها فى أى وقت فى المستقبل بحكم الفقر والتضخم السكانى . ولكن النشاط الاقتصادى يظل العامل الرئيسى فى تطور الإنسان ، كفرد وكمجتمع .

مقطوع من شجرة :

يطلق المصريون هذا التعبير على من يظهر كغريب فى بلدة دون أن يكون له أقارب معروفون ، فهل هذا قدر الإنسان؟ يمكننا أن نقسم العالم إلى شطرين :

– الجانب الذى يقود تيار المعرفة ثم التطبيق التكنولوجى والتقدم الصناعى وارتفاع مستوى المعيشة وربما الخروج من "الكوكب الضيق الملوث" ، تصاحب ذلك فلسفات جديدة ودرجات غير مسبوقة من حرية الفرد الآدمى وانتفاء الأسرة . لا يمنع هذا من نشوء الحركات الراديكالية كالدرب المضىء فى بيرو وشوكو أساهرا فى اليابان وفرق عديدة فى الولايات المتحدة وكندا وسويسرا ، الانتحار الجماعى وعلى طريقة جماعة أبواب السماء وغير ذلك، . . .

– على الجانب الآخر : الصناعة ومنتجاتها ، والممارسات الاجتماعية التى تتطور بتأثيرها تصدم مجتمعات العالم الثالث ، الشباب يقلدون شباب الغرب عندما يقدرون ، ولكن الغالبية تعانى من الحرمان المادى والمعنوى واليأس من المستقبل ، الطامعون فى السلطة يستغلون أحاسيس اليأس والغيرة فى السيطرة على الجموع باستخدام الشعارات المألوفة : العدالة الاجتماعية (الاشتراكية بأنواعها) . الطموحات القومية (البطل المعبود الذى يتحول إلى طاغية) الفضيلة والقيم الأصولية وملحقاتها.

...والمعرفة والفنون

من لا يعرف الرياضيات ، لا مكان له هنا

أفلاطون ، في لافتة على باب أكاديميته

(٣٨٥ ق . م)

إن الطبيعة مكتوبة بحروف رياضية ، وأسرارها لا تنكشف إلا لعالم بالرياضيات ... نظامها هو في صميمه نظام ماتيماطيقى .

يوهانس كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠)

العلم خلق ثان بواسطة الذهن ، كما أن الرسم خلق ثان عن طريق الخيال .

لوناردو دافنشى (١٥٤٢ - ١٥١٩)

كل بنى الإنسان يتطلعون بحكم طبيعتهم إلى المعرفة.

أرسطو : الميتافيزيقا (حوالى٣٤٦ ق .م)

كل ما لدينا من علم ، قد يكون بدائيًا وطفوليًا إذا قيس بالحقيقة ، ولكنه يظل أثمن شىء لدينا

ألبرت اينشتاين (١٨٧٩ ــ ١٩٥٥)

حدود المعرفة

شاهدت كما شاهد غيرى من الناس ، الكثير من الأعاجيب المحيرة التى يحفل بها ما يسمى "جلسات استحضار الأرواح" ، منضدة ترتفع فى الهواء وسلة تصدم واحداً من الحاضرين عقاباً له على مقولة مثيرة للغضب ، والأكثر من ذلك : أحاديث أجريتها مع أحبائى من الراحلين ، بنفس أساليبهم ومنطقهم وبذات مشاعرهم وأفكارهم ، بل وتلقيت منهم - ومن غيرهم - أموراً من خبايا نفسى لم أبح بها لأحد فى حياتى ، وياله من أمر مخيف ! إلا أن هذا كله لم يكن كافياً لأن أقتنع بشىء من هذا كله ، وقلت لنفسى إن عجزى عن تفسير هذه الظواهر ، وعن تفسير أى شىء آخر، لا يدل إلا على أن هناك حدوداً لقدرتى ، وأن هذا فى ذاته لا يلزمنى إلا بالاقرار بذلك ، دون أن أكون بمقتضاه مضطراً لأن أقبل أى تفسير يأتى به شخص آخر هو نفسه خاضع لنفس هذه الحدود بحكم كونه آدمياً مثلى مهما فاقنى فى العلم والتجربة. وقلت لنفسى أيضاً أن هناك أكثر من تفسير ممكن لهذه الخوارق ، من أدرانى أن الكشف عن خبيئة نفسى لم تكن هى ذاتها مصدره ؟ أننى أنا الذى "فضحت" نفسى دون أن أدرى ؟ وإن المحادثات مع أرواح الراحلين لم تكن سوى دراما من تأليفى ، وعندما قرأت بعد ذلك عن أفكار كارل يونج وغيره فيما يتعلق باحتمالات تشارك البشر فى أفكارهم الباطنة ، زاد يقينى بأن أموراً كالتخاطر وغيره تكفى لتفسير هذه الظواهر إن كانت - أى هذه الظواهر - حقيقية ، أو على الأقل تعطى احتمالات لا تضطرنى ولا تضطر غيرى أن يصدق أن أرواح الموتى يمكن أن تتحاور معنا أو أن تكون مصدراً لمعرفة الغيب ، وعندما قرأت أيضاً عن التجارب المريرة التى أجراها باحثون مثل الشاعر الأيرلندى ييتس ، الذى تزوج وسيطة روحانية لكى تفتح له باب "شياطين الشعر" ، ازددت

اطمئنانًا إلى ما أسميته "اليقين بعدم اليقين" ، وأعجبتني مقولة الفيلسوف الأمريكي البراجماتي وليم جيمس : "بعد خمس وعشرين سنة من البحث في هذا الموضوع أيقنت أنه يبدو أن الخالق لا يريد لنا أن نعرف شيئًا عن ثقة بشأنه" ، ثم أضفت من عندى هذا التساؤل : بالله عليك ! - هكذا قلت محدثًا نفسي - لو أن معرفة خفايا الأمور متاحة لنا عن طريق الاتصال بأرواح الموتى ، أما كانت أجهزة الاستخبارات توفر على نفسها وعلى حكوماتها هذا الثمن الباهظ الذى يتحمله دافعو الضرائب ؟ وخصوصًا فى أزمنة الحرب ، لماذا لا تلجأ القوى العظمى إلى هذا الطريق السهل المضمون وتطلب من أرواح قتلاها على الأقل أن تعطيها نبذة عن أمور من نوع مواقع الحشود والإمدادات ... إلخ ؟

إلا أننى وقعت منذ قريب على مقال فى مجلة عالمية جعلنى أشعر أننى بإضافتى هذه قد أفسدت قضيتى وعدت باليقين إلى موقع الشك ! أمتعتنى هذه المقالة وأضحكتنى ولولا ضيق المقام لنقلتها للقارئ كاملة ! فالواقع أن القوى العظمى - وعلى رأسها الولايات المتحدة وغريمها الاتحاد السوفيتى ، أو روسيا كما هى الآن - لا تكف أجهزتها حتى هذه اللحظة عن بذل المحاولات - والملايين - من أجل اختصار الطريق إلى عالم الأسرار الدنيوية ! وعلى رأس هذه الأجهزة تلك الوكالة العتيدة التى دأب الناس فى كل أنحاء العالم على أن يعزوا إليها كل ما يحدث فى الكون ، من سقوط الحكام إلى سقوط الأمطار ، وأصبحت العمالة لها هى التهمة التى يلحقونها بأى كائن آدمى يريدون إهانته ! نعم ، وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ، والتى كانت هى نفسها ضحية لجواسيس من العاملين فيها يبلغون أسرارها لنظيرتها فى موسكو مما أدى إلى إعدام فرقة من الجنرالات وكبار رجال الدولة هناك ، من المتعاونين مع الوكالة ! ترى أين كانت الأرواح من الجانبين

بينما كان هذا يجرى ؟ وقد كان الاتحاد السوفيتى السابق - برغم المادية الجدلية والفلسفة القائلة بأن حقائق الحياة كلها قابلة للمعرفة بوسائل العلم التجريبى - هو نفسه مسرحًا للبحوث الطائلة فى هذا المجال المشوق ، بل وقد قرأت مرة أن واحدة من كبيرات زعماء الحزب ألقت خطابًا فى واحد من المؤتمرات الكبرى وأرادت أن تقيم الدليل على ما تقوله ، فروت أن روح الزعيم لينين جاءتها فى المنام وقالت لها ... إلخ .

تروى المقالة الممتعة أن الكونجرس الأمريكى كلف لجنة علمية من جامعة كاليفورنيا بالبحث حول حقيقة أن أجهزة الاستخبارات أنفقت عشرين مليون دولار أمريكى ، دفعتها كأتعاب للروحانيين الذين طلبت منهم معلومات متفاوتة، في نطاق مشروع حربى اسمه الكودى "ستارجيت" ، على وزن "ووترجيت" و"ايران جيت" ... إلخ ، من معلومات عن أسرى الحرب المفقودين في فيتنام إلى أماكن وجود شخصيات معينة فى ليبيا أثناء التحضير للغارة الجوية عليها سنة ١٩٨٦ . كل هذاحدث فى عصر الرئيس ريجان الذى يبدو أن ولعه بالنجوم كان يتمثل فى كل شيء من "حرب النجوم" التى تمثلت فى خطابه الذى اشتهر بهذا الاسم ، إلى أعمال التنجيم واستطلاع البخت التى كانت زوجته تمارسها بدأب واستماتة . وتذكر المقالة أن الوكالة كانت تضم بين العاملين فيها ثلاثة "مستشارين" يتقاضى كل منهم راتبًا يصل إلى نصف مليون دولار سنويًا، لكى يدلهم على أمور مثل الموضع الذى تخفى فيه منظمة الألوية الحمراء ضابطًا كبيرًا فى قيادة حلف الأطلنطى كانوا قد اختطفوه . يقول واحد منهم أن طريقته هى أن "أغمض عينى وأبعد كل شيء عن ذهنى ثم أتصور الموقع وأرسمه على الورق" وقد كانت الإجابة فى تلك الحالة هى أن المكان "بيت مبنى بالحجارة وله سقف أحمر" وهو وصف ينطبق على أغلب المنازل السكنية فى كل أنحاء إيطاليا .

سقف المعرفة

تحت هذا العنوان ، كتب الدكتور محمد كامل حسين :

"لكل معرفة سقف لا تستطيع أن تعلو عليه ،وهذا السقف تحدده القوانين التى يخضع لهاصاحب المعرفة" - ثم "موقف الإنسان من القوانين التى هى أعلى منه لا يختلف عن ذلك فى شىء . فهو يعلم بوجود هذه القوى العلياولكنه لن يفهم منها إلا ما هو إنسانى ، وهذا هو بالضبط ما فعله الإنسان فى معرفته بالله . فهو على يقين من وجوده ، ولكن فهمه لصفاته تعالى لا يمكن أن يكون إلا مقيداً بما هو إنسانى وما فوق الإنسان يعد بالنسبة له ميتافيزيقيا" .

كان المرحوم الدكتور كامل حسين أستاذًا عالميًا فى الجراحة ورائداً طليعيا من روادها ، وكان قارئًا نهمًا فى كل فروع المعرفة ومفكرًا وأديبًا ، وكانت تربطنى به صداقة ، صداقة القارئ بالكاتب فى الواقع فقد كان يكبرنى بنحو أربعين عامًا وكنت أكاتبه وأباحثه ، ومازال عندى واحد من خطاباته الطويلة يقول فيه "وتقول أن سقف المعرفة عند الإنسان متحرك ، وأنا أقول أنه متحرك إلى أسفل ! فلست أظن أن الإنسان قد عرف شيئًا عما يعلوه منذ أن بدأ يفكر فى نفسه وما حوله" .

كان كلا القولين مجازيًا بالطبع ، فالذى قصدته من أن السقف متحرك هو أننا قد نستطيع أن نضع حدوداً لقدرة الكائنات الذكية على المعرفة ، أما الإنسان فقد اختصه الخالق بقدرات يتزايد اكتشافه لها بمضى الزمن ، وبذلك فلو أنه استطاع أن يلج آفاقا أو ميادين جديدة فإن هذا قد يدفعه إلى أن يحدد "مواصفات" جديدة لحدود معرفته حتى ولو كانت قائمة طيلة الوقت قبل أن يتوصل إلى اكتشافها . أما الذى قصد إليه كامل حسين فهو أنه بينما تتزايد معرفة الإنسان بحقائق الكون فإن هذه المعرفة قد انتقلت من

الحيوان إلى المادة غير الحية ، ومن هذه إلى الجزىء المكون للمادة : ثم إلى الذرة ، ثم إلى الجسيمات التى تتكون منها الذرة ، وهذا هو ما يعرف حقًا باسم "الفيزياء الجسيمة Particle physics" ، وهكذا . ترتيب الكائنات هذا موضوع قديم طبعًا ، تجد طرفًا منه فى رسائل تبادلها أبو العلاء المعرى مع داعى دعاة الفاطميين فى مصر فى أواخر عمر المعرى ، مقتصرة طبعًا على الإنسان والماشية ، وكان المعرى فيها يدافع عن نباتيته . ولكن الدكتور كامل حسين يأتى بها فى أحد مؤلفاته تحت عنوان "نظرية هيرارشية القوانين" يعنى الترتيب الهرمى لقوانين الوجود ، نزولاً إلى الكائنات الدنيا ثم جسيمات الذرة مما لم يكن معروفًا فى الزمن القديم . وقد ثارت معركة عنيفة فى الصحافة المصرية إذ ذاك عندما نسب العقاد هذه النظرية إلى فيلسوف أسترالى يدعى صمويل ألكسندر ودخل فى النقاش زكى نجيب محمود أيضًا ، رحمة الله عليهم جميعًا . وفى رسالة كامل حسين إلىّ مضى يقول: إن المعرفة محدودة بتكوين الإنسان ، أما الكون ، فإنه قد يكون – وقد لا يكون – غير محدود . ثم فى مقالة له – وثيقة الصلة بما نحن فيه – عنوانها "علمان ضالان ، الكيمياء القديمة وعلم النفس الحديث" ، نجده يعزو ضلال الكيمياء القديمة إلى كونها علمًا يبحث فى المادة مفتقرًا إلى وسائل التجريب التى تمكن الباحث أن يتحقق من صدق ما يقول به من العلاقة بين المتغيرات والتى تظل مجرد تفكُّر Speculation إلى أن تجرى التجارب مرة بعد مرة ، ونفس الشيء يصدق على علم النفس الحديث فهو نظريات غير قابلة للتحقق بالتجريب ، وفى ظنى المتواضع فإنها تلحق بفروع الفلسفة وهى بذلك ليست علمًا بمعنى Science ، ومن الفلاسفة – وعلى رأسهم برتراندراسل – من يرى أنه حتى فروع الفلسفة التى لا تستند إلى أساس من المنطق ، والمنطق عنده هو "الماتيماطيقا" ، تظل

مجرد خواطر "تعطينا منظومات تفتح آفاقًا رائعة للخيال" – هكذا يقول ، ثم يضيف "إن الدوافع الأخلاقية والعقائدية برغم ذلك تظل عقبة فى طريق تقدم الفلسفة ، وعلى كل من يسعى إلى فلسفة صادقة أن يشيح بها جانباً، وعلى الفلسفة أن تستمد الوحى من العلم التجريبى دون غيره – كلمة "التجريبى" هنا من عندى فى الواقع ، آتى بها لمجرد أننى لا أعرف كيف استخدم كلمة "العلم" بمعنى Science وليس كما فى المثل السائر "العلم بالشىء ولا الجهل به" . هذا الذى يقول به راسل ، ما الفلسفة وما العلم وأيهما يقود الآخر وإلى أين هو موضوعنا الذى ندعو الله أن نستطيع على الأقل أن نطرق بابه .

البقاء للأعلم

إذا كان لدى الإنجليز مثل سائر يقول أن الفضول كلّف القطة حياتها ، فهو قد كلف العديد من عظماء البشر – مثل سقراط وبرونو – حياتهم أيضًا وكلف رجالاً مثل جاليليو وفولتير وديديرو أقداراً متفاوتة من الأذى والشماتة ، بل إنه حتى القرن العشرين – الذى لم ير التاريخ مثيلاً له فى قيمة المعرفة وحرية التعبير عنها وعن الآراء والعقائد – طرد برتراندراسل من وظيفته فى الجامعة ودخل السجن مرتين ، لا لفعل أتاه بل لمجرد كلام كتبه .

منذ اللحظة التى يخرج فيها الجنين من بطن أمه ، يبدأ الإحساس بالفضول ، ولذلك أسموه "الحيوان المتسائل" . عالم معاصر فى الجينات ، كتب يقول :

"أسلوبنا فى الحياة دائم التطور ، تغيرنا كثيراً فى المائة ألف سنة الأخيرة، بل تغيرنا أكثر فى المائة سنة الأخيرة ، ولكن تكويننا الجسمانى يبقى كما هو ! نحن لسنا فى حاجة إلى الانتقاء الطبيعى بحيث لا يبقى منا إلا من

رقبتهم أطول أو حركتهم أسرع ، نحن لا نتغير لأن الآلات والمجتمع يتغيران نيابة عنا . سوف تنظر إلينا الأجيال التالية فى دهشة لما نحن فيه من تخلف، ولكنهم سيكونون نفس النوع ، مثلنا .هذا لأن التطور البيولوجى عند الإنسان لا يتمثل فى كيانه أو تكوينه ، بل فى قدراته الذهنية ومعارفة وتطبيقاتها » .

بل إن الأمر قد يكون عكس ذلك . أغلب الناس يشكون من آلام الظهر والرقبة لأنهم لا يستخدمون أجسامهم فى أمور معيشتهم كما هم مخلوقون! والإنسان الحديث لابد له أن يجرى فى الطرقات والحدائق لكى لا يتوقف قلبه بفعل الراحة الأبدية !

المعرفة إذن هى عدة الإنسان ،وحدوده هى حدودها . كان أرنست رينان هو الذى قال فى أواخر القرن الماضى ."سقراط أعطى الفلسفة للبشرية ، وأرسطو أعطاها العلم . كان هناك فلسفة قبل سقراط ، وعلم قبل أرسطو ، ولكن كل شىء قد انبنى على الأسس التى وضعاها . قبل أرسطو كان العلم جنينا ، وقد ولد على يديه" .

وأظن أنه إلى أرسطو يرجع الفضل الأكبر فى إعفاء الآلهة من مسئولية ما يقع فى الكون من أحداث ، وإعفاء الكهنة أيضًا من مسئولية البحث عن أسراره . إلا أن زمنًا طويلاً كان لابد أن يمضى قبل أن يبدأ عصر الاكتشاف العظيم بعد أرسطو بما يقرب من ثمانية عشر قرنًا ! ربما بتأثير الحروب وسيادة البرابرة من نوع الرومان وأمثالهم ، وربما لأسباب ضلال العلوم التى يذكرها كامل حسين . وحتى عصر التنوير ، أى القرن الثامن عشر ، كانت المعرفة تنتمى بأكملها لدنيا الفلسفة ، حتى كتاب نيوتن ، الذى ظهر سنة ١٦٨٧ ، والذى يعد حتى الآن أخطر وأهم كتاب منفرد بذاته فى الفيزياء ، كان عنوانه – وهو باللاتينية : "فيلوسوفيا ناتور اليس برنكبيا ماتيماتيكا" .

إلا أنه كان فى هذا الوقت أن بدأت كشوف العلم التجريبى تتوالى لتثبت للفلاسفة أن الأمر قد بدأ يخرج من أيديهم وأن أفكارهم لم تعد سوى مجرد تأملات غير قابلة للتحقق لأنها لاتستند إلى أساس ماتيماطيقى . فقبل ظهور كتاب نيوتن بعشر سنوات ، كان عالم الفلك الدانمركى "رومر" قد اكتشف أن الضوء له سرعة قابلة للقياس ، معنى هذا أن الكون الذى نراه هو ما كان منذ زمن ، وليس كما هو الآن . نحن نرى الشمس كما كانت منذ ثمانى دقائق ونرى بعض المجرات كما كانت منذ ملايين السنين .ثم بعد نيوتن بمائتى سنة بالضبط جاء واحد من أخطر الاكتشافات فى دنيا المعرفة على يدى عالمين هما مايكلسون ومورلى ، وهو أن سرعة الضوء لا علاقة لها بالمصدر الذى ينبعث منه ولابالزاوية التى يقاس منها ولا بسرعة الكوكب الذى يقف عليه من يجرى عملية القياس ! أنت عندما تسقط جسمًا من نافذة قطار فإنه لا يسقط إلى الأرض بل يمضى متحركًا بسرعة القطار إلى أن يسقط بعد فترة ، فقط أنت لا تلحظ ذلك لأنك تكون قد ابتعدت . إلا الضوء ! ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت الحياة تبدو لنا شيئًا مختلفًا تمامًا عما هى الآن ، تصور جسمين يتحركان فى الفضاء ، أحدهما فى اتجاهنا والآخر مبتعداً عنا ، ثم يتصادمان ، لو كانت سرعة الضوء - والذى قد يكون جسيمات تسمى "فوتونات" ، وقد يكون موجات ، الله أعلم ! - لو كانت تختلف باختلاف مصدره لكنا نرى أحد هذين الجسمين يتوقف وينفجر ثم الثانى وهو يقترب من موقع الانفجار وينفجر بدوره دون أن يبدو لنا أن هناك علاقة بين الحادثين .إلى هذا الحد نحن فى حاجة إلى المعرفة العلمية قبل أن نعتنق مذاهب كالمادية أو المثالية أو الواقعية أو الأنا وحدية (السولبسية) . . . إلى آخر هذه القائمة الطويلة .

١٩ ، ٢٠

إذا كان القرن الثامن عشر هو عصر التنوير ، فإن هذين القرنين يحق أن يسميهما المؤرخون عصر الاكتشاف الأعظم .ولاشك أن العلم التجريبى قد انتزع ريادة المعرفة من الفلسفة خلال هذين القرنين ، وحقق كشوفًا لابد لها أن تحدث تحولاً عظيمًا فى أفكار الفلاسفة ، وهذاهو ما يجعل واحداً من كبار علماء وفلاسفة هذا العصر - مهندس الطيران لودفيج فتجنشتاين - يقول أن مهمة الفلسفة من الآن فصاعداً سوف تقتصر على تحليل اللغة . هذا لأن اللغات التى نتكلمها ونكتب بها لم تعد تصلح إلا للتعبير عن نفسها وعن قيمها الجمالية والأخلاقية ، وعن فروع المعرفة التى لا تدخل - عند أمثاله من أصحاب الوضعية المنطقية - فى نطاق الفلسفة كما يعرفونها أو يعرّفونها . قد يكون هذا الرأى مشوبًا بشىء من التطرف ، وهو - أى فتجشتاين - كان شخصًا متطرفًا ومهووسًا ، وكان دائمًا يعد اللغة أكبر مشكلة فى طريق الفكر الإنسانى .

وقد شاهدت بطريق الصدفة شريطًا سينمائيًا بالغ التفاهة ، ولكنه يحوى مشهداً قصيراً تأثرت به ، برغم أنه كان مقصوداً به أن يكون مضحكًا ، أو هكذا خيل إلى . لم أعد أذكر ، اسم هذا الفيلم ولكنه كان قصة عالم فيزيائى أمريكى فى زيارة لجمهورية ألمانيا الديمقراطية ، أى ألمانيا الشرقية ، لحضور مؤتمر علمى ، وللتجسس أيضًا . وكان مصحوبًا بسكرتيرته التى هى أيضًا خطيبته (ياللتفاهة !) كان يقوم بدور العالم الممثل الأمريكى الشهير جداً بول نيومان ، وهو دائمًا البطل الشجيع التى تكفى ابتسامة واحدة منه لتقطيع أصابع نساء الدنيا كلها ، ولا يليق به أبداً أن يؤدى دوراً كهذا ، أما الأنثى المصاحبة له فكانت جولى أندروز ، كروان صوت الموسيقى ، ولم يكن لها أى لزوم فى هذه الحبكة الفارغة . المشهد

الذى أعجبنى كان نقاشًا حادًا بين نيومان ونظيره الألمانى ، كانا يقفان أمام سبورة وكل منهما يمسك بطباشيرة ، هذا يصيح : الأمر هكذا . وينهال على السبورة بعلامات التكامل والمعادلات التفاضلية ، والثانى ينفعل ويصبح به : لا ، هذا خطأ ، إنه هكذا . وينقض هو أيضًا عليها بتحليلات فورييه ومعادلات تيلور وغير ذلك من الأمور التى يرى أغلب الناس أنها صداع لا تستقيم الحياة إلا بإعدامه ، بينما يرى آخرون - مثل برتراند راسل - أن كل ما فى الدنيا من جمال يتمثل فيها . يبدو أن أسرار الكون والحياة لا يمكن التعبير عنها بالكلمات ، بل بهذا ! إذا كنت تريد أن تعرف حقيقة ما يدور فى جلسات الأرواح والتنجيم وما إلى ذلك ، فعليك ألا تتوقع إلا إجابة من هذا النوع ، لأن أسرار الكون لا يمكن التعبير عنها ولا التوصل إليها إلا بهذه "اللغة" .

هناك ثلاثة من العلماء يتربعون على عرش المعرفة العلمية ، نيوتن ، ثم أينشتاين ، ثم ستيفن هوكنج ،خليفة نيوتن فى كامبريدج وصاحب الكتاب الخطير "البنية الواسعة النطاق للفضاء زمن" ، وهو كتاب للراسخين فى العلم . إلا من له كتاب آخر لعامة الناس عنوانه "تاريخ موجز للزمن" ، قد ترجم هذا الكتاب إلى أربعين لغة وقرأت منذ عهد قريب أن عدد النسخ المباعة وصل إذ ذاك إلى نسخة لكل ٧٥٠ من سكان كوكب الأرض . ومع هذا فهو يروى فى مقدمة الكتاب أن الناشر نصحه بالأ يورد أى معادلات رياضية فيه ، وأن معادلة واحدة ستكون كفيلة بخفض مبيعات الكتاب إلى النصف ! ويضيف أنه لن ياتى إلا بواحدة فقط هى معادلة أينشتاين الشهيرة : الطاقة تساوى الكتلة فى مربع سرعة الضوء ، ويرجو ألا يكون وجودها قد أحدث الأثر الذى حذره منه الناشر (ونحن هنا نأتى بها دون رموز لكى لا نلقى نفس المصير) .

والظاهرة الكونية التى طلع بها العالم وهى "الثقوب السوداء" ، لم يتمكن أحد حتى الآن من رؤيتها أو رصدها ، هناك فقط ظواهر كونية تشير إليها بدرجة أو أخرى ، ولكنها - حتى الآن - لا تتأتى إلا بالمعادلات الرياضية التى تنبنى على تصور - أو حساب - عواقب انطباق النجوم على نفسها نتيجة لتغلب قوى الجاذبية من مركز النجم ، على قوى التمدد الناشئة عن حرارة الاحتراق النووى ، بعد أن بدأت هذه الحرارة تخبو الذى يحدث هو أن هذا الانكماش الهائل يؤدى إلى سحق ذرات المادة ونشوء منطقة مظلمة فى الفضاء لا تزال تحتفظ بقوة جذب فظيعة تجعل حتى شعاع الضوء الذى يقترب منها يغوص فى أعماقها ولا أحد يعرف عنه شيئًا بعد ذلك . إلى أن يذهب أى شىء يسقط فى هذه الفجوة ؟ إنه يظهر فى كون آخر لا نحس به لأنه يعيش زمنًا آخر ، سكان هذا الزمن سيرون شيئًا غريبًا يعجزون عن تفسيره ، "يوفو" ، طبق طائر ؟ زوارمن الفضاء ؟ الأمر بشبه انتزاع زر فى معطف مطر ، مما يحدث فيه فجوة تتسرب منها المياه إلى نسيج القميص ...

ليس معنى هذا أن العلم التجريبى هو الحقيقة . بل إن الحقيقة قد لا تكون متاحة لبنى الإنسان فى كوكب الأرض إلا على هيئة فكرة بعد فكرة . قوانين نيوتن كانت تبدو صحيحة حتى ظهور النظرية العامة للنسبية سنة ١٩١٥ ، بل ومازالت حتى الآن أساسًا لجميع الحسابات الهندسية والتكنولوجية . نحن نعرف الآن ما يلى مما يخالفها تمامًا ومما لابد أن يكون له أكبر الأثر على أفكار الفلاسفة ، وإن كان التمادى فى الكشوف العلمية مازال يؤدى بالعلماء إلى الغوص فى أعماق الفلسفة :

- "الكتلة" عند نيوتن هى كمية المادة ، وهى ثابتة . نحن نعرف الآن أن سرعة الحركة تزيد من الكتلة .

- الفضاء ليس فراغًا مطلقًا يشبه حوض أسماك الزينة ، الذى تعلوه ساعة حائط تدق بانتظام مطلق لا شأن له بأى شيء آخر ! الفضاء بدأ مع الزمن وينتهي معه ، والكون له بداية وله نهاية ، هذا الكون الذى نعرفه قد يكون واحداً من عدد لا نهائى من الأكوان !

- الفضاء آخذ فى التمدد ، وحجمه يزيد بمعدل ٥ - ١٠٪ كل ألف مليون سنة . وهو ليس مطلقًا وليس لا نهائيًا . كل شيء فيه يتحرك ولا توجد نقطة أصل لقياس إحداثيات أى موقع فيه ، وهذه الإحداثيات نفسها آخذة فى التغير ، وهى أربعة ، رابعها الزمن وهو مستمر فى التغير هو أيضًا بالطبع . ولا يمكننا أن نرجع إلى أى مكان كنا فيه بأكثر مما يمكننا أن نرجع إلى لحظة عشناها . والأجرام السماوية ليست أجسامًا سابحة فى هذا النسيج من الفضاء زمن ، بل هى وثيقة الارتباط به ، مجرد وجودها يؤدى إلى انبعاج أو التواء هذا النسيج . ولما كان كل شيء يتحرك فإنه عندما يقترب جسم من آخر فإن التواء الفضاء يجعله يغير مساره متجهًا نحوه ، وهذا هو ما كنا نظن أنه قوى الجاذبية . نيوتن أسماها الجاذبية وجعل لها قانونًا معروفًا وصحيحًا تمامًا من الوجهة العملية ، ولكن اينشتاين رأى أنه لو كان هناك تأثير متبادل بين الأجسام هو الذى يحدث الجاذبية وهى تتغير لحظيًا مع استمرار الحركة ، فمعنى هذا أن هذا التبادل يمضى بسرعة لا نهائية ، ولكن لا شيء يتحرك بسرعة لا نهائية ، أقصى سرعة هى سرعة الضوء ، وأى جسم يتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء سوف يتوقف الزمن بالنسبة له ، ثم يرجع إلى الماضى .هذه الأمور ليس مسموحًا بها إطلاقًا !

- "الكوانتم" كلمة لاتينية معناها "الكم" ، هذه الأبحاث فى سلوك الجسيمات التى تتكون منها ذرات المادة تؤدى إلى ظهور درجة من العشوائية أو تنفى موضوع الحتمية من دنيا المادة تمامًا! وبرغم التحقق من

هذه النظرية بالتجربة، وبرغم تجارب أجريت على نظرية النسبية أيضًا مما لم يظهر أى شيء يتناقض معها ، فإن هناك تناقضات بين هاتين النظريتين والكوانتم يؤدى إلى ما يسمى "مبدأ عدم اليقين" الذى لا تنطوى عليه النسبية .

- يتصف الكون المحيط بنا بأرقام أساسية ، منها مثلاً حجم الشحنة الكهربية للإلكترون ، والنسبة بين كتلتى البروتون والإلكترون ، وغير ذلك، أرقام ثابتة وحقائق كلها تأتى بالملاحظة والقياس فقط ، لو أنها كانت شيئًا مختلفًا عن ذلك ، لما كان يمكن للنجوم أن تنفجر مؤدية إلى خلق الكواكب التى يمكنها إيواء الحياة كما نعرفها الآن ، يقول هوكنج "إن أرقامًا أخرى لهذه المكونات كان يمكن أن تؤدى إى نشوء ألوان قد تكون رائعة الجمال دون أن يوجد من يمكنه أن يحس بالعجب لجمالها ! أما أن هذا هو الدليل على وجود إرادة الهيئة فى خلق الكون وصياغة قوانينه ،وأما أنه هوالأساس لما يسمى : المبدأ الأنثروبى ، أى المبدأ القائل بأن الكون وجد من أجل الحياة، وأن الحياة وجدت لكى يظهر الإنسان .

نحن لسنا بالطبع فى سبيل البت فى هذه الألغاز ، بل إننا لسنا على ثقة من صحة الاستدلالات التى تأتى من وراء هذا كله ، الذى يعنينا هو :

(١) لم تعد هناك إمكانية ولا مبرر لتفكير فلسفى "لا يستمد الوحى من العلم التجريبى دون غيره .

(٢) ليس هناك طريق إلى العلم ولا لغة للتعبير عن حقائقه ولا أساس منطقى لممارساته ، سوى أرفع درجات الماتيماطيقا . لأنه حتى التجارب من نوع ما يجرى باستخدام معجلات الجسيمات accel-erators والتى تساعد على استكشاف حقيقة المادة ، نتائجها لابد من معالجتها برياضيات بالغة التعقيد بالنسبة للفرد العادى .

اليقين ... بعدم اليقين !

الحاضر والماضي يكمنان في المستقبل
والأزمان كلها يستحيل استرجاعها
إن الذى كان يمكن أن يكون ، ليس إلا المجرد
الذى يظل احتمالاً أبديًا
فى عالم لا وجود له ... إلا فى خيالاتنا ...
ت . س . اليوت . : "بيرنت نورتون"

يقول لنا هوكنج : "لكى نتناول هذه الأمور ، يجب أن يكون واضحًا لنا ما هو المقصود بعبارة : نظرية علمية . إنها مجرد نمط للكون يقوم على عدة قواعد تربط الكميات الواردة فيه بنتائج ما تدل عليه الملاحظات والتجارب .وهى توجد فى عقولنا فقط ، ولا يمكننا إثباتها . وقد أجريت فعلاً تجارب عديدة على النسبية والكوانتم ، لم يحدث أنها جاءت بما يثبت خطأ هذا أو ذاك . فهل يكفى هذا لإثبات صحتها ؟ كانت قوانين الجاذبية عند نيوتن هى تفسيره أو ترجمته لظواهر الحركة والسكون فى هذا الجانب منها ، وكانت النظرية العامة للنسبية هى تفسير أينشتاين لنفس هذه الظواهر ... فقط لا حيلة لنا إلا ... كما يقول راسل :

"لقد دأب الفلاسفة على الاعتقاد بأن قواعد المنطق التى تقوم عليها الماتيماطيقا هى التى تحكم تفاعلاتنا الذهنية . مثل هذا الاعتقاد خليق بأن يحط من قيمة الفكر ويسلبه روعته وكرامته ، لأنه – بدلاً من أن يجعله بحثًا عن الجوهر الخالص لكل الأشياء ، حقيقية كانت أو ممكنة – يؤدى به إلى أن يصبح تحقيقًا فى أمور بشرية بدرجة أو بأخرى ، وبالتالى فهى محدودة بحدودنا خاضعة لقدراتنا . إن الرياضيات تمتد بنا إلى ما وراء

البشرية ، إلى نطاق الضرورة المطلقة التى تنتمى إليها لا مجرد الدنيا الفعلية، بل كل دنيا أخرى قابلة لأن توجد . إن الرياضيات ليست فقط مستقلة عنا وعن أفكارنا ، بل إننا – من وجهة نظر أخرى – نحن والكون كله ، مستقلون عنها . إنه فقط عندما ندرك هذا جيداً ، سوف يمكننا أن نحس بما لديها من جمال وروعة .

إن لفضيلة الزهد والارتقاء بالنفس قوة عجيبة تعلو فوق قوة أولئك الذين لم تتطهر نفوسهم بالفكر والمعرفة . هذه القوة هى التى يمكن أن تتحقق بها سلامة الحياة المعنوية والأخلاقية ، من أجل إضفاء النبل والسمو على أى فكرة أو شعار يسود عصراً أو أمة . من بين هذه الفضائل ، حب الحقيقة هو الذى يقف شامخاً فوق كل اعتبار آخر ، وأنه فى الرياضيات ، أكثر من شىء آخر ، تكمن فى هذا الحب طاقة تحث ما قد تدهور من إيمان . إن كل دراسة عظيمة ليست غاية فى ذاتها فحسب ، بل هى أيضاً وسيلة لخلق عادة التفكير النفاذ ، المتسامى ،والاحتفاظ بها »

إلى اليوت مرة أخرى :

"لن نكف أبداً عن استكشاف المجهول
وغاية كل ما نصل إليه
هى أن نجد أنفسنا فى الموضع الذى بدأنا منه
ونراه ، كأنما لأول مرة . . ."

"ليتل جيدنج"

الفنون والنوع الإنسانى

"ظنوا فى حيرتهم أن الشعر العصرى هو وصف المخترعات الحديثة من بخار وكهرباء وطيارات وأمثال ذلك من آلات ناطقة وصور متحركة ومعجزات لهذا العصر الحديث لم يتقدم بوصفها المتقدمون، فقلنا لهم : لا . . . لو كان هذا هو الشعر لوجب على كل شاعر أن يظل على اتصال بالمصانع تنفحه بالكتالوجات . ."

عباس العقاد :

"ساعات بين الكتب" (١٩٢٩)

"ليست الفلسفة ضرورية فى تكوين الشاعر العظيم ، ولم يكن هوميروس يعرف فلسفة ، وحتى إن كنا نريد من الشاعر أن تكون له فلسفة، فليس معنى ذلك أن نلزمه بقراءة الفلسفة ،فالفلسفة شيء والشعر شيء آخر، ولم يكن شكسبير ولا فيكتور هوجو ولا دى موسيه ولا غيرهم ممن قرأ له شوقى فلاسفة . ونحن نعرف أنه ليس من مهمة الشاعر أن يعبر عن الفكر . . ."

د / شوقى ضيف :

"شوقى ، شاعر العصر الحديث" (١٩٦٣)

"لكل شاعر كبير فلسفة للحياة، أو فهم لها على وجه من الوجوه ، وهذه هي مزية الشاعر الكبير على الشعراء الصغار ... فإذا قرأت عشرين شاعرًا كبيرًا ، فأنت أمام عشرين نسخة من الدنيا ، أو أمام عشرين مثالاً لها كل منها مخالف لغيره مستقل عنه في طريقة تمثيله . لأن الشاعر الكبير يشعر بكل شيء حوله ، فما من مظهر ولا مخبر إلا وله موقع من قلبه وصدى في ضميره» .

عباس العقاد :

"ابن الرومي ، حياته من شعره (١٩٥٨)

"هل يمكن أن نجد خلفية فلسفية لكل شعر حقيقي ولكل أدب عظيم؟ إن الأمر لا يحتاج إلى دراسة عميقة لكي نؤكد هذه الحقيقة ، كما أن تأكيدها لا يعطينا الحق في تحويل الشعراء والأدباء العظام إلى فلاسفة ! ولكن نظرة واحدة إلى إنتاج من ذكرنا الآن من الأدباء والشعراء تبين لنا أن في كل أدب عظيم فلسفة ، وفي كل فلسفة عظيمة أدباء وليس من الصعب أن تعثر في النقد الغربي – وإلى حد أقل في النقد العربي – على أعمال تبرز المعادل الفلسفي لإنتاج كبار الشعراء والأدباء" .

د / عبد الغفار مكاوى :

"شعر وفكر" (١٩٩٥)

لنكتب شعراً يعيد الحياة
لفنّ أذيق العدمْ
بمفهومه ، مثلما كان منذ القدمْ !
to rsesuscitate the dead art
of poetry . to maintain the sublime
in the old sense .
عزرا باوند

أين امـرؤ القـيـس والعـذارى   إذ مـال من تحـتـه الغـبـيطُ ؟
اسـتنبط العُـرب في البـرارى   بعـدك ، واسـتـعـرب النبـيطُ

أبو العلاء المعرى : لزوم ما لا يلزم

أجـزنى إذا أنشـدت شـعـراً فـإنما   بشـعـرى أتاك الآخـرون مـردَّدا
ودع كل صـوت غيـر صـوتى ، فإننى   أنا الصـائح المحكىُّ ، والآخـر الصـدى

أنـا الذى نـظر الأعـمـى إلى أدبى   وأسـمـعت كلمـاتى من به صـممُ

أبو الطيب المتنبى :
مخاطباً سيف الدولة ، أمير حلب

عندما كنت طالبًا بالمرحلة الثانوية ، كانوا يقولون لنا أن الأدب يتأثر بثلاثة أشياء : البيئة والثقافة والحكم . لا أدرى ما إذا كان أبناؤنا (وأحفادنا !) مازالوا يتلقون الآن هذه المقولة ، خصوصًا بعد أن اختلف مدلولها عما كان فى ذلك العهد البعيد ، وبعدأن أصبحت كلمة "البيئة" لا توحى إلا بعدد "الأجزاء فى المليون" من الأكاسيد الكربونية ومركبات الرصاص التى تنتشر فى الهواء الذى نتنفسه نحن وأبناؤنا وأحفادنا .

أما الثقافة والحكم ، فقد اتحدتا على هيئة كائن أخطبوطى الأذرع ديناصورى الحجم يسمونه "الإعلام" ، بهمزة تحت الألف !

"الحكم" ، يقابل أنظمة الحكم والإدارة فى تعريفنا للحضارة الإنسانية . والثقافة - بمفهومها إذ ذاك - تشمل المعرفة والفنون (لم يكن لها مفهومها الواسع النطاق الذى يجعلها الآن تشمل الحضارة كلها ، وهو ما سنأتى له)، يتبقى لنا كلمة "البيئة" ، وهذه كانت إذ ذاك وصفًا لكل أحوال المعيشة ، ويمكننا أن نجعلها تنسحب على كل من النشاط الاقتصادى ، وأحوال المعيشة ، والمواثيق الأخلاقية .

قصارى القول ، أن الأدب مرآة للحضارة . والمجتمع الذى يزدهر فيه الأدب - مثل المجتمع الروسى قبل الثورة البلشفية والمجتمع الألمانى لغاية فرار توماس مان من سطوة النازى - المجتمع الذى تزدهر فيه الآداب والفنون هو المجتمع الذى "صحته كويسة" ، لماذا ؟

ما الأدب ؟ وما الفن ؟

أسئلة عويصة بعض الشىء ، محاولة الإجابة عليها أعطت للبشرية مكتبات بأكملها ، تقرؤها فتستمتع بها إذا كنت مهتمًا بالموضوع ، ولكنك قد لا تصل فى النهاية إلى إجابة تجدها كافية ، وذلك لأن الموضوع يتعلق بنا نحن البشر ، ونحن لسنا أرقامًا تتمثل فى جدول الضرب ولسنا أملاحًا

تتفاعل فى أعماق أنبوبة الاختبار ، . . . حتى الآن !

كان أرسطو - أو لعله كان - أول من وضع "تعريفًا للتعريف" . بمعنى : كيف نصوغ تعريفًا للأشياء وللأفكار ؟ هذا علمًا بأنه كثيرًا ما يؤدى تعريف الأشياء والأفكار إلى أن تزداد غموضًا واستعصاء على الإدراك . فقط لا بأس من المحاولة . يقول أرسطو أن تعريف الشيء هو وضعه فى فئة يشترك معها فى بعض خواصه ، ثم إظهار الخواص التى يختلف فيها عن بقية الأعضاء . فالكتاب مثلاً شيء ، ينتمى لفئة .. فئة ماذا ؟ وسائل المعرفة ؟ وسائل الاتصال ؟ صحيح هذا ، ولكنه أيضًا نوع من "البضائع" فهو يباع ، فقط هذا سيجعله عضواً فى فئة متطرفة فى الاتساع ، ونحن نهدف إلى التحديد لا إلى التمويه . حسنًا ، هو إحدى وسائل الاتصال كالرسائل أيام كانت وسيلة ناجعة ، أما الآن فهو يشترك مع الصحف والإذاعة والتليفزيون بما فى ذلك المحمول ... بماذا يتميز عنها ؟ إنه ورقى لا إلكترونى ، وأنه مطبوع ،وليس مكتوبًا باليد ، كان كذلك أيام كانوا ينسخونه يدويًا ، وهكذا .

بنفس الأسلوب ، ما الفن ؟ (بوصفه يحتوى الأدب)

الفن نشاط أو عمل . (الفن نفسه ليس لوحة ولا تمثيلية ولا قصيدة ، هذه هى أشكاله) ، فهو إذن عضو فى فئة الأنشطة ، شأنه شأن الزراعة والتجارة والصناعة ، فيم يختلف عنها ؟ هذه تهدف - بصفة أساسية ، ونكرر : أساسية - إلى توفير الغذاء والكساء والمسكن وأدوات المعيشة والراحة ، أما الفن ، فيهدف - بصفة أيضًا أساسية - إلى توفير المتعة الجمالية .

ها نحن نعود من جديد ، ماذا يعنى متعة جمالية ؟

الجمال ، ما هو ؟ إنه "الخاصية" أو "الصفة" ، فى الأشياء والأفكار ،

التى تجعلنا نشعر بلذة غير حسية . إنها تشبه اللذة التى تأتى من تناول الأيس كريم ، ولكنها ليست هى . نحن لا نعرف لماذا نرى الجمال فى مشهد طبيعى كبحيرة تحيط بها الخضرة ، أو فى وجه حسناء مثل نفرتيتى أو ليلى علوى ؟ ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة مهما وضعنا من مقاييس للشعور والأنوف ، خصوصاً إذا عرفنا أن مقاييس الجمال قد تطورت مع تطور الإنسان ، وقيل فى تفسير ذلك أن جمال المرأة - بصفة خاصة -كان يختفى بتأثير السرعة الفائقة فى إشباع الرغبة الجنسية ، التى كان "يحظى" بها الرجال فى الأزمنة القديمة ، لأن انقضاء الوقت فى اشتهاء المرأة - كما كان الحال مع قيس بن الملوح وابن زيدون فى غرام الأول بليلى والثانى بولادة - هو الذى يشحذ خيال الرجل ويجعل أشواقه وآلامه تتحول إلى قصائد ، ثم فيما بعد ، إلى لوحات كالجيوكندا عند ليوناردو ، فى دنيا الواقع - وأفروديت عند بيجماليون ، فى دنيا الخيال ، وقد كانت مقاييس الجمال الأنثوى فى الحضارات القديمة - والتى ما تزال تتمثل فى القبائل التى تسكن أعماق أفريقيا وأمريكا اللاتينية واستراليا وجنوب الباسفيك - كانت مقاييس خاصة بكل تأكيد ! كانت المرأة التى لها خصر واضح تعد قبيحة ومنفرة ! فالجسم الجميل يكون أسطوانياً متسق الأبعاد ، قطره يزيد على المتر ، وإذا سارت المرأة يكون تحت إبطيها صبيان يحافظان على توازنها، وإذا جلست فإنها لا تنهض إلا إذا أخذت تزحف حتى تجد منحدراً تهبط ساقاها إليه ، ويقاس جمال الجسد بالدقائق التى تنقضى أثناء مرورها من فتحة فى الخيمة أو الجدار ، ابتداء من الحافة الأمامية للصدر أو البطن (وللعلم ، فإن وصول الثديين إلى أسفل البطن هو أيضًا من علامات الحسن) ولغاية خروج الحافة الخلفية للردفين ، وهما فى حالة كهذه ينبسطان إلى الخلف فيما يشبه سطح منضدة ، وعرض هذه الحافة مقياس

فى حد ذاته . أما الوجه والآذان والشفاه والرقبة ، فتشق فيها الفتحات وتغرس الأجسام الصلبة من أجل تضخم موضع أو آخر ، ثم تزال هذه لتفسح مكانًا لمرحلة تالية تستخدم فيها قطع أكبر حجمًا ، من المعادن أو الزلط حتى يتحول الوجه إلى كاريكاتورى يحسدهم عليه صاروخان ومصطفى حسين، وفى دراسة أنثروبولوجية ليست بعيدة ، سئل زعيم إحدى قبائل الهنود الحمر ، أى نسائه تعجبه أكثر ؟ فقال إنه لم يفكر فى هذا من قبل ، فالنساء كلهم سواء ! مقاييس الجمال إذن - خصوصًا فى المرأة - تتطور بتطور مفاهيم الناس رجالاً ونساء ، ولغاية "قصر الشوق" عند نجيب محفوظ نجد ياسين يلمح امرأة تمشى كالهودج ، فيلتهب خياله ويسائل نفسه وقد تملكه الافتتان بها : كم قنطارًا تزن يا ترى ؟!

ولكن الفن يبقى شيئًا لازم الإنسان منذ وجوده . ويقال أنه قد يكون عرف الرقص والغناء قبل أن يتكلم ! فالصيحات التى كان يطلقها أثناء الصيد ومعها أصوات الحيوانات والطيور علمته بدائيات الرقص ، وأن أشكالها علمته فنون الرسم التى ترجع إلى ما قد يتجاوز خمسين ألف سنة! أما الآن فما يزال الحس بالجمال مقياسًا لكل مقدرات المجتمع ومدى صلاحيته للبقاء كحضارة . وقد يكون الشعر أرخص الفنون جميعًا ، ولا يلزم الشاعر سوى حنجرته ، وحتى الآن ما يزال شبان الشعراء فى بلد مثل إنجلترا ، يقفون فى ماربل آرش فى هايد بارك لينشدوا أشعارهم ويجمعوا نوعًا من البقشيش ممن يستمعون إليهم ، هم والموسيقيون طبعًا ، فى الطرف الآخر نجد اللوحات والتماثيل وغيرها من الفنون التى لا تزدهر إلا فى المجتمعات الغنية . الحقيقة النهائية هى أن انحطاط اللمسة الجمالية هو أصدق دليل على التخلف والتقاعس ، والافتقار إلى الحس الجمالى ، وإذلال المرأة ، هاتان الخاصيتان تكفيان لتعريف المجتمع المتخلف ، وهو بكل تأكيد

سيكون مجتمعًا غير قادر على الدفاع عن نفسه ، لأن القوة الحربية هى محصلة جميع إمكانات المجتمع ، وهى فى عصر التكنولوجيا ، متكاملة ومترابطة ، حلقة واحدة تسقط تؤدى إلى انهيار الجميع ، وحتى إن وجدنا فى عصور التاريخ قوى حربية اتصفت بها شعوب غير متمدينة ، كالتتار مثلاً ، أو العثمانيين ، فإن هذه القوى لم تلبث أن انهزمت فى النهاية، فضلاً عن أن هذا كان فى عصور سابقة للتطور التكنولوجى .

... طيات المستقبل

عمر الإنسان

"سوف نمضى فى طريقنا إلى أن نضع رجلاً فوق القمر، ونجد علاجًا للسرطان والزكام ..."

مايلز كوبلاند : "لعبة الأمم" (١٩٦٧)
فى آخر فصل فى الكتاب ، وعنوانه :
والأغلب ، أنك ستأتى لنهاية محزنة"

تدعو بطول العمر أفواهنا ... لمن تناهى القلب فى ودّه
يسرّ إن مُدّ قضاء له ... وكل ما يكره فى مدّه

أبو العلاء المعرى :"سقط الزند"

يعيش فى جبال القوقاز عدد من الشعوب : أرمن وأزربيجان وجورجيان وشيشان وداغستان وروس وصقالبة من أنواع أخرى ، وتشتهر المنطقة بالمعمرين الذين يدعى بعضهم أنه عاش مائة وخمسين سنة وأكثر . وقد تناولت بحوث عديدة هذه الظاهرة أيام الاتحاد السوفيتى ، منها دراسة قام بها عالم الأحياء الروسى المنشق : زوريس ميدفيديف، وانتهى إلى أن الكثير من هؤلاء المعمرين لم يسجلوا كمواليد وأن الحالات التى اطمأن إلى صحتها ليس بينها من يزيد عمره على ١١٢ سنة . (إذا استمرت هذه الحروب فلن يعيش أحد لأى عمر !)

ليس تجاوز المائة أو الاقتراب منها أمرًا نادرًا على الإطلاق ، فقد عاشت روز كينيدى (أم جون وروبرت) (١٠٢) سنة ، برغم المآسى المروعة التى عانتها، وفى آرلية بفرنسا عاشت عجوز أقام وزير صحة فرنسا عام ١٩٩٥ احتفالاً ببلوغها (١٢٠) سنة ، وقد أعلنت إذ ذاك أنها قد أقلعت عن التدخين الذى مارسته لما يزيد على قرن كامل : وهكذا فإنه لا يبدو أن المعاناة من الحزن أو العادات الضارة يمكن لأى منهما أن يكون بمفرده عاملاً حاسمًا فى المسألة . وقد عبر الباحثون الروس عن ذلك بنكتة كنا نسمعها من الخبراء الروس أثناء عملنا معهم ، مؤداها أن فريقًا من الباحثين عثروا على واحد من أعجز المعمرين وأخذوا يستجوبونه بشأن أسلوب معيشته . شرح لهم أنه قضى هذا العمر الطويل فى استقامة تامة ، لا تدخين ولا خمر ولا إفراط فى الطعام ، يصحو مع شروق الشمس وينام مع غروبها ، ويقطع الأميال كل يوم على قدميه . انقطع الحديث عندما سمعوا ضجة كبرى فى الخارج وتساءل الباحثون عنها فقال لهم المعمر : اعذرونى هذا أخى الأكبر يأتى إلى البيت كل ليلة فى حالة سكر بيّن وهو يقضى كل أمسياته فى الحانة يشرب ويدخن ولم نستطع أن نقنعه بأن يقلع عن حياة العربدة .

كان برنارد شو من أكثر المفكرين اهتمامًا بطول العمر وإيمانًا بأنه يأتى من احترام الجسد والعناية به ، وكان نباتيًا زاهدًا فى الملذات الجسدية وله مسرحية عنوانها "العودة إلى ميتوشالح" - إشارة إلى ما ورد فى سفر التكوين من العهد القديم ، من أن هذا النبى من أنبياء بنى إسرائيل قد امتد عمره إلى ٩٦٩ سنة كان "شو" يتمنى أن يتم المائة ولكن حلمُه لم يتحقق ومات فى سن (٩٤) ، بسقطة أصابته بكسور حددت نهاية عمره . وكان "برتراند راسل" يوشك أن يتم التاسعة والتسعين عندما وافته المنية ، وكان قد تنبأ بأنه سيموت فى التسعين ، وأعد لنفسه نعيًا أصبح بعد ذلك من

أشهر كتاباته ، وفى سنة ١٩٨٦ مات فى اليابان رجل يدعى "ايزومى" ، كان هو أيضًا قد أتم مائة وعشرين . إلى منتصف القرن العشرين كان الكثيرون يموتون فى أعمار مبكرة بفعل أمراض القلب والحميات ، ثم جاء اكتشاف المضادات الحيوية والتقدم فى جراحات القلب المفتوح وعلاج امراضه وتشخيصها المبكر ، فادى هذا إلى تزايد كبير فى متوسطات الأعمار، خصوصًا فى البلاد المتقدمة فى البحوث وفى الخدمة الصحية . وتدل الإحصاءات فى هذه البلاد على تزايد كبير فى أعداد البشر الذين تخطوا سن (٨٥) ، وفى الولايات المتحدة مثلاً ، وعلى مدى ثلاثين سنة من ١٩٦٠ - ١٩٩٠ ، قد تزايد تعداد السكان بنسبة ٣٩٪ بينما تزايد العجائز بنسبة ٢٣٢٪ ، ويتوقعون أنه بحلول سنة ٢٠٤٠ سيصل عدد من تجاوزا المائة إلى رقم مدهش ، يقدره البعض بمليون ونصف بينما يرى آخرون أنه قد يصل إلى أربعة ملايين . إلا أنهم يطمئنون أنفسهم بأن الذين يتجاوزون سن (٨٥) هم ذوو البنية الصلبة الذين لا يحتاجون إلى قدر كبير من الرعاية الصحية ، بعكس ما قد نتصور ، وأن أمراض القلب والسكتة المخية تحدث أكبر أثر فيمن هم بين الخمسين والثمانين من الرجال ، وأكثر من ذلك بعشر سنوات عند النساء ، وأن احتمال حدوثها يتضاءل عند من تخطوا التسعين . كيف يتأتى ذلك ؟ يقول برتراند راسل : إذا أردت عمرًا طويلاً ، عليك بأن تحسن انتقاء أبويك ، هذا فى إشارة واضحة إلى أن المتغير الأساسى فى الموضوع هو الجينات الوراثية ، هذا علمًا بأنه عاش عمرًا طويلاً بينما ذهب أبواه فى طفولته . وتدل الإحصاءات على أن متوسط أعمار النساء يفوق نظيره فى الرجال ، ولكن احتمال الحياة فوق سن المائة يتحسن عند الرجال ، فهم يبلغون ٢٠٪ ممن أتموا المائة . ثم ٤٠٪ ممن أتموا مائة وخمسًا .

علامات على الطريق

يرجع وجود الإنسان على كوكب الأرض إلى زمن يقدر الآن بمليونين إلى ثلاثة ملايين سنة . بينما يستمر العلماء فى تعديل هذا الرقم حسب ما يتوصلون إليه من فحوص جديدة تستخدم فيها وسائل تكنولوجية آخذة فى التطور . كائنًا ما كان الأمر فإن متوسط طول عمر الإنسان فى الزمن القديم يقدر بأنه كان عشرين سنة ، وهو ما لا يكفى حتى لإتمام التعلم والاستعداد للحياة . بمجيء العلم والثورة الصناعية تحسنت الأمور تدريجيًا، ففى بداية القرن العشرين كان هذا الرقم - فى الغرب الصناعى - قد أصبح (٤٧) وأصبح الآن (٧٦) ، ففى سنة ١٩٠٦ اكتشف العلماء أنواع الفيتامينات وآثارها ، ثم جاء وباء "الانفلونزا" الشهير فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فأباد ملايين تفوق ما تسببت فيه الحرب - ثم فى ١٩٢٨ جاء اكتشاف "البنسلين" وفى ١٩٥٥مصل "شلل الأطفال" - ثم تطور فن الجراحة واتخذ أبعادًا لم يكن يحلم بها أحد .

فقط ، إلى أين يمكن أن يمضى بنا هذا كله ؟

إطالة العمر حتى المائة ؟ أكثر قليلاً ؟ أكثر كثيرًا ؟ وما مدى إمكان ذلك؟ نحن نأتى إلى هذه الدنيا ونجدها "منظومة فيزيائية وبيولوجية لها قوانين من صنع الخالق سبحانه وتعالى ، نحن أنفسنا جزء من هذه المنظومة ، وجودنا وتكويننا يأتى طبقًا لقوانين الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا التى تحكم كل شيء فى هذا الكون ، من أضخم المجرات إلى أصغر جسيمات الذرة ، وأجسامنا هى ذاتها مكونة من دقائق ذرات المادة ، ولعل ظهور علم "المايكروبيولوجيا" هو أول حلقة فى إدراك الخلية الحية على أساس من المكونات الجسيمية الدقيقة للمادة الصماء . إذا كانت هذه القوانين هى التى تسود كل شيء فى الكون فقد يمكن بها أن نوقف هذا التفاعل بل ربما نعكس اتجاهه أيضًا .

حلم قديم ، دارت حوله قصص وروايات ومسرحيات ، بعضها على المسرح كما فى مسرحية توفيق الحكيم "لو عرف الشباب" ، وبعضها تمثيليات على أرض الواقع ، ففى سنة ١٨٨٩ طلع باحث فرنسى يدعى "شارل سيكوارد" ، كان إذ ذاك فى الثانية والسبعين ، طلع على العالم بزعم أقام الدنيا وأقعدها ، مؤداه أنه قد استرد شبابه بتعاطى مزيج من خلاصات مستمدة من فئران التجارب وخصى الكلاب ، وأن "آياته" تتلخص فى تزايد قواه الجسمانية والعقلية ومنحنى اندفاع الماء من مثانته . ثم فى أواخر الخمسينيات من هذا القرن ، ثارت زوبعة مماثلة عندما أعلنت طبيبة رومانية عن عقار يعيد الشباب أسمته هـ - ٣ ، ولم يقل لنا أحد شيئًا عن "هـ - ١" و "هـ - ٢" ، كان اسمها "آنا أصلان" ، وتلقفتها إحدى صحف القاهرة ولعبت دورًا هائلاً فى تجسيم الخرافة (وربما فى تجسيم مبيعاتها أيضًا) وعندما اعترض عليها واحد من كبار أساتذة طب الغدد فى ذلك الوقت ، انهالت عليه الصحيفة ونشرت له صورة وهو ينحنى ليقبل يد الدكتورة .

إلا أن هناك شواهد تدل على أن الكثير مما يقال عن تطويل الأعمار ليس مجرد خرافات أو ادعاءات ، وأن علماء الجينات والمايكروبيولوجى قد غاصوا إلى أعماق بعيدة داخل الخلية والجزئ وعرفوا الكثير عن أسرار الحياة كما خلقها الله

الهِرم ، ماهو ؟

كل ما نعرفه نحن "العاديون" عن الهرم هو أن أجسامنا تضعف ورءوسنا تشيب ، إلى أن تحل بنا إرادة الله وتحين آجالنا . وفى الكتاب نجد زكريا يناجى ربه إحساسًا بدنو أجله : "ربِّ إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا" .

وقد خاف المتنبى من الشيب قبل أن يدهمه :

تسوّد الشمس منا بيض أوجهنا　　ولا تسوّد بيض العذر واللّمم

وكان حالهما في الحكم واحدة　　لو احتكمنا من الدنيا إلى حَكَمِ

وكان مايزال يافعًا عندما غاظه ظهور خيوط رفيعة من الشيب فى جانبى رأسه ، وصفها بأنها أسود من الظلام :

ضيف ألمّ برأسى غير محتشم　　السيف أحسن فعلاً منه باللمم

أبعد بعدت بياضًا لا بياض له　　لأنت أسود فى عينى من الظلم

ولكنه عاد فعرف أن الله حق :

خُلقتُ أَلُوفًا ، لو رجعت إلى الصبا　　لفارقت شيبى موجع القّلب باكيًا

ولكن القرن العشرين جاء بكشوف كثيرة عديدة . فشيخوخة الرجال تأتى مصحوبة بعلامات نمطية ، فالذاكرة تأخذ فى الانحدار منذ سن العشرين فصاعداً ، وبينما تظل المهارات اللغوية كما هى ، فإن استرجاع البيانات من خزانة المخ يستغرق وقتًا أطول ولا يتحقق النجاح فيه دائمًا . الإبصار يضعف بسبب فقدان عدسة العين لمرونتها ثم تراكم البروتينات المتحدة مع المواد السكرية ، والذى يحدث العتامة التى نسميها المياه البيضاء ، وهذه المركبات الصمغية تؤثر أيضًا على المفاصل وتصعب حركتها ، وعند الرجال يتساقط شعر الرأس وما يتبقى منه لا ينمو بنفس السرعة . طبلة الأذن تزداد ثخانة مما يضعف السمع والقدرة على تمييز الحروف ذات الترددات العالية. جدار الصدر يتصلب مما يجعلنا لا نأخذ أنفاسًا عميقة تمامًا ولا نتخلص منها كلية ، ويلى ذلك أننا لا نحصل على قدر كاف من الأكسجين وبذلك تنخفض القدرة على بذل الجهد الجسمى إلى أن تصل فى السبعين إلى نصف ما كانت عليه فى العشرين . تتضاعف أيضًا كمية الدهون المترسبة ونسبتها إلى الوزن الكلى وتتأثر الدورة الدموية

بذلك مما يؤثر على القدرة الجنسية ، والتى يصيبها مزيد من الضعف بسبب انحدار نسبة هورمون الذكورة عند الرجال . العضلات تنكمش وتضعف والعظام تفقد صلابتها ، وعند النساء بصفة خاصة تصبح العظام هشة إلى درجة خطيرة وتجعلها تنكسر لأدنى صدمة ، ويأتى ذلك من عوامل عديدة على رأسها نقص هورمون الأنوثة المسمى "استروجين" ، وقد قامت فى الغرب موضة تعاطى الاستروجين مما أدى بنساء فوق السبعين إلى التعرض للحمل ، وابتدعت الصحف شخصية نسائية أسموها "دورين جراى" ، تنويعًا على قصة أوسكار وايلد "صورة دوريان جراى" التى تدور حول شخصية شاب بالغ الوسامة ، رسم له صديقه الفنان المفتون بجماله لوحة تظهر مفاتنه ، ومضى الفتى يغرق فى ملذات الحياة دون أن يظهر فعل الزمن على وجهه اكتفاء بإحداث أثره فى صورته ، وهكذا فإن "دورين" وهو الصورة المؤنثة لهذا الاسم ، ترمز للمرأة المتصابية، لا باستخدام الأصباغ والأدهنة ، ولا حتى عمليات التجميل ، بل من الداخل ، باستخدام التعويض كما يسمونه فى الطب ، سد النقص فى الهورمونات والذى يأتى من توقف أجهزة الجسم التى تنتجه إعلانًا عن توقف جهاز الإنجاب عند الأنثى . ترى هل يؤدى هذا إلى إطالة أعمار النساء واستردادهن لشبابهن ؟ أو أن العبث بأمور كالتوازن الهورمونى قد يؤدى بهن إلى ما لا يحمد عقباه، وهو ما لا ينكر الأطباء احتمال حدوثه حتى وهم يحقنون زبائنهم بإكسير الأنوثة ؟ وهو ما أدى بواحدة من الطبيبات الباحثات من اللاتى هن فى تلك المرحلة من العمر ، إلى أن تتساءل : ولماذا أكافح من أجل البقاء فى مرحلة من العمر لا أنتمى إليها ، بدلاً من أن أستمتع بتلك التى أنا فيها ؟ كائنًا ما كان الأمر ، لدينا هذه الحقائق : منذ الثامنة من العمر يبدأ مُخ الأنثى فى بث الإشارات التى تؤدى إلى إنتاج هرمون الأنوثة ، وعندما تصل

إلى سن (١١) أو (١٢) ، يتزايد هذا الإنتاج ويمتد هذا حوالى ربع قرن من الحياة ثم تبدأ مرحلة الذبول ، مصحوبة بجفاف الجلد والشعر واضطراب فى الدورة الشهرية ، ثم تأتى أعراض انقطاع الدورة وأعراض أخرى معروفة منها ضعف الذاكرة وهشاشة العظام ، كل هذا يتحسن كثيراً بتعاطى الأستروجين محقوناً أو على هيئة "لطع" أو أقراص ، يؤدى العلاج أيضاً إلى احتمال الإصابة بسرطان الثدى وسرطان الرحم بنسب متفاوتة ولكنها خطيرة ،ويقولون إن هذه النسب يمكن خفضها بتعاطى هورمون "بروجسترون" المخلق .

علامات على الطريق

نحن نعيش على هذا الكوكب ، وبالتالى فإن أجسامنا لا تعدو أن تكون واحدة من مكونات البيئة . ورغم كوننا أعظم معجزة من معجزات الخلق ، ورغم امتيازنا بكل ما نمتاز به عن بقية الكائنات من عقل وحكمة وقدرات ذهنية ويدوية ، فإن بقية الكائنات – على مايبدو – لا تريد أن تقر لنا بذلك . بل إنها لا ترى فينا سوى مصادر للغذاء ومجالات للتوالد والتكاثر ، إنه حتى أدنى أنواع جراثيم العفونة تغزو أجسامنا ونحن أحياء ناهيك بما يجرى لها بعدأن نموت ، وتقبع فى الثنايا المظلمة الرطبة ، ناعمة بالدفء والغذاء . ومازالت الأوبئة إلى يومنا هذا تحصد الملايين من البشر ، تقتلهم أحط أنواع الجراثيم التى تستعصى على الدواء كلما تناهت فى الصغر ، كما يموت الناس بفعل أمراض غير جرثومية ، على رأسها أمراض القلب والأورام الخبيثة (والتى قد تكون ميكروبية ونحن لا ندرى) – وقد ظهر كتاب "ابن سينا" فى الطب المعنون "القانون" فى القرن الحادى عشر وظل هو المرجع المعمول به فى أوربا حتى القرن السابع عشر ، وهو طب

"امبيريقى" بالطبع لا يقوم على أسس من العلم بأسباب المرض بل على مجرد ظواهر مألوفة لها وصفات "بلدية" بكل معنى الكلمة . ثم بدأ الطب يعتمد على علوم التشريح ووظائف الأعضاء ، ثم فى أواخر القرن التاسع عشر جاء الكشف العظيم على يدى "لوى باستير" الذى تمكن من صنع مصل يقى من فعل جرثوم "داء الكلب" أو "الهايدروفوبيا" ، منذ ذلك الحين والكشوف تتوالى والقفزات العظمى تتحقق . حتى أوائل القرن العشرين كان متوسط طول العمر فى بلد كالولايات المتحدة يصل إلى ٤٧ سنة ثم زاد بمقدار ٢٩ سنة ليصبح الآن ٧٦ ، وذلك بفضل كشوف علمية هائلة حفل بها هذا القرن . ففى سنة ١٩٠٦ جاءت نظرية الفيتامينات ، ثم فى سنة ١٩٢٨ اكتشف "ألكسندر فليمنج" أول نوع من المضادات الحيوية وهو "البنسلين" . ولم تعد الحميات سبيلاً شبه مضمون إلى الوفاة ، وعلى رأسها "حمى النفاس" التى تعقب الولادة وكانت تهلك ربما نصف النساء بعدها أو أثناءها . ثم فى سنة ١٩٥٥ جاء مصل "سولك" الشهير الذى كسر شوكة شلل الأطفال الشهير والذى أصاب "فرانكلين روزفلت" فى شبابه وأقعده ، طيلة حياته بعد ذلك .

نعم ، هناك كشوف عظمى قد تحققت ، ونحن فى الطريق إلى ما قد يكون علاجًا لطاعون العصر "الإيدز" ، وربما السرطان أيضًا ، الذى هو فى الواقع حوالى ٢٠٠ مرض تشترك كلها فى هذا الاسم ، فقط لا أحد يعرف ما إذا كانت هذه هى نهاية الحرب بين الإنسان والمرض ، وإلى أى حد يمكن لهذه الانتصارات أن تطيل عمر الإنسان .

والعجيب فى الأمر – كما يقول واحد من كبار الباحثين فى البيولوجيا تحت عنوان الجنس والموت – إن الموت ظاهرة تقتصر على المخلوقات الجنسية، أى التى تتكاثر عن طريق ممارسة الجنس . أما الحيوانات ذات الخلية

الواحدة،كالأميبا مثلاً ، والتى تتوالد بالانقسام ، فهى لا تموت ، لأنها تظل تنقسم والذى يموت منها لا يعدو أن يكون جزءاً منها ، وما يتبقى يظل حيًا ينقسم إلى كائنات جديدة وهكذا ، لاتموت إلا فى "الحوادث" ، أما نحن فنموت بفعل الشيخوخة . والشيخوخة لا تعدو أن تكون عملية بيوكيميائية . كل ما يلزمنا أن نكتشف أسرارها ونوقفها أو نمنعها . عندئذ لن يقتصر الأمر على مجرد إطالة العمر ثلاثين أو خمسين سنة ، أو حتى بضع مئات من السنين ، بل ربما يمكننا أن نقضى على مسألة الموت هذه نهائيًا ، نحن نأتى إلى هذه الدنيا ونجد شيئين لم يصنعهما الإنسان أولهما قوانين الكون : الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ، حقائق الإلكترون والنيوتون ومكونات الذرة ،ثم قوانين الجزئيات التى تأتى من تفاعلات الذرات واتحادها مع غيرها أو انفصالها عنها ، هذه هى الكيمياء . ثم قوانين الكروموسومات ومكونات الخلايا من جينات الوراثة والأحماض الأمينية التى تتكون منها .

الشىء الثانى هو قدراتنا نحن ، وعلى هذا فإننا إذا اكتشفنا حقيقة ما يحدث ويؤدى بنا إلى الهرم ، فإننا نستطيع بكل تأكيد أن نعكس هذه العملية أو نوقفها ، مرة أخرى ، نحن لا نتحدث عن علاج الأمراض واستعاضة الهورمونات ، فهذه مجرد استراتيجية دفاعية ، نحن نتحدث عن استراتيجية إيجابية ، تصل إلى أبعد من هذا بكثير ، ونحن مانزال نستخدم قوانين الكون وموجوداته ، فى كتاب بعنوان وعود السوبر هورمون ، يقول المؤلف ، وهو طبيب متخصص يدعى "وليم ريجلسون" . إن الشيخوخة ليست عملية بيولوجية طبيعية ، إنها مرض . وبدراسة كل ما نبدأ فى فقده منذ سن الأربعين ، سيمكننا أن نعالج هذا المرض، بل ونعكس اتجاهه أيضًا .

وكما بدأت الهندسة الوراثية فى منتصف هذا القرن باكتشاف جزيئات

الحمض الأمينى الخلوى (د. ن . أ) والحلزون المزدوج الذى يحمل فى طياته جميع الصفات الوراثية للكائن الحى فى كل خلية فى جسمه ، فإن عصر أبحاث الهِرَم يؤرخ له من أوائل الستينيات عندما بدأ العلماء يتساءلون : هل الخلايا هى التى تهرم وتجر معها الإنسان بأكمله ؟ أو أنه كان يمكن للخلايا أن تعيش إلى الأبد لولا أن جسم الإنسان يتدهور ويجعلها تتدهور معه ؟ فى الحالة الأولى يتصور الباحثون أن الخلايا الآدمية تتغذى كما يتغذى كل شىء حى ، وبالتالى فإن التمثيل الغذائى تنتج عنه فضلات تتخذ شكل جزيئات أكسجين بها إلكترون واحد يزيد على ما يوجد عادة فى الأكسجين العادى ، يؤدى ذلك إلى إخلال بالتوازن الكهربائى يدفع بالجزيئات إلى أن تحاول أن تتحد مع جزيئات أخري منها جزىء الحمض الأمينى الذى يحدد الخواص الوراثية ، نتيجة ذلك هى اختلال تكوين الخلايا وظهور الخلايا السرطانية في الأثداء وغدد البروستاتا ، وإلى جانب ذلك : التهاب المفاصل وحدوث الثنايا والتجاعيد فى الوجوه والرقاب وغيرها من سطوح الجسم .

من هنا جاءت محاولات استخدام مضادات الأكسدة فى محاولة لتنظيف الخلايا من فضلات التمثيل الغذائى ، "كنس الخلايا" بعبارة أخرى. وقد بذل العلماء جهوداً هائلة لإجراء التجارب على خلايا آدمية جنينية وأخرى مأخوذة من آدميين من أعمار مختلفة ، يعاملونها كما لو كانت مخلوقات مستقلة ، ويجعلونها تنقسم وتتكاثر .

غير ذلك من الاحتمالات ما يزال موضع البحث . فالخلايا تحوى كروموسومات وهى عندما تنفصل فإن الكرومسوم يفقد جزءاً من الحلزون المزدوج الذى يعلوه والذى يشبهونه بالكبسولة التى تحمى طرف رباط الحذاء من التآكل ، وبتكرار هذه العملية مائة مرة مثلاً تفقد الخلايا قدرتها

على الانقسام وبالتالى تتداعى أنسجة الجسم والبقية معروفة . هل سيأتى يوم تنحل فيه هذه الألغاز ؟ وبالتالى ينتج نوع من الآدميين يعيشون أعماراً تصل إلى عدة قرون ؟ أو يعيشون إلى الأبد ؟ السوبرمان الحقيقى ؟ ويتحول المجتمع الآدمى إلى ما يشبه مجتمع الدوس هكسلى ؟ أو إلى ما يشبه خيال ويلز فى آلة الزمن هـ . ج ، حيث ينقسم النوع الإنسانى إلى فئتين إحداهما تتغذى على الأخرى ؟. إذا أردت أن تعرف الإجابة على هذا السؤال فعليك أن تعتنى بصحتك لكى تستطيع أن تمد أو تمط حياتك لحين التوصل إلى النتائج المرجوة ، وأيضًا توفر ما يكفى من المال لأن تنضم إلى فئة الدرجة الأولى وتنجو ،لا بجلدك فقط ، بل بكل شىء لديك . وهذه هى الطريقة .

استراتيجية الهجوم :

لابد للإنسان من ضجعة — لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عُجبه — ومـا أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى ، فما بالنا — نعاف ، لابد من شربه ؟

المتنبى

هل صحيح أن هذا لم يعد هو الحال ؟ وأن الأخيرة لم تعد قدراً إلا لمن لا يملك الوسيلة ؟ فقط إذا كان الموت هو الراحة من عناء الحياة فأيهما سيكون في راحة ، من يناله أم من يتحاشاه ؟ لم يكن الأمر سيحدث فارقًا مع المتنبى على أى حال ، فقد مات بالسيف لا "بغيره" ، وكان فى الثانية والخمسين ولو امتد به الأجل فلا يعلم إلا الله كم من درر الحكمة وروائع الشعر كان سيتركه لنا ، ونحن نتمثل بأقواله بعد أن مضى بألف عام .

ماذا عن السيف ؟ سيظل الناس ضحية العنف على الأقل . ماذا عن التلوث الصناعى والنفايات الآدمية التى ستأتى من البقاء الطويل وما

يصحبه من الاستهلاك والتناسل ؟ أسئلة نطرحها لأدباء الخيال العلمى ، خاصة وأنه - كما قد أصبح تجميد الأجسام أحد الوسائل التى يتبعها أثرياء العالم ليحافظوا على أوصالهم لحين أن يأتى يوم ... تمامًا كما فى "قاهر الزمن" عند نهاد شريف و أرثر كلارك ، وإيزاك أسيموف .

حسنًا ، سيصبح بعض الناس مثل البكتيريا لا يموتون إلا فى الحوادث والمواجهات الدامية ، كتلك التى ذهبت بنفس المتنبى . سوف ينتقل الإنسان الحديث إلى استراتيجية الهجوم ، لن يكتفى بأن يقف موقف الدفاع ضد الجراثيم والأمراض ، كم سيعطيه هذا ؟ مائتى سنة ؟ خمسمائة؟ قد تمكن العلماء من إطالة عمر ذبابة الفاكهة ، فما الفرق بين الإنسان والذبابة ؟

سمعنا من يقولون أنهم عادوا إلى الشباب عندما تعاطوا هذا العقار أو ذاك ؟! تجربتى الشخصية هى ما وصفه لى طبيب صديق ، كتب لى روشتة وأخذنى الحماس واشتريت زجاجة مستوردة ، وتعاطيت خمسة أقراص على مدى خمسة أيام ولست أعرف هل كنت أثناءها شابًا أم كهلاً ، وكيف لى أن أعرف وأنا أغط طوال الليل وأتثاءب طوال النهار ؟ وأخيرًا تخليت عنه لمن هو أكثر منى حرصًا على شباب غير متزامن كما يقولون . إننى لفرط عشقى للطبيعة ، أحب منها هذا التناسق البديع الذى تراه فى تدفق الجداول وخضرة الأشجار ، وزرقة البحر التى تمتد إلى الأفق البعيد . أريد أن أجد تجاعيد وجهى متفقة مع رمادية شعرى ، مع مايدور داخل رأسى ومع ما يقدر عليه جسمى . أريد أن آخذ ما هو مقدور لى من خيرها وشرها ، وأن أذهب عنها فى موعدى ، رافضًا لكل هذه التقاليع ، وأن أقول عنها ما قاله بشار بن برد عن محبوبته :

بعثت إلىَّ تسومنى ثوب الشباب وقد طويته

خفايا المستقبل

لو تخيلنا محادثة بين بطرس الأكبر وحامورابى ، سيمكننا أن نقول أن كلا منهما سيفهم الآخر بدرجة لا بأس بها ، ولكن أيًا منهما لن يستطيع أن يفهم واحداً من رجال المال والأعمال والصناعة فى عصرنا هذا" .

برتراند راسل : الحضارة الغربية

(حامورابى ملك بابل القديمة ٢٠٦٧ - ٢٠٢٥ ق . م

بطرس الأكبر قيصر روسيا ١٦٨٩ - ١٧٢٥م)

سيسال ناس ما قريش ومكة كما قال ناس ما جديسُ وما طسمُ

أبو العلاء المعرى : لزوم ما لا يلزم

ألم تكن مصر أكبر مركز لصناعة الكتاب العربى ؟ ألم يكن الناشرون الطيبون فى حى الأزهر يصدرون من المصاحف ما قيمته إذ ذاك خمسة ملايين من الجنيهات فى العام ؟ ألم نكن نطبع الكتب الأندونيسية والملاوية والأوروبية ونحتكر صناعتها فى العالم ؟ فكيف خبنا اليوم وأصبحنا عاجزين حتى عن طبع الكتاب العربى ؟

د . حسين مؤنس :

"باشاوات وسوبر باشاوات (١٩٨٤)

الشرق شرق ، والغرب غرب
ولن يلتقيا أبداً . .

ريارد كبلنج (١٨٦٥ - ١٩٣٦)

من قصيدة "أغنية للشرق والغرب"

"الزعماء قد يصنعون التاريخ ، ولكنهم لن يهربوا منه"

صمويل هانتجتون : "صدام الحضارات" (١٩٩٦)

"إن مفهوم التراث اليهومسيحي يقوم على تشارك اليهودية والمسيحية فى الكتاب المقدس ،فهما ديانتا هذا الكتاب ،وتشتركان في مؤازرة الوصايا العشر والاعتقاد بأن المخلص يسوع المسيح ولد يهوديًا . وهو مفهوم جدير بالاحترام ، إلا أنه كما حدث مع البروتستانتية الأمريكية، تحول إلى مسيحية صهيونية ، لتصبح عودة اليهود إلى فلسطين عصب الإيمان المسيحى بالعهد القديم، إذ أن نبوءات العهد القديم تتضمن أن اليهود سوف يعودون إلى فلسطين ويعيدون بناء الهيكل قبل المجيء الثانى للمسيح.

كما أن المسيحيين واليهود يتقاسمان الاعتقاد فى الإله "يهوه" (الرب اليهودى) . وفى أن المسيح والحواريين ولدوا يهودًا وعاشوا على ارتباط عضوى بالكنيست اليهودى" .

من مقالة بعنوان "المسيحية الصهيونية تتقدم"

للأستاذ رضا هلال ، فى أهرام ١٠ / ١١ / ١٩٩٧

طيات المستقبل

بيولوجيا - سايبرنطيقا - فضاء

منذ أكثر من ثمانين سنة ، كتب برنارد شو : "لا أحد يستطيع أن يفسر لماذا يعيش الببغاء عمراً يصل إلى عشرة أضعاف عمر الكلب أو أن السلحفاة تعيش إلى الأبد تقريبًا . أما الإنسان ، فإنه ، من وجهة نظر المدنية الرفيعة ، لا يمتد به الأجل بقدر كاف ... الواقع هو أنه ... يموت في طفولته !"

كان هذا في مقدمة مسرحيته "العودة إلى ميتو شالح" ، التي ذكرناها فيما سبق ، وهي من نوع الفانتازيا وتبدأ بآدم وحواء وتنتهي بفصل مستقبلي تقع أحداثه بعد عشرات الألوف من السنين . لا شك أن شو كان محدوداً في تصوراته إذ ذاك ، بحدود المعرفة التي كانت متاحة في عصره ولكن الكثير من تصورات الأدباء والمفكرين ماتزال تصويراً لآفاق المستقبل ، لا يبعد كثيراً عن الحقيقة التي تتمثل بعد ذلك . كان وصف جول فيرن لرحلة الإنسان إلى القمر لا يعدو أن يكون خيالاً ، ولكنه عندما تحقق منذ ربع قرن جاء مطابقًا لتصوراته إلى حد مذهل ، وكذلك كانت تصورات الدوس هكسلي لعالم من أطفال المعامل تبرز شيئًا مسليًا لا أكثر ، وأصبحنا نرى كل يوم ما يدل على الأقل على أن هذا شيء ممكن الحدوث ، وقد ولد منذ شهور قليلة في كاليفورنيا طفل من جنين احتفظ به أبواه ثماني سنوات في حالة "تجميد" ، إلى أن جاء الوقت الذي يريدانه ! أما دولي النعجة المستنسخة ، فسواء صح ما يقولونه من أنه ربما تكون الخلية التي استخدمها الباحث "اين ويلموت" في تجربته ، كانت خلية من جنين في رحم النعجة "الأم" ، سبحت في دمائها إلى أن أخذت من ضرعها ، أو كانت في الحقيقة خلية من خلاياها هي ، فقد وقع الاستنساخ فعلاً ، وسوف تظهر الحقيقة

على أية حال ، ولكن إمكانية الاستنساخ قد ظهرت فعلاً والفشل فى حالات أخرى كثيرة ليس دليلاً على استحالته ، وكما قال الفيلسوف الأمريكى وليم جيمس : إذا جاء أحدنا بغراب أبيض واحد فإن هدا يكفى لنفى مقولة أن جميع الغربان سوداء .

إلا أننا لسنا بسبيل الحديث عن إطالة العمر بجراحات القلب أو زرع الأعضاء ، حتى ولو كانت ستأتى من "نسخة" آدمية من المريض ، كائن بلا رأس يبقى حيًا وساخنًا فى انتظار الطلب على أعضائه المطابقة للمواصفات. ولا حتى بالاستنساخ نفسه ، وأنت إذا صنعوا منك نسخة فهذا لن يكون أنت بأى حال ، سيكون ابناً لك ، فقط بدون أم ! البصمة الوراثية فى كل خلية منه ، جزىء الحمض الأمينى وهو DNA سيأتى مطابقًا تمامًا لكل خلية عندك ، أما فيما عدا ذلك فإنه ليس مساويًا لك فى العمر كما هو المعتاد فى التوائم المتطابقة ، وإذا عرفت من هؤلاء قدر ما عرفتُ ، فقد رأيت إلى أى حد يختلف التوأمان فى كل شىء عدا الشبه ! بما فى ذلك "توأما" كورسيكا عند إسكندر دوماس ! فالإنسان ليس مجرد الخواص الوراثية التى ولد بها ، بل هو هذا مضافًا إليه تجاربه ومشاعره ومعارفه ، كل واحد منا يتغير كل ثانية من حياته بفعل ما يضاف إليه مما يدور فى رأسه وخارجها . والذين يحلمون بأنه سيأتى يوم نأخذ فيه الشفرة الجينية من جثثهم بعد أن يموتوا وننتج منها إنسانًا لكى يعودوا إلى الحياة ، حتى إذا تسنى ذلك فإن الناتج سيكون شخصًا آخر لا يشارك "المرحوم" إلا فى الخواص البيولوجية التى ولد بها .

اكسوبيولوجى

ليس التفكير فى احتمال وجود الحياة فى مواضع أخرى من العالم شيئًا جديدًا ، الواقع أنه يرجع إلى ألفين وخمسمائة سنة مضت ، وكان الفيلسوف الإغريقى ديمقريطس هو أول من نادى بالنظرية الذرية وبأن قوانين المادة والحياة الكونية لن تختلف من موضع لآخر فى الكون ، وبأنه ليس هناك ما يتميز به كوكب الأرض عن بقية الكون وأنه طالما أن أى حدث ممكن الحدوث فإن الطبيعة سوف تجعله يحدث ويرى علماء اليوم وفلاسفته أنه - من جهة أخرى - ليست هناك حتمية من أى نوع وكفى أن ظواهر الجاذبية تدلنا على أنه يحتمل فى أى وقت أن ينقض جرم سماوى على كوكب الأرض ويسحقه ويضع نهاية لما فوقه من حياة ، وقد حدث هذا مرتين على الأقل فى تاريخ كوكبنا ، وقضى على الملايين من أنواع الكائنات الحية ومنها الديناصور ، ومنهم أيضًا - وعلى رأسهم برتراند راسل - من يرى أنه بحكم القانون الثانى للديناميكا الحرارية ، فإن الكون كله زائل لا محالة . على أية حال ، إلى أن يحدث ذلك لن يكف إنسان الأرض عن محاولة إشباع فضوله بل والانتقال إلى هناك ليرى بنفسه وقد حط فعلاً فوق القمر وأوشك أن يصعد إلى المريخ دون أى دليل على وجود حياة مهما كانت بدائية . فقط ما القمر وما المريخ ؟ إن الذى ييأس من جراء ذلك شأنه شأن من يجد مقعداً خاليًا إلى جواره فى استاد كرة القدم فيقرر أن الملعب كله خال بل والمدينة بأكملها . وكما أن الأحداث الكونية - من نوع اندثار النجوم ونشوء الحياة - تستغرق ملايين السنين بالنظر إلى ضخامة الكون ومن هول أبعاده ومسافاته ، فإن التوصل إلى حقائقه خليق هو أيضًا بأن يستغرق أزمنة تتناسب مع هذه المسافات . وقد رأى إنسان الأرض هذا القمر الوحيد الذى يدور حولها منذ أن وجد هذا الإنسان ، بل إن القدماء

قد استنتجوا كروية الأرض من شكل ظلها الساقط على القمر ،وكان جاليليو هو أول من قال بوجود الكواكب والأقمار وبالتالى احتمال وجود الحياة ، وكان العثور على أورانوس سنة ١٧٨١ واستمر اكتشاف كواكب المجموعة الشمسية حتى سنة ١٩٣٠ ، سنة العثور على بلوتو ، ولكن الإصرار على وجود حياة أخرى أو آدميين آخرين أو كائنات عاقلة أخرى أمر بدرجة عظمى من الخطورة على معتقدات إنسان الأرض ومقدساته .

يظل اكتشاف الحياة فى كواكب أخرى ، أو معرفة ما إذا كانت توجد ، سراً لا يقل إثارة عند إنسان الأرض عما يجهله من أمور أخرى كالحياة بعد الموت وغير ذلك من الأسرار الهائلة . إلا أن المسافات طائلة ، وإذا عرفنا أننا قابعون داخل ما يشبه حبة من الرمل على كون هو بالنسبة لها ساحل شمال أفريقيا مثلاً . . . لأدركنا مدى صعوبة هذا الاكتشاف ، المجرى اللبنى قطره مائة ألف سنة ضوئية (السنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة من سنوات الأرض ، وهى حوالى ٩,٥ مليون مليون كيلومتر) ويحفل بمائة ألف مليون نجم قد تكون بدائية ، يعنى مجرد فقاعات من المادة الحية ، وقد تكون كما يراهن البعض حضارات أرقى منا بكثير، هواة التفكير بالاحتمالات يقدرونها بربع مليون حضارة تكنولوجية متطورة . لماذا إذن لا يردون على رسائلنا ؟ ولماذا لا نلتقط منهم أى رسائل ؟ ربما لأن الإشارات اللا سلكية تتحرك بسرعة الضوء ، وتقطع مسافات كهذه فى آلاف السنين وربما أكثر .

كان من أكثر العلماء فى الفلك والأحياء اهتماماً بهذا الأمر ، الفلكى والكاتب المبدع الراحل كارل سيجان ، وهو الذى اخترع تعبير "أكسوبيولوجى" ، وألف كتاب "كوزموس" يصف فيه الكون، وغيره وغيره ، ثم رواية اسمها اتصال contact، يتصورفيها أننا تلقينا رسالة من

الفضاء وماذاكان أثر هذا على حياتنا ، ويدورفيها حوار بين اثنين من العلماء ، أحدهما لا يرى دليلاً على وجود حياة خارج الأرض ، والآخر يقول له : "هذا يكون تضييعًا لقدر هائل من المكان" . إذا كنت مثلى تعيش فى مدينة فى ازدحام القاهرة ، سوف يعجبك هذا كما أعجبنى . الاحتمال هو ٥٠٪ - بالضبط . ويظل كذلك برغم أن باحثين فى كاليفورنيا قد اكتشفا كوكبين يدوران حول نجمين على مسافة حوالى (٣٥) سنة ضوئية من الأرض ، هذا فى أوائل سنة ١٩٩٦ أناشخصيًا لدى فكرة قد تجدها سخيفة ولن أعترض على ذلك . فكرتان فى الواقع . الأولى هى أنه إذا تصورنا وجود حياة آدمية أو كائنات ذكية فى مواضع أخرى من هذا الكون ، فامر من اثنين ، إما أن هذا كان نتيجة مجرد التطور والتفاعل المستقل فى كل منهما عن البقية ، وإما أنها وجدت فى موضع وانتقلت إلى البقية باستخدام وسائل السفر فى الفضاء ، أو ربما بهذا وذاك معًا . فى جميع الحالات إذا أخذنا فى اعتبارنا أن أحداث الكون تستغرق ملايين السنين ، فإذا لابد أنه كانت هناك لحظة فى تاريخ الكون كانت الحياة فيها قد نشأت فى موضع ولم تنشأ بعد فى البقية ، هذا فى الافتراض الأول ، أو نشأت فى موضع ولم يبدأ السفر منه بعد إلى البقية . فى الإفتراض الثانى . من أدرانا أننا لا نعيش هذه اللحظة ؟ وأنه من المحتمل جداً أن الحياة قد تكونت على كوكبنا ولم تبدأ بعد فى غيره ؟ أو لم تنتقل بعد إلى غيره؟

الفكرة الثانية أنه إذاكان قطع هذه المسافات سواء بالسفر بمركبات الفضاء السريعة ، أو التواصل بالإشارات المتبادلة بسرعة الضوء وهو أيضًا يتطلب آلاف السنين ، فاكتشاف الحياة خارج الأرض يتطلب إما أناسًا يعيشون أعمارًا طويلة جداً ، أو أناسًا يكتشفون وسيلة للنفاذ إلى فراغ رباعى الأبعاد، أو خماسى أو سداسى ... إلخ ، وبذلك يمكنهم العثور على

"تخريمة" فضائية تشبه الانتقال من نقطة على سطح كرة إلى نقطة أخرى تقابلها مرورًا فى داخل بطن الكرة ، بدلاً من الالتفاف على سطحها ، حتى ولو اتبعنا أقصر الطرق وهو الدائرة العظمى كما تسمى ؟ النسبة بين هذين المسارين هى ما يسمى النسبة التقريبية . إلا أن النقطة فى الحالة الأولى تتحرك فى فضاء ثلاثى وفى الثانية فى فضاء ثنائى فقط وفيما يقول ستيفن هوكنج وغيره من الفيزيائيين فإنه توجد فى أعماق الذرة فراغات ذات عشرة أبعاد وأكثر ، قد تخلفت من خلق الكون وإنه لحسن حظنا أنها صغيرة جداً ولا نستطيع نحن أن ننفذ إليها بمركباتنا وأجهزتنا ، ولو كان الفضاء كله كذلك لربما كان كوكب كالأرض يقع على بعد رابع أو خامس ويجد طريقًا قصيراً إلى الشمس ويندفع نحوها والنتيجة أن نتفحم كلنا .
يبدو أن إنسان الأرض هو الذى سيبدأ فى نقل الحياة الذكية إلى بقية أنحاء الكون ، فقد هبط على القمر وينوى الهبوط قريبًا على المريخ، ويقال أن قمر كوكب المشترى الذى يسمونه "يوروبا" جوه يكاد يطابق جو الأرض وبه موارد هائلةمن المياه ، غالبًا سيكون هوالمحطة التالية . وهكذا . فقط لابد أن يعيش إنسان الأرض عمراً طويلاً جداً ، أو ربما لا داعى لأن ينتقل بنفسه ، يمكنه أن يبث أعضاءه السايبر فى أنحاء الكون ويرى بل ويلمس كل شيء كما لو كان فى متناول يده . فقط ... هل ستكون له أيد وأرجل كالتى لدينا الآن، أم أن هذه الوسائل غير المتطورة هى التى تحد من إمكانياته الهائلة ؟ حقًا ، ماذا سيكون شكل هذا الكائن الآدمى ؟

السايبرنطيقا

"سايبر" أو "كايبر" كلمة يونانية - طبعًا ، فاللغة اليونانية هي مستودع المصطلحات العلمية عند الأوروبيين لأسباب واضحة - الكلمة تعني "الحاكم" أو "القبطان" أو أى شخص يتولى القيادة أو التسيير . بمجيء الحاسب أو الحاسوب - كما نرى - جاء التحكم الإلكتروني ليحل محل التحكم الكهرميكانيكي الذي أصبح موضة قديمة وهو من الأصل محدود جدًا . "Cybernetics" هو العلم الذي يضم هذه الأمور ويصح أن نسميه "سايبرنطيقا" ، وكلمة Cyber أصبحت تضاف لكل شيء يصلح للدلالة على هذه الدنيا الجديدة ، مثلاً Cyberspace هو الفضاء المحكوم بالكمبيوتر، بعبارة أخرى ، الإنترنت وما إلى ذلك .

محاولات الاعتماد على الآلة في سبيل إطلاق طاقات البشر بإعفائهم من الجهد العضلي ، بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولم تعد السفن تتحرك بأذرع العبيد ، ولا أى شيء آخر في المجتمع الذي يعيش عصره . وكانت الآلة البخارية هي البداية ، وبمجيء القرن العشرين وانتشار السكة الحديدية والطائرة وصناعات الإنتاج الكثيف كان لابد من إعفاء البشر من الأعمال الذهنية الشاقة هي أيضًا ، ومن هنا بدا الناس يمارسون الجمع والطرح بمسطرة من الخرز ، "الأباكاس" الذي يغرم به اليابانيون حتى الآن ويلجأ أطفالهم إلى تصويره في أذهانهم وإذهال الناس بعمليات حسابية تخيلية . ثم ظهرت المسطرة الحاسبة التي تمكن من استخراج اللوغاريتمات والنسب المثلثية وإجراء عمليات الضرب والقسمة بسهولة وسرعة ، والعكس بالعكس ، ثم في آن واحد ، بدأت محاولات صنع "الآلة التي تفكر" بمصاحبة آلات الحساب الكهرميكانيكية ، وهذه كانت شيئًا مثل الآلة الكاتبة يحدث ضجة عظمى في عملياته ، وسرعان ما جاء عالم "السايبر" بأعاجيبه .

كان لابد طبعًا من إدماج الآلة الميكانيكية مع الكمبيوتر ليأتى ما يسمى "روبوت" – وهى كلمة روسية الأصل هذه المرة ومعناها "الشغل" ، الروبوت يستخدم الآن فى مجالين عظيمين ، الصناعة (ولدى اليابان وحدها أضعاف ما لدى بقية العالم) ، ثم قصص الخيال العلمى .وشاهدت مرة شريطًا سينمائيًا يصور مدينة الملاهى الحديثة وهى حافلة بالرجال والنساء من كل شكل ولون ، والرواد من هواة الإثارة يرتادونها ليمارسوا كل شىء من حياة رعاة البقر إلى حياة الليل ، وكل هؤلاء "روبوت" ، آدميون بكل شكل ولون ، ولكنهم آلات، وفى رواية "ملحمة الفضاء ٢٠٠١" ، يجد آرثر كلارك وستانلى كوبريك يتصوران"تمرد الكمبيوتر" ...

ليست هناك نهاية للتطورات والتصو رات المرتقبة . مثلاً ، كمبيوتر فى حجم ذرة الغبار، يدخل فى خيوط النسيج مصحوبًا بوسائل للتبريد والتدفئة بحيث يمكنك أن ترتدى قميصًا فى غاية الرقة ولكنه يكفى لكل أنواع الأجواء !لا داعى لأية ملابس! بل إن رائد الفضاء لن يكون فى حاجة إلى هذا "الأوفرول" الذى يعوق حركته ويكبل جسده بأثقاله ! حبات الكمبيوتر سوف تصبح قدرتها على معالجة المعلومات أقوى مما هى الآن آلاف المرات ، وسيصبح الحاسوب الشخصى قادرًا على أن يتم فى ساعة واحدة ما يعمله الآن فى ٢٤ساعة ، وعلى أن يبثها مع أشعة الضوء لتنتقل بسرعته ، بدلاً من هذا "البطء المدمر" الذى تتصف به حركة الإلكترونات "المحبوسة" فى جزيئات السيليكون. إذا أمكن تصغيرالترانزستورات بما يكفى لأن تتجمع فوق حبة "تشب" بأعداد هائلة فإن الإلكترونات تختفى وتظهر فى موضع آخر لا أحد يدرى كيف أو لماذا ، حاسب "الكوانتم" ، يمكنه أن ينشر المعلومات فيجد الناس – المعاصرون فقط طبعًا –أنفسهم وقد تحولوا جميعًا إلى علماء ! بل وإلى فنانين ، سيمكن للصبى أن يجلس أمام

شاشة التلفزيون فى بيته ، وهى فى الواقع شاشة كمبيوتر متلفز ، ويصنع لنفسه ما يشاء من دراما وموسيقى . أما الاتصال التليفونى فسوف يتخذ شكلاًجديداً ، سيمكنك أن ترى الشخص (وهى كلمة تدل على الإنسان بنوعيه) الذى تحادثه وقد تجسد أمامك بقدرة قادر، بأشعة الليزر ، وليس من الضرورى أبداً أن تعرف لغته (أو لغتها) ففى رأسك "تشب" مثلها على الجانب الآخر ، والترجمة فورية بمعنى الكلمة .

لا يعلم الغيب إلا الله ، ولكن على ما يبدو ، فإن إنسان المستقبل ، والمستقبل قريب ، بمعنى بعد مائة أو مائتين من سنوات الأرض، سيكون - على ما يبدو - شيئًا كهذا الذى تصفه هذه الكلمات :

* كائن آدمى الأصل يعيش قرونًا طويلة

* وهو سايبر نطيقى ، جسده وجهازه العصبى مليء بحبيبات تزوده بمعلومات وقدرات فائقة .

* يتحرك فى أنحاء الكون عن طريق بعد رابع أو خامس يضاف إلى "الفضاء زمن" الذى نعرفه الآن، وهو مجرد ثلاثة أبعاد للمسافة وبعد واحد للزمن ، وبذلك يمكنه أن يحط على القمر فى دقائق ويصل إلى كواكب بعيدة فى بضع ساعات بعبارة أخرى : "سوبر مان" بكل معنى الكلمة !

البشرية إلى أين

"من المؤكد أن الشيخوخة تحدث فعلها فى جسم الإنسان طبقًا لقوانين بيولوجية قابلة للاكتشاف ، وبالتالى فإن التعامل معها سيكون عندئذ ممكنا سواء بالعقاقير الطبية أو بغيرها ، إلا أنه .. فى مثل هذه الحالة ، فإن ثبوت فاعلية هذه العقاقير سيتطلب انقضاء زمن طويل ، فهذه هى مهمتها ! ولعل هذا هو العائق الوحيد فى سبيل اكتشافها وإنتاجها ، إذ أن شركات الأدوية لديها من جهود البحث والإنتاج ما يحقق أرباحًا أسرع كثيرًا .

مقتطف من مجلة فورتشان الأمريكية

عدد ٥ / ٧ / ١٩٩٩

تحت عنوان "الباحثون يحلون لغز الشيخوخة"

حتى الآن ماتزال الكشوف الجديدة ومعها وسائل الفحص الراديوكربونى والتحايل الكيمائية والبيولوجية المتطورة ، مايزال هذا كله يكشف عن حقيقة أن تاريخ الكون والحياة الآدمية ، ليس مقطوعًا به تمامًا .

ففى منتصف ١٩٩٤ اكتشفت بالصدفة المحضة كهوف فى جنوب فرنسا بها أعمال فنية ، رسوم رائعة للطيوروالحيوانات من العصر الحجرى - محفورة على جدران الأحجار الجيرية ، وضح أنها ، والعهدة على وزارة الثقافة الفرنسية ، ترجع إلى ... ثلاثين ألف سنة ! وقد كان يظن إلى عهد قريب أن هذا هو عمر نوعية الإنسان العاقل ، "هومو سابينز" ، أو هكذا

يصف نفسه ! والذى عرف الكتابة منذ حوالى ستة آلاف سنة ، والزراعة أكثر من ذلك قليلاً .

والنظرة التى تسود الأوساط العلمية حاليًا هى أنه :

* الكون نفسه ، بمعنى نسيج من الفضاء والزمن - لا نعرف طبيعته بالضبط ولعلها تفوق قدرتنا على الإدراك - يمتلئ بكتل وأمواج من مادة جانب منها معروف ، فقط قد تكون هناك صور أخرى من المادة "الداكنة أو المظلمة" ، التى لا نراها ولكن معادلات الفيزياء توحى بوجودها ، ومادة "النيوترينو" التى تخلو إلكتروناتها من الشحنة الكهربائية أو لديها شحنة موجبة وعندئذ تكون هى المادة المضادة للمادة التى نحن منها ويتلاشى كل منهما بتأثير التفاعل مع شحنة الآخر ، هذا الكون عمره يتراوح بين خمسة عشر وعشرين ألف مليون سنة ، والسنة هنا هى ذلك الطول الزمنى كما نعرفه الآن .

* الحياة الأرضية كما هى معروفة لنا ، نشأت من تساقط قدر هائل من المادة العضوية (يعنى مادة أساسها عنصر الكربون الذى يتحد مع الهيدروجين والأكسجين بأشكال كثيرة متنوعة)، من الفضاء إلى سطح الأرض ، هذه الحياة ترجع إلى أربعة آلاف مليون سنة .

* الإنسان ، يعنى ذلك الكائن الذى يمشى على ساقين ويمكنه أن يصنع أدوات يستخدمها فى أغراضه ، وغالبًا يتكلم لغة أو ما يشبه اللغة ، يرجع وجوده إلى بضعة ملايين من السنين ، اتخذ أثناءها أشكالاً متعددة : إنسان نياندر ، إنسان بكين ... إلخ ، ليس من الضرورى أن يكون كل منها قد اختفى قبل ظهور الآخر . النوع الذى نحن منه عمره بضع مئات من آلاف السنين ، يعنى ثلاثمائة أو أربعمائة الف سنة . ولكن أنواعًا أخرى من الثدييات ترجع إلى مائتى مليون سنة ، أو نحو ذلك.

* منذ حوالى ٢٥٠ مليون سنة وقع على الأرض فوران بركانى هائل قد يكون نتج عن اقتراب أو تصادم نيزك بالأرض ، أو عن ارتفاع كبير أو انخفاض فى مياه المحيطات .هذا الفوران قضى على ٧٠٪ من كل الحياة البحرية . ثم بعد ذلك بحوالى ١٨٥ مليون سنة ، اصطدم "شيء" بكوكب الأرض مما أدى إلى إثارة غبار غلف الكرة تمامًا ومنع عنها ضوء الشمس مما أهلك أنواعًا كثيرة من المخلوقات ، بتأثير البرد والجوع ، كان منها حيوان الديناصور بجميع أنواعه وفصائله .

حتى هذه اللحظة ، مازالت أمور كهذه قابلة لأن تحدث ، بل إن فى جعبة العلماء مخططات تفصيلية مصحوبة - كالعادة - بالمعادلات الماتيماطيقية والوسائل التكنولوجية التى تمكن من إطلاق صواريخ هائلة إلى الفضاء الخارجي يمكنها - على طريقة "باتريوت" الذى رأيناه فى حرب الخليج - يمكنها أن تتلقف أى جرم سماوى يصبح واضحًا أنه يقصدنا بنواياه الشريرة ، تنقضّ عليه وتزيحه من مساره وإن تكن النتيجة غير مضمونة بأكثر مما يقول البحترى عن الذئب الذى اعترضه فى سفره :

كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه ، والجدّ ... يتعسه الجدُّ !

نسوق هذا لنذلل به لا على صعوبة استقراء المستقبل وتوقع أحداثه الخبيثة ، بل على صعوبة التحقق من الماضى البعيد ، والذى تتغير أفكار العلماء عنه مع كل تطور تأتى به علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء . فقط هناك أمورلا يمكننا أن نجعل عقولنا تكف عن محاولة استكشافها ، بل إن هذه المحاولة ذاتها قد تكون أعظم ما فى الحياة الآدمية من متعة !

بعضنا عاش سنوات فى القرن التاسع عشر ، والبعض قضى أغلب عمره فى العشرين والكثيرون سيدركون القرن الحادى والعشرين . ولقد جاء القرن التاسع عشر بحدث هائل كان له أبعد الأثر فى حياتنا ، وهو اختراع الآلة

البخارية مما أدى بعد ذلك إلى مختلف أنواع محركات الاحتراق الداخلى. كانت هذه بداية حقيقية لانتهاء عبودية الإنسان واستخدامه كمجرد نوع من الدواب ، وهو ما قامت عليه حضارة الرومان وامتد لغاية اكتشاف الدنيا الجديدة، حيث كان العبيد الإفريقيون يحبسون فى أقبية السفن التى تشحنهم إلى مصيرهم التعس ، يجدفون عبر المحيط . جاءت الآلة بوفرة الطاقة الحركية وإعفاء البشر - والدواب فى أنحاء كثيرة من العالم - من هذا الذل المقيت ، مع ما هى مصحوبة به - كالمعتاد دائمًا - من شرور التلوث ومهالك الصناعة ومشكلاتها الفظيعة . ثم جاء القرن العشرون هو الآخر باختراعين هائلين : أولهما الآلة التى تفكر هذه المرة ، أى أنها توفر على الإنسان لا مجرد الجهد العضلى، بل الجهد الذهنى أيضًا، والثانى هو وسيلة الخروج من الغلاف الجوى المحيط بالأرض (وليس من نطاق الجاذبية كما يظن البعض، فنحن لا فكاك لنا من هذا ، بل إن القمر الطبيعى نفسه يتبادل الجاذبية مع الأرض بشكل يجعله لا يستطيع أن يلتفت بوجهه بعيداً عنها كما يجعله قادراً على أن يمط مياه المحيط محدثًا ظاهرة المد المعروفة) . سرعان ما تدافعت مراكب الفضاء لتدور حول الأرض متخلصة من المقاومة الفظيعة للغلاف الجوى ، وأصبح الكوكب محاطًا بشكل دائم بأقمار صناعية بعضها يدور بسرعات تتفق مع سرعة دورانه فيبدو كما لو كان مثبتًا فوق بقعة منه أو أخرى ، وبعضها ينطلق فى أعماق الكون كما هو معروف . أدى استحداث الكمبيوتر والساتلايت إلى هذا التطور فى الاتصالات والمعلومات الذى يجعلك تجلس قابعًا فى بيتك وتحت أصابعك كل ما فى مكتبة الكونجرس وغيرها من المكتبات العالمية الكبرى ، تستمد من كل مصادر الدنيا ما لديها من نصوص وعلوم ، ومن أى شىء آخر يخطر لك مما يثبت على هذه الشبكة التى يسمونها "طريق المعلومات العظيم" .

هذه هى الأحداث العظمى التى جاء بها القرن الذى ما نزال فيه والذى سبقه : الطاقة الآلية ، الثورة الصناعية ، الكمبيوتر ، غزو الفضاء، ثم أخيراً سر الخلية الحية ومعه احتمالات الهندسة الوراثية وما يسمى - وهوآخر صيحة حتى الآن هندسة الأنسجة : Tissue Engineering ، والتى بواسطتها تمكن علماء من جامعة ماساتشوسيتس من تخليق أذن آدمية زرعوها فى ظهر فأر صغير من فئران التجارب أصبح الآن علامة فى تاريخ الأحياء يعرف باسم "الفأر ذى الآذان الثلاث" بنفس هذا الأسلوب يمكن تكوين غير ذلك من الأعضاء الآدمية بزرع الهياكل الصناعية أو الأنسجة فى جسم الإنسان : كلية ، كبد ، بنكرياس ، حسب الطلب ، دون حاجة إلى الأخذ من الآخرين ولا الاستنساخ ، فهذا ذاته "موضة" قديمة .

صعوبات التنبؤ

صعوبة التحرك إلى مستقبل البشرية لا تقف عند حد الكوارث الكونية أو الكشوف العلمية المفاجئة ، هناك أيضًا قصور العقل البشرى وتعدد عوامل الاستنتاج ثم حيرة العقول فيما نأخذ به أو نرجحه على غيره .

كان هـ . ج . ويلز كاتبًا وعالمًا من أساطين الخيال العلمى وصاحب "آلة الزمن" و"الرجل الخفى" ، ولكن خياله الذى لا حد له لم يستطع أن يستوعب فكرة الغواصة ، وقال سنة (١٩٠١) إنه لا يمكن لخياله أن يتوقع من الغواصة إلا أن تكون سوى مقبرة لمن فيها ! وكذلك فإن داريل زانوك ، رئيس شركة فوكس وواحد من أعمدة صناعة السينما ، تنبأ سنة ١٩٤٦ - ربما مدفوعًا برغباته الشخصية - بأن التليفزيون لن يطول عمره أكثر من ستة شهور يمل الناس بعدها أن يقبعوا فى بيوتهم ليحملقوا فى صندوق من خشب الأبلاكاش . ومثل ذلك : هارى وارنر ، صاحب إخوان وارنر ، وهى

إمبراطورية سينمائية أخرى ، رفض فكرة السينما الناطقة سنة ١٩٢٧ وصاح متسائلاً "من الذى يريد أن يسمع الممثلين يتكلمون؟!" ، وفى سنة ١٩٣٤ تنبأ الرئيس السابق لوزراء بريطانيا ، السياسى العتيد "ديفيد لويد جورج" تنبأ بأن ألمانيا لن تجرؤ على الدخول فى الحرب لعجزها عن ذلك ، وهناك طيارون عظماء رفضوا أن يصدقوا أن الطائرة يمكن أن تستخدم فى الحرب . وفى أواخر القرن الماضى - بالتحديد سنة ١٨٨٩ - كتب الشاعر الإنجليزى "ريارد كبلنج" قصيدة عنوانها "أغنية الشرق والغرب" ، يقول فيها "الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا أبداً" ، ربما كان محقًا فى ذلك بسبب نشأته وحياته فى الهند ، ولكنه إذ ذاك سافر إلى بلاده عن طريق اليابان التى كانت نهضتها قد تجاوزت ربع قرن ، ولم يتسع خياله لما وقع بعد ذلك ، صحيح أن الشرق مايزال هو الشرق ولكن النمور الشرقية قفزت من فوق السور والتقت مع الغرب ولا نظن أحداً ينكر أن سنغافورة وكوريا الجنوبية أغرب من البرتغال ومن اليونان - سواء بمعنى الغرب أو الغرابة . وأما عن السيارة التى هى أكثر الوسائل شيوعًا فى هذا العصر منذ ظهورها ، فقد كان لهنرى فورد مستشار قانونى اسمه "هورس راكهام" ، نصحه واحد من زعماء البنوك فى ولاية ميتشجان (موطن صناعة السيارات) بالا يستثمر أمواله فى هذه الصناعة التى لابد ستفشل ، لأنه لا شىء سيبقى سوى الحصان ، أما هذه فمجرد مغامرة حمقاء ! لم يستمع المحامى لهذه النصيحة واستثمر خمسة آلاف دولار فى أسهم باعها بعد عدة سنوات بـ ١٢,٥ مليون .

كما أن شركة "ويسترن يونيون الأمريكية ، رفضت عرض مخترع التليفون "جراهام بل" ، ببيع شركته لها بمبلغ مائة ألف دولار ، وتساءل رئيسها : ما الذى نجنيه من وراء هذه اللعبة الكهربائية؟ وفى سنة ١٩٤٩

تنبأت مجلة "بوبيولار ميكانيكس" الشهيرة ، بأن كمبيوتر المستقبل سوف ينخفض حجمه إلى أن يزن ... مجرد طن ونصف!. ثم بعد ذلك سنة ١٩٧٧ تساءل كينيث أولسون ، مؤسس شركة ديجيتال لصناعة الكمبيوتر: ما الذى يجعل أى شخص يريد أن يكون لديه كمبيوتر فى بيته ؟

إلا أن نبوءات كثيرة تصدق أيضًا . وعندما هبط أرمسترونغ وزميله على سطح القمر فى أوائل السبعينيات – وكان هذا بالطبع بفضل الكمبيوتر ووسائل الفضاء – فإن عالم الصواريخ الألمانى ومخترعها فون براون استعرض التجربة فى حديث سينمائى ، وبيّن كيف أن كاتب الخيال العلمى جول فيرن تخيّل التجربة فى قصته : "من الأرض إلى القمر" ، وأنه وصف المركبة وتطورات انفصال الكبسولة ودورانها حول القمر ثم صعودها واندماجها فى المركبة ، كل هذا بدقة تثير الإعجاب ، حتى الأبعاد والمقاسات كانت لا تختلف إلا بضع بوصات عما وقع بعد ذلك فعلاً .

هذه كلها – على أى حال – أمور لا تعدو أن تكون مسلية . ولكن الذى يثير الذعر حقًا ، هو نبوءة "مالتوس" . وهذه – فى الواقع – لم تتحقق فى الموعد الذى حدده لها صاحبها – الفيلسوف الاقتصادى والقسيس ، توماس مالتوس . فقط جميع الدلائل تشير إلى أنها سوف تتحقق وقريبًا جدًا .. وقد سبق لنا الحديث عن ذلك فقط نعود إليه لأهميته.

من نحن ؟ ولماذا نحن هنا ؟

في سنة ١٧٩٨ - وهي نفس السنة التي تبوأ فيها مركزه راعيًا لكنيسة إنجلترا نشر "مالتوس" رسالته الشهيرة التي أوضح فيها أن تعداد البشر يتزايد بمتوالية هندسية بينما الموارد تتزايد بمتوالية عددية ، وأن هذه الظاهرة ستؤدي إلى أن يأتي وقت تنتشر فيه الأوبئة والمجاعات وأيضًا تقوم الحروب لنفس هذا السبب ولكن هذه الكوارث ستكون في ذاتها أمورًا مرغوبًا فيها لأنها ضرورية لوقف هذا التزايد ، ثم عاد سنة ١٨٠٣ وأدخل تعديلات عى هذه الرسالة مؤداها أن "الانضباط المعنوي أو الأخلاقي" كما أسماه يصلح لأن يضاف إلى قائمة الأمور التي قد تؤدي إلى صلاح الحال .

كان "مالتوس" مصيبًا في تقديراته لتعداد سكان العالم ، وإنجلترا بصفة خاصة ، التي هي بلده ، وكان يشغل فيها مركزًا يتيح له أن يحصل على الأرقام التي دلته على أن تعدادها مضى يتضاعف كل ربع قرن وأن المحتمل هو أن معدل الزيادة نفسه سوف يتعرض للزيادة أيضًا . إلا أن عوامل أخرى تؤثر على الجانب الآخر من مشكلته وهو : "الموارد" ، لم تكن متاحة له بياناتها بنفس الدرجة من الوضوح ، فقد هاجر من إنجلترا بعد ذلك حوالي ٢٠ مليون شخص ، إلى مختلف أنحاء أستراليا وأمريكا ، كما تقدم الإنسان في العلوم والتكنولوجيا ، وبمجيء الثورة الصناعية حدث نمو هائل في "الموارد" كما تطورت وسائل الإنتاج الزراعي بفضل تحسن وسائل الري وتقدم أساليب الزراعة وتزايد إمكاناتها . وعندما لم يحدث هذا في أيرلندا مثلاً ، المجاورة لإنجلترا ، والتي ما زالت خاضعة لسلطانها ومتخلفة عنها في الموارد وفي حسن استغلالها ، فإن هذا البلد عاني في منتصف القرن التاسع عشر من مجاعة أهلكت ٢٠٪ من سكانه كان أغلبهم أطفالاً يموتون جوعًا وعريًا، أي كانت أنموذجًا صغيرًا ومبكرًا لنبوءة "مالتوس" .

من الواضح أن التقدم فى وسائل إنتاج الغذاء أخذ بصفة مستمرة فى التقدم ، وكما يتحدث العلماء عن تخليق الأعضاء وغير ذلك مما يبدو لنا الآن مذهلاً ، فلعل المستقبل ياتى بأمور مذهلة لا تجعل رقعة الأرض وما يعيش عليها من أنعام وأغنام ، وما تنبته الأرض من خضر وفاكهة ، لا تجعل موارد البشر تقتصر على ذلك ، ولكن الحقيقة التى هى ماثلة أمام أعيننا الآن هى أن تعداد سكان الكوكب كان ثلاثة مليارات سنة ١٩٥٠ وأصبح الآن ستة مليارات (أى تضاعف فى أقل من خمسين سنة ، وكان يمكن أن يكون أضخم من ذلك لولا الملايين الذين هلكوا فى الحروب وأغلبهم شباب كان يمكن أن يتناسلوا طيلة ذلك الوقت بخصوبة كبيرة) وأنه بمجيء سنة ٢٠١٠ (عشر سنوات فقط) سيكون التعداد قد تضاعف مرة أخرى ، وما هو أكثر إثارة للذعر أن تعداد سكان البلدان المتقدمة سيزداد من نصف مليار إلى مليار بينما المجتمعات النامية (كما تسمى ، بحق !) سيكون فى تقدير البنك الدولى قد وصل إلى رقم يتراوح بين ١٠ مليارات و ١٣,٥٠٠٠ !! (وسائل التقدير الديموغرافى تتكون من معادلات معقدة تجعل الخبراء دائمًا يأتون بثلاث قيم محتملة ، دنيا وقصوى ومتوسطة) .

على الجانب الآخر ، جانب "الموارد" لا يبدو الأمر مشرقًا بصفة خاصة ، فى القرن الماضى كانت الغابات تغطى ٥٠٪ من مساحة القارة الهندية ، هذه النسبة أصبحت الآن ١٤٪ ، أما فى أثيوبيا فقد هبطت من ٣٠٪ إلى ١٪ . بل إنه فى ألمانيا قد هلك ٢٠٪ من غابات هذا البلد ، أما الغابات الاستوائية ، والتى يوجد ٦٠٪ منها فى أمريكا الجنوبية ، فإن ثلاثة أرباعها سيكون قد انمحى فى أقل من عشر سنوات ومعه نصف أنواع الكائنات التى تعيش فيها . أما دول أوروبا الشرقية فقد أدى التصنيع المخطط الخاضع لإدارة مركزية فى موسكو إلى أن أصبحت هناك غلالة من الهواء المشبع بغبار

الفحم والغازات الخانقة ومركبات الرصاص تلتف بها وتهدد الصغار قبل الكبار بأمراض بشعة ، ورأيت صوراً لعمال مناجم الفحم في بلغاريا ورومانيا وقد اسودت شفاههم وأصبحوا يتنفسون بصعوبة مخيفة . أما نهر الدانوب الذى يمر بين هذين البلدين مخترقًا يوغوسلافيا والنمسا وبقعًا من جنان الله فى أرضه ، فقد أصبح – شانه كشأن الراين وكل الأنهار العظمى فى العالم – ليس سوى مصارف للتخلص من نفايات الصناعة . فى الهند (١٤) نهراً منها نهر "الجانجس" المقدس ، الذى يستمدون منه ١٥٪ من مياه الشرب ، كلها ملوثة بشكل يثير الأسى بسبب مشروعات التصنيع الطموحة ، ٨٠٪ من السكان تحت خط الآدمية من حيث مستوى المعيشة ، ونصف الأراضى الزراعية ، حوالى ٣٠٠ مليون هكتار ، أصابها التلف .

مصادر مياه الكوكب كلها ملوثة ، حتى سحب السماء عندما تمطر سوف تهبط على هيئة أحماض ، "المطر الحمضى" كما يسمى ، المياه تلتقط الشوائب ومخلفات الاحتراق الناشئة عن تصاعد أبخرة المصانع وعوادم السيارات والطائرات ، ثم تنقض على الغابات والزراعات والبشر والحيوانات . المياه الصالحة للاستعمال الآدمى والحيوانى والزراعة ، لا تزيد على ٣٪ من مجموع ما يقدر بأربعة آلاف مليون كيلو متر مكعب (الكيلو متر المكعب هو بدوره ألف مليون متر مكعب) هى موارد الكوكب ، والباقى كله مياه مالحة فى المحيطات والبحار . نصف هذا القدر الضئيل معلق فى السحب ومتجمد فى قمم الجبال والقطبين الشمالى والجنوبى ، وما تبقى أصبح أكثر من نصفه أنهاراً هى نفايات معدنية وبيولوجية . كما ينتظر أن تستمر سخونة الكوكب الناشئة عن تزايد نسبة ثانى أكسيد الكربون عما كانت عليه – وهو ما وقع فعلاً وأدى بالأرض إلى أن تصبح كأنها "صوبة" زراعية ، بعد أن بلغ خمسة أمثال ما كان عليه فى القرن

التاسع عشر ، والمقدر أنه سيتضاعف فى منتصف القرن القادم ، مما سيؤدى إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض بما قد يصل إلى ٣ درجات مئوية مما يزيد من ذوبان الثلوج وتمدد المياه وبالتالى ترتفع مياه البحر لتغرق الشواطئ مناطق مثل دلتا النيل فى مصر مثلاً ، وذلك فى وقت يصل فيه تعدادها إلى ١٢٠ مليون نسمة مع بطالة تشمل ما لن يقل عن ١٥ مليون شاب وفتاة ! بلد مثل بنجلاديش سيفقد ١٢٪ من أرضه المنزرعة مما يحول ٨٪ من شعبه إلى لاجئين . نعتذر للقارئ عن تكرار عرض هذه الصورة، فقط بمجيء سنة ٢٠٢٥ سيكون مجموع سكان الهند والصين وحدهما قد بلغ ثلاثة مليارات ، برغم تطبيق برامج للحد من النسل لا يجرؤ أحد على مجرد البوح بها فى منطقتنا من العالم ، فضلاً عن اقتراحها . نسبة الزيادة فى البلاد العربية والإسلامية تزيد على ٢٪ سنويًا ، وسوف يرتفع السكان من ٢٠٠ مليون إلى ٤٠٠ مليون خلال ربع قرن ، أربعة من كل عشرة تحت سن (١٥) أى فى مرحلة الاعتماد على الأسرة والمجتمع ، وقد لجأت إسرائيل أخيرًا إلى جلب المزيد من المهاجرين الروس لأنهم أكثر إنتاجًا فى مواجهة عرب إسرائيل وبقية فلسطين .

كانت غربة الإنسان عن العالم موضوعًا لكتابات كامو وغيره من المتفلسفين . إذا كانت الأرض قد عاشت بغيرنا كل هذه الملايين من السنين، فما مصيرها ؟ ترى هل تخرج فئة من المتميزين منها إلى الكواكب الأخرى كما ينزح المترفون من الريف إلى المدينة ثم من المدينة إلى الضواحى ؟

مم يتكون مجتمع الأرض ؟

فى مواجهة هذا : فرنسا مثلاً تعدادها ٥٥ مليونًا ، منهم عشرة ملايين فوق سن الستين مع شح فى المواليد ناتج عن تطور المجتمع الغربى فى النصف الأخير من القرن ، مما يستحق الالتفات إليه جيداً .

فى القرن الماضى جاءت الثورة الصناعية بوفرة هائلة فى فرص العمالة ، فتحت للنساء بابًا لحياة جديدة قوامها العمل المهنى . ثم جاءت الحرب العظمى فى القرن التالى ومن بعدها الحرب العالمية الثانية ودخلت المرأة أسواق العمل بأعداد ونسب غير مسبوقة ، وكان قد صاحب هذا كله طبعًا حركات تحرير المرأة ، التى نالت مصر نصيبًا منها . بدأ النصف الثانى من القرن العشرين بانتهاء الحرب وبظهور نوع جديد من الحياة يأتى مصحوبًا بظهور البراجماتية كفلسفة تسود الفكر الأمريكى ، على يدى مؤسسها تشارلز بيرس ثم وليم جيمس ، ثم بعد ذلك جون ديوى الذى طبق مفاهيمها النفعية على نظم التعليم التى دعا إليها حتى وفاته فى منتصف القرن العشرين ، هكذا رسخ فى المجتمع الأمريكى مفهوم أن الحقيقة هى ما ينفعنا من الوجهة العملية أن نعتقد أنه حقيقة .

تعبير "الثورة الجنسية" يصدم الواحد منا ، ثورة صناعية نعم ، حتى الثورة الثقافية ، جائز . أما ثورة جنسية . .؟ نعم ، هذه جاءت فى سنوات الستينيات من القرن العشرين وأسموها هكذا ، وسنعثر على هذا التعبير فى كل المراجع . لم يكن هذا شيئًا جديداً تمامًا فى الواقع ، ففى بداية القرن بدأ كتاب أوربا يحضون على السماح للمرأة أن تعيش حياتها كفرد مساو تمامًا للرجل ، وإذا تناولت كتابًا مثل "الزواج والأخلاق" لبرتراند راسل فستجد أنه لا يقف عند هذا الحد بل يمضى ليقول إننا نعيش عصراً يستحق أن يسمى "عصر وسائل تحديد النسل" ، وأن هذه الوسائل لابد أن تأتى

بفلسفة اجتماعية وأخلاقية جديدة ، لأن الرجل عندما تعاشر زوجته رجلاً آخر فإنه لن يكون مهدداً بالاضطرار إلى تربية أطفال ليسوا من صلبه ، بل إنه يمضى فيضيف : "إن الرجل والمرأة لا يتزوجان لكى يصبح كل منهما شرطيًا يراقب سلوك الآخر ، وإن على كل منهما أن يتغاضى عن علاقات الآخر مادامت لا تهدد الحياة الزوجية" ، فإذا تذكرنا أنه تزوج أربع مرات وأنجب من زوجته الثانية فقط ثم افترق عنها فإنه يمكننا القول بأنه لم يكن فى حاجة إلى هذا التحفظ . ولكى لا نظلم راسل ، فإنه لم ينفرد بهذه الفلسفة إطلاقًا ، فقد شاركه فيها طليعة المفكرين الغربيين إذ ذاك ، والنتيجة ماثلة أمامنا .

قبل أن نستعرض هذه النتيجة – والتى تمثل عنصرًا عامًا فى الفجوة الهائلة التى تفصل بين الشرق والغرب (وسنأتى لحدودهما) – يجدر بنا أن نوضح ونؤكد أننا لسنا هنا بسبيل التقييم الأخلاقى لسلوك المجتمعات . هذا خارج عن نطاق حديثنا تمامًا ، نحن بسبيل دراسة موقف البشرية دون إصدار أية أحكام لا لأننا ليس لنا رأى فى المسألة ، بل لنا رأى فيها ولكن هذا ليس موضوعنا ، فموضوعنا إدراك حقيقة الوضع لأن تجاهل الأمور هو صنو الجهل بها .

عندما نقول "الغرب" ، فإننا نقصد أمريكا الشمالية (دون المكسيك) ثم دول أوربا (عدا من كانت ضمن الكتلة الشرقية) ثم اليابان . ليس هذا بالطبع غربًا بالمعنى الجغرافى ، وعلى مستوى الكوكب ليس هناك غرب وشرق إلا إذا كنا نواجه الكرة فى وضع معين . وإذا لاحظنا أنه حتى سنة ١٩٧٠ كان فى تقديرات البنك الدولى أن جملة الناتج القومى بالنسبة للفرد كانت واحدة فى كل من كوريا الجنوبية وغانا (وكانت كلتاهما مستعمرة سابقة تحتلها قوة أجنبية) ، كان الرقم هو ٢٣٠ دولارًا ، وبقى كما هو

تقريباً فى غانا ، أما كوريا الجنوبية فقد وصل إلى ما بين ١٠ - ١٢ ضعفاً ، وتخطط هذه الدولة لأن تصبح واحدة من أغنى دول العالم . (مما يستحق الذكر أن الحكم فيها لم يكن ديمقراطياً بالمفهوم الغربى فى أى وقت) . من هنا يمكننا أن نضم نمور آسيا إلى الغرب كما نراه ، خصوصاً أن أنماط العلاقات الاجتماعية فى دول شرق آسيا الناهضة أصبحت مطابقة تماماً لما هى فى أمريكا وأوربا ، وإن كانت هناك تختلف من بلد لآخر ، وبالطبع فإن التقاليد فى إسبانيا مثلاً لا تطابق نظائرها فى هولندا أو السويد أو الدانمارك، ولكن الفوارق إحصائية فقط . بمعنى أنه لا يهم سلوك الفرد فى المجتمع رجلاً كان أو امرأة - فهذا شأنه هو ، والذين يتعاشرون وينجبون خارج نطاق الزواج مثلاً ، لا يتعرضون حتى لمجرد الانتقاد من آبائهم أو من المجتمع، أما النسب الإحصائية فهى - فى هذه الحالة بالذات - تتراوح من نصف المواليد فى الدول الإسكندنافية إلى ثلثها فى غير ذلك من دول أوربا الشمالية ، إلى نسب أدنى بكثير فى جنوب إيطاليا واليونان مثلاً . ومثل ذلك قضية كالشذوذ الذى تحول من وصمة مشينة إلى ما يكاد يكون مصدراً للتفاخر أو الامتياز !! وهناك قادة سياسيون ، وقساوسة يتزعمون حركات الدفاع عن حقوق هذه الفئة المهضومة ، وفى إسرائيل ، توفى جنرال كان صديقاً لرئيس الوزراء الراحل رابين وكان كثيراً ما يدعى للعشاء فى بيته، (وكان أيضاً صديقاً لوزير الحربية) وعندما مرض أوفدوه مع رفيقه للعلاج فى الخارج ، والقضية الآن هى أنه يطالب بالمعاش المستحق للجنرال لأنه كان رفيق حياته ، ويلقى التأييد من الرأى العام والمؤسسة الحاكمة يدلنا هذا على مدى "عضوية" هذه الدولة فى النظام والحضارة والمؤسسة الغربية وهو ما نتعمد أن نغمض أعيننا عنه . هكذا فإن ما يبدو لنا أنه حضيض الفساد والتبذل هو عندهم مسألة حريات شخصية يرون التدخل

فيها عدوانًا على حقوق الفرد . مرة أخرى ، نحن لسنا فى مجال إصدار الأحكام الأخلاقية ، فقط هذا السلوك - الذى ليس هو "التقدم" بأى مقياس وما عليك إلا أن ترجع لكتابات العصر الفيكتورى فى إنجلترا التى كانت قمة التفوق والسيطرة إذ ذاك - هذا السلوك ، كما دار فى المؤتمر العالمى لمشكلة السكان الذى انعقد فى مصر سنة ١٩٩٤ والمؤتمر الرابع للمرأة الذى انعقد فى الصين فى ١٩٩٥ - هذا السلوك يؤدى إلى تغيير كبير فى التركيب الديموغرافى للمجتمعات الغربية ، المجتمع "يشيخ" كما يقولون ، العجائز يعيشون طويلاً (فى ألمانيا ١٤٪ من مجمل الدخل القومى ينفق على رعاية عجائز أغلبهم يعيشون إلى ما فوق التسعين) والأطفال قليلون . أمريكا تلجأ إلى عادتها القديمة فى استجلاب الأيدى من المكسيك والعقول من كل أنحاء العالم ، وأوروبا مضت فى ذلك ثم بدأت تحاول أن تتلخص من بضعة ملايين من تركيا وشمال أفريقيا سعيًا إلى أهون الضررين ،أما اليابان فهى تنقل مصانعها إلى حيث تتوفر العمالة الرخيصة فى الدول المجاورة ، كما تتجه إلى تعميم "الروبوطيقا" وإحلال الروبوت محل البشر ، ونفس الاتجاه يتمثل الآن فى أوروبا تجنبًا لمشاكل العمالة الوافدة من العالم الثالث . فما العالم الثالث ، وما أحواله ؟

خريطة حضارية

عبارة "العالم الثالث" ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وبداية الحرب الباردة ، وكان المقصود منها تلك الدول التى لا تريد أن تنضم إلى إحدى الكتلتين لأسباب متنوعة منها أنها كانت فى مناطق نفوذ الإنجليز أو الفرنسيين وليست ميالة إلى الانضمام إلى المعسكر الشيوعى . ثم ما لبث الكثير منها أن انضم إلى الأحلاف الغربية ، مثل باكستان والعراق ، أو للكتلة الشرقية مثل فيتنام وكوريا الشمالية ، كما ظهر التبرول فى دول الخليج مثلا وأوصل مستوى المعيشة فيها إلى ما يعلو فوق مستوى دول الكتلة الشرقية بل بعض دول أوربا أول الأمر ،كالبرتغال مثلاً . ولكن هذا لا يؤهل لاهذا ولا ذاك للخروج من نطاق زمرة العالم الثالث التى أصبحت تنقسم إلى خمس فئات : دول بترولية كهذه ، ثم دول ذات أنظمة قوية وليست مثقلة بالديون أو غيرها من الصعوبات الاقتصادية مثل تايوان ، ودول ذات صناعة نامية ولكنها تعانى هذه الصعوبات مثل بولندا والأرجنتين – ودول لديها إمكانات للنهوض الصناعى وقد تلحق بهذه مثل تايلاند وماليزيا – وأخيراً دول تعيش على تصدير المواد الأساسية ومستلزمات التصنيع مثل دول أفريقيا الوسطى وأمريكا الوسطى ، مع الفارق بين زائير مثلاً وجواتيمالا أو هندوراس .

فى جميع الحالات : الفجوة أولاً هائلة ، وثانيًا آخذة فى الاتساع ، والحالات التى يتسنى فيها إيقاف هذا الاتساع سيلزمها تحسين مقاييسها ، وبصفة خاصة التنظيم السياسى (ولسنا نقول إن ديمقراطية الغرب هى نقطة البداية، فى مفهومنا المتواضع ، هذه تكون نقطة النهاية !) وفى جميع الحالات فإن استمرار تزايد المواليد مع تدهور مستوى المعيشة توليفة يصعب أن نتصورها طريقًا إلى وقف اتساع الفجوة .

يقول خبراء الديموغرافيا إن المعدل الطبيعى لإحلال المواليد محل من تنتهى أعمارهم هو طفلان لكل امرأة ، بهذا المقياس ينتظر أن ينخفض تعداد ألمانيا من ٦١ مليون إلى ٤٥ مليون فى سنة ٢٠٣٠ - لن تعانى الولايات المتحدة من ذلك ولكن ينتظر إلى جانب شيخوخة الأغلبية الأنجلوسكسونية - ينتظر أن يحدث "اسمرار" المجتمع نتيجة نمو الفئات ذات الأصول الإفريقية والهسبانية والآسيوية ، ويتوقع الباحثون أن تزداد النزعات العرقية حدة فى أمريكا ، وإذا انضمت إلى هذه مشاكل الديون والتآكل الاجتماعى والتعليمى وانخفاض مستوى معيشة الطبقة الوسطى وتفاقم مشكلات الوجود العسكرى فى مختلف أنحاء العالم ، فإن مقولة أرنولد توينبى قد تصدق على الولايات المتحدة ، فهى الآن قد تكون فى المرحلة الأخيرة من مراحله الثلاثة : النمو - النضوج - التدهور ، ليس هناك خلاف كبير على أن أوربا إذا نجحت فى التوحد ، سوف تنتزع الرئاسة من أمريكا ، اللهم إلا إذا تحركت الأحقاد القديمة وحل الصراع - أو ما هو أسوأ - محل أحلام الوحدة.

الأمل لدول العالم الثالث ؟

لا يعلم الغيب إلا الله ، إلا أن احتمالات الديموغرافيا ليست كلها غيبًا ! تدل الإحصاءات على أن هذا المؤشر ، طفلان لكل أم ، يصعد ويهبط بشكل مباشر مع مستوى تعليم أو "تعلم" المرأة ، فى المجتمعات التى تزيد فيها نسبة أمية النساء عن ٩٠٪ ، فإن نصيب المرأة من الأطفال يكون من ٨ إلى ٩ . وهكذا يبدو أن حال شعوب العالم النامى سيتوقف على قدرتها على تحقيق هذه المستحيلات الثلاثة :

* تحسين المنظومة السياسية وأساليب الحكم والإدارة .

* رفع مستوى المرأة من حيث التعلم والصحة ومستوى المعيشة.
* تحسين بقية مؤشرات المدنية : الاقتصاد - المعرفة والفنون - القيم الأخلاقية والمعنوية .

تحسين الاقتصاد قد يقتضي مزيداً من التصنيع ، وهذا يؤدى إلى مزيد من التلوث ، والارتقاء بالقيم الأخلاقية والمعنوية يستلزم رفع مستويات المعيشة والخدمات ، المعرفة والفنون تأتى من هذا كله . العالم كله سواء كان الأول أو الثانى أو الثالث فى حاجة إلى معجزة . هذه المعجزة لن تأتى إلا من أعماقنا نحن البشر ، لو أن عقول الحكام وقلوبهم تحولت من أحلام صبيانية فى العظمة وإنشاء الإمبراطوريات الوهمية ، إلى مشكلات شعوب جائعة ضائعة ، لو أن رجالنا تحولوا هم أيضاً من أحلام الجنس الخائب والغرام الأبله وممارسة ألعاب الزواج والطلاق نحو أطفالهم الذين ليس أمامهم سوى سنوات طويلة من الجوع والضياع ، لو أمكنهم أن يتعلموا أن الدنيا فيها متع لا حد لها من فنون الموسيقى والدراما والرقص والغناء ، أجمل وأروع من الحشيش والدخان وغيرهما من الآفات التى تهبط بالإنسان إلى وهدة الفقر والظلام . إننا نتميز بشىء واحد عن بقية الكائنات ، هو القدرة على الحب ، وهذا هو ما يأتى من أن نكون آدميين ، لا مجرد كائنات بيولوجية . إن المعرفة سوف تمضى فى طريقها ، والذين يسعون إليها لن يتوقفوا ليستمعوا إلى صرخات المتخلفين واحتجاجاتهم . إن المحافل الدولية قدتستطيع أن تضع قيوداً على التجارب النووية ولكن ليست هناك وسيلة لمحو المعرفة التى يمكن بها إنتاج هذه الأسلحة ، كما أننا فى حاجة إليها لاحتمال الدفاع عن الكوكب ضد جرم سماوى مدمر ينقض عليه . إن هناك خيراً كثيراً يمكن أن يأتى من أسرار المادة والبيولوجيا عندما نعرفها ، وهناك شر مستطير يأتى منها لو أننا لم نحسن تداولها ، ليست هناك فائدة

من الصراخ بشأن أمر كالاستنساخ مثلاً ، من المؤكد أنه يمكن تطبيقه على البشر ، الطريقة هناك فى انتظار العقول اللامعة لتأتى وتكتشفها ، المهم هو : ماذا نفعل به ؟ إن العلوم والفنون ستمضى أيضًا فى طريقها غير عابئة بأعداء الإنسانية وأنصار الظلام ، فقط قد يأتى يوم يرى فيه العالمون الأقوياء أنه يجب عليهم أن ينقذوا كوكب الأرض ممن يهددونه بالأوبئة والتلوث والنفايات التى يتكون منها ما هو الآن العالم الثالث فى العالم الثالث .

عودة إلى الحضارة

أم هل هى « المدنية » ، ويشتق منها « التمدين » ؟

أم هل هى « الثقافة » ، ويشتق منها أننا « مثقفون » ؟

لدينا الآن فى العربية هذه التعبيرات الثلاثة لنقابل بها كلمتين فى الإنجليزية وربما غيرها من اللغات العالمية . وحتى وقت قريب ، لم تكن « الثقافة » قد امتد نطاقها لتصبح معادلاً لكلمة Culture ، كانت تقتصر على نصفها فقط وهو كما يأتى فى « وزارة الثقافة » مثلاً ، أو أن فلاناً مثقف، أما امتدادها لكى يقابل النصف الآخر وهو ما يتعلق بعوائد الحياة الاجتماعية وممارساتها ، بل ويشمل قومًا بعينهم كأن تقول مثلاً أن « الفراعنة القدماء أنشأوا ثقافة تتميز بكذا وكذا ... » ، ويأتى هذا ليشمل أموراً مثل زواج الفراعنة بأخواتهم مثلاً ، فهذا تطور جديد تصبح به كلمة ثقافة ، معادلة لكلمة Culture ، وقد سرنى ذلك شخصيًا ، لأننى كتبت قدراً متواضعًا من علوم الإدارة وصادفنى ذلك التعبير الذى ذكرناه تحت عنوان « نظام الحكم والإدارة » ، وهو Corporate Culture والذى يقصد به الأعراف والتقاليد التى تسود مؤسسات الأعمال ، لم أستطع آنذاك أن أكتب « ثقافة الشركة » ، إذ أنه ليست هناك شركة مثقفة وأخرى لا تمارس

القراءة والاطلاع، فهذا شأن الذين يعملون فيها أما هى ككيان فليست خاضعة لصفات البشر ، ولما كتبت « حضارة الشركة » اعترض بعض القُرّاء ؛ فالشركات قد تسهم فى صنع الحضارات ، ولكن الكلمة أضخم من المقام الذى تستخدم فيه ، واضطررت آنذاك إلى أن أقول ثقافة الشركة ، مرغمًا ، كما ذكرت فى ذلك الموضع من هذا الكتاب ، وتركت الفقرة كما هى لتدل على أن هذا التطور قد حدث فى الفترة التى مضت بين كتابة الفقرة وهذا الذى نقوله الآن ، وهو تطور حميد ، لا فضل لى فيه بطبيعة الحال ، أنا منتفع به فقط ، ولا أعرف صاحبه، أما التعبير الثانى Civilization فهو مشتق من اللاتينية Civicus ومعناها فى الواقع « مواطن » - لا أريد أن أُطيل فى هذه النقطة ، ولكن هذه الكلمة تطورت منها اشتقاقات كثيرة منها مثلاً Civic Centre وهو مركز المدينة . . . إلخ ، قصارى القول أن Civiliza- tion ، فيما أعتقد ، وعلى استعداد للإقرار بالخطأ فور ثبوته ، هى المقابل لكلمة « مدنية » عندنا ، ومنها أن يقال أنهم « متمدينون » - هذا قد يكون راجعًا إلى أن أهل المدينة أكثر تقدمًا أو « رقيًا » من غيرهم ، مع أننا أيضًا نقول أنه « مُتحضّر » ، على أية حال سوف نستمر فى استخدام كلمة الحضارة ، وقد سبق أن ترجمنا عنوان سلسلة ويل ديوارنت إلى « قصة الحضارة » لأن هذا هو ما شاع عندنا وهى فى الواقع Civilization ويبدو أن كلمة الحضارة - شأنها شأن الكثير جداً من الكلمات - تغطى مجالاً عريضًا من المعانى لا يتطابق بالضبط مع مجال نظيرتها فى لغة أخرى . وفى كتاب « صدام الحضارات » (وهو - مرة أخرى - ترجمة عنوانه كما شاع عندنا مع أنه يستخدم نفس الكلمة فى عنوان كتاب ديوارنت) يجد القارئ - إذا شاء - فصلاً كاملاً فى تعريف هذا وذاك ، كما يفرق بين المفرد والجمع فى كلمة Civilization . إذا أردنا أن نستخدم كلمة « المدنية » لتقابل

هذه الكلمة ، فإننا قد نقول أن المدنية هي التجمع الذى تتكون منه عدة دول متشابهة أو دولة واحدة كبيرة - مثل الولايات المتحدة - ولكن فى داخل هذه المدنية توجد ثقافات - أو ربما حضارات - متعددة ، وفى الولايات المتحدة بالذات ملايين من المواطنين الذين ينتمون إلى حضارات متعددة ويمارسونها - كما يحتفل المسلمون مثلاً بشهر رمضان ، بل وبمزيد من الحماس لأنه هو الذى يصلهم معًا - وواضح هنا أن المواطن الأمريكى الذى هو أصلاً مسلم أو عربى أو شرقى أو صينى أو هندى ، ينتمى لمدنية أمريكا من حيث أنه مواطن فيها (والكلمة Citizen أصلاً هذا هو مصدرها) ولكنه لا ينتمى للثقافة الأمريكية (حتى ولو كان حائزًا على نوبل ، مثل إسحق سينجر ، فهو يهودى ويكتب باللغة الأيردية ، وهى لهجة يهود أوربا الشرقية) . يمكننا أن نقول هذا عن اليابان بأكملها ، فهى جزء من المدنية الصناعية الغربية ، وعضو فى مجلس السبعة الذين يحكمون العالم ، ولكن شعبها - بدرجة قد تكون آخذة فى التناقص ، فقط ببطء - يعيش حضارته للآن ، فهى وإن كانوا يلعبون البيس بول ويتردد شبابهم على مراقص الديسكو ويسمعون الروك ، فإنهم مازالوا يلعبون الـ « سومو » ، المصارعة اليابانية ، وينامون ويأكلون علىَ الأرض ويتزوجون عن طريق الخاطبة ويلبسون الكيمونو فى المناسبات .

مكونات الثقافة ؟ الديانة - اللغة - الأصول العرقية - الممارسات الاجتماعية - الأطعمة - الأردية - الفنون - الرقصات - العلاقات الأسرية - الألعاب - المعتقدات الشائعة ...

إذا كانت كلمة « مدنية » قد أصبحت غير سائعة لدينا ، وحلت « الحضارة » محلها ، كما هو واضح من أمثلة المؤلفات التى ذكرناها ، فإذن يمكننا أن نتحدث عن خريطة حضارية للمستقبل ، خاصة وكلمة « مدنية »

اسم ونعت فى آنٍ واحد .

ويمكننا أن نقول أن الإنسان يعيش فى حضارة كأوروبا ، ولكنه ينتمى بدرجة أو بأخرى ، لواحد أو أكثر من الثقافات التى تتوالد داخل هذه الحضارة .

وإذا نظرنا إلى أوروبا فإنها تبدو لنا حضارة كبرى ، ولكن هذا لا ينفى أن قرية فى اليونان ، وأخرى في إيطاليا ، وثالثة فى شمال ألمانيا ، هذه القرى الثلاث وسكانها ، تعيش ثقافات ليست واحدة ، وإن تشابهت فى أمور متعددة .

الريف والحضر

تحضرنى هنا مقولة لرئيس وزراء الصين الراحل شواين لاي ، فى حديث مع صحفى مصرى : « نحن ريف العالم ، وعلينا ألأ ننسى هذا » ، يقصد آسيا وأفريقيا . نحن أرياف هذا العالم ، قبل أن نمضى فى حديثنا ، ولكى نتجنب أن تطغى عواطفنا على عقولنا كما هى عادتنا ، سنذكر كل من يعنيه الأمر بأن أوروبا عاشت قرونًا وهى لا تعرف عن علوم الطب وفنونه سوى ما جاء به ابن سينا فى كتابة « القانون » ، وبأن كلمة algorithm التى تحفل بها مراجع بحوث العمليات الحديثة ، مقصود بها تخليد الخوارزمى ، وبأن مقدمة ابن خلدون ما تزال أهم مرجع فى سلوك الجماعات ، فقط كما يقول المثل الشعبى « كل وقت وله أذان » ، كانت نهضة أوروبا شيئًا غير مسبوق فى تاريخ البشرية ، جعلتها عاصمة الكوكب . خذ الكهرباء مثلاً ، أنت لاتعيش ثانية واحدة من عمرك بدونها ، من الماء الذى تشربه إلى الذى تستحم فيه ، من الدُش الذى تقف تحته إلى الدِش الذى تتفرج على فنواته، الطعام ، المشرب ، الملبس ، الماوى ، الماء ، النور ، التليفون ، المجارى .

للكهرباء قوانين أساسية ، منها واط = فولت X أمبير ، ثم فولت = أمبير X أوم . كل هذه أسماء العلماء ، الإنجليزى جيمس واط ، الإيطالى اليساندرو فولطا ، الفرنسى أندريه مارى أمبير ، الألمانى جورج سيمون أوم. وهناك وحدات للقياس باسم فاراداى ، ونيوتن ، (مايكل فاراداى وإسحق نيوتن) لو مضينا فى هذا فلن نفرغ من أسماء علماء الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، لوى باستير مكتشف دنيا الجراثيم ، تأمل ماذا كان يكون حال البشرية بدون مصل شلل الأطفال ، وبدون جهود أدت إلى محو الجدرى من الوجود . لم يعد الطب مسألة فراسة كما كان عند ابن سينا – مع إقرارنا بعظمته – أصبح له أساس علمى كما جربنا جميعًا . ثم فى أمريكا : توماس اديسون مخترع الإنارة . جراهام بل مخترع التليفون . وما هى أمريكا ؟ ليست سوى ضاحية من ضواحى أوروبا . من حق من يشاء أن يمقت أوروبا ، فقط سبيله الوحيد لأن يتنكر لحضارتها هو أن يخرج إلى الصحراء ويدق خيمة ويعيش على رعي الأغنام دون غير . ولن يكون مخترعًا فى هذه الحالة ، فقد حاول هذا كثيرون فى سويسرا وكندا وأمريكا وعندنا أيضًا ، وعندما يمرض الواحد منهم بداء أو بآخر . فماذا يفعل ؟ من قرص الأسبرين إلى استئصال الورم من المخ ، كل هذا نتاج حضارة أوروبا ؟!

إلاّ أن أوروبا جاءت بالبلطجية إلى جانب أساطين العالم والفكر والفنون. الإسكندر وقيصر ونابليون وهتلر وستالين ؟ لغاية الحرب العظمى (يعنى العالمية الأولى) كانت الحروب تأتى من أطماع الملوك والأباطرة الذين يُسخّرون شعوبهم لأهوائهم ، لا تهتز ضمائرهم لملايين من الشباب النضر تفترسهم الفيران المتوحشة فى أعماق الخنادق بعد أن أعجزتهم الجراح عن الهرب ، ويموتون وفى عيونهم هلع يمزق الصدور . إلا انّ آخر حربين عظميين خاضتهما أوروبا ، الحرب العالمية الثانية ، ثم الحرب الباردة ، لم

تكن أى منهما مجرد ذلك ، كان هناك بعد عقائدى . كانت أوروبا قد شغلت نفسها أيضًا بفلسفات التنظيم السياسى وهى روافد محتومة لنهضة المعرفة واتساع آفاقها . وقد صدق من قال أن الحرب الأهلية الأسبانية كانت « بروفة » للحرب العالمية الثانية ، فقد كانت تتمثل فيها هذه الفلسفات المتصارعة ، إلاّ أن فرانكو كان بطلاً ذكيًا ، استطاع أن يتحالف مع هتلر مع المحافظة على عرش أسبانيا تمهيداً لإرساء الديموقراطية الغربية ، فقط متى ؟ بعد وفاته طبعًا لكى لا يكون أول ضحية لها . وهكذا فإن « الشيطان » الذى تحالف معه فرانكو كان أى شيء إلاّ الشيوعيين ، بعكس تشرشل الذى اختار الشيطان الشيوعى ليتحالف معه ضد قوى النازية والفاشية ، بل إنه عمل على إمداد الشيوعيين بكل ما يحتاجونه لصد الألمان ولم يفكر حتى فى تركهم يجهزون عليهم أولاً ، هذا مع أن هتلر كان يحلم بالتحالف مع بريطانيا من أجل تحقيق سيادة العنصر الأنجلو سكسونى على العالم . اندحرت الفاشية الأوروبية إذن وخرج المنتصرون من الجانبين ليقف كل منهما فى مواجهة الآخر . علينا ألاّ ننسى أن كل هذه الأفكار وعلى رأسها الاشتراكية بأنواعها ومفكريها ، فورييه وسان سيمون ثم ماركس ولينين ، كلها من نواتج الفكر الأوروبى ، وأن حضارة أوروبا بقيت كما هى ، فقد كان الطليان والألمان والروس والإنجليز يمارسون نفس العادات الاجتماعية ويستمعون لنفس الموسيقى ، فالطبيعة عندهم واحدة والإحساس بالجمال عندهم واحد ، ومعروف أن الألمان حاصروا مدينة لينينجراد (التى أصبحت الآن سانت بيترزبرج) إلى أن جاع سكانها وبدءوا يصطادون الفيران ليأكلوها ، وكانوا مع ذلك يهربون الغذاء لفرقة البالية الروسى حفاظًا على هذا الفن الأوروبى الرفيع الذى هو جزء أساسى من حضارة أوروبا التى بقيت موحدة وتظل للآن . إذا صح أنه قد انتهى زمن المنازعات الإقليمية ،

وأنه قد ثبت بالتجربة أنه لا فائدة من الفاشية والشيوعية ، فقد أصبح الطريق ممهداً لوحدة شاملة – حتى العملة بدأت تتوحد . أين إذن حدود حلفٍ الأطلنطى وضد من هو موجه ؟

إذا كانت لديك خريطة للعالم ، أو – وهو الأفضل ، نموذج للكرة الأرضية – وإذا كنت توافقنى على أن أمريكا – بشمالها وجنوبها – ليست سوى امتداد لحضارة أوروبا ، وأن أمريكا اللاتينية هي أولاً عالم كاثوليكى يدين بالولاء للبابا فى روما ، ودنيا غربية أهلها خواجات بكل معنى الكلمة، فقط جاءهم الفقر من الانقلابات العسكرية وما يلحق بها ، أمسك إذن بقلم رصاص وابدأ من حيث تريد وسوف تجد عالمًا كاملاً متصلاً لا يتقطع إلاً بمياه محيط أو بحر ، ابدأ من نيوزيلاندا واعبر إلى أستراليا ولا مانع من نمر أو آخر مثل سنغافورة وتايوان (يحفظها الله) ثم اليابان وكوريا وادخل سيبريا من فلاديفوستوك ثم بطول الطريق حتى بريطانيا (الحائرة بين أوروبا وأمريكا) – ايسلندا ، جرينلاند ، كندا ، أمريكا كلها لغاية قاع الأرجنتين ، هاواى ، ومنها صعوداً إلى حيث تلتقى ألاسكا مع سيبريا . هذا الطوق الحضارى الهائل ، يحتوى عالمًا كاملاً ، هو حلف الأطلنطى أو الأطلسى . من الذين يخرجون عن هذا الطوق ؟ إنهم ثلاث كتل تتشابه أعضاء كل كتلة منها :

١ – الصين والهند

٢ ـ العالم الإسلامى

٣ – أفريقيا

ديسكو - آنسر ماشين - ريموت كونترول - اللوبى - كاچوال تيك آواي - شوبنج سنتر - كوفي شوب !

هناك قاموس كامل من هذه المصطلحات التى تملأ أحاديثنا وكتاباتنا ، ونحاول أن نخضعها للنحو وأحيانًا للصرف ، اشترى كومبيوترًا وفتح كوافيرًا ، ومن العبث أن نحاول اختلاق كلمات عربية تعبر عنها فهى أولاً مصيرها أن تلحق بالمذياع والمسرة والتلفاز والمصرف (يعنى البنك) وثانيًا - وهو الأهم - أنها كلها تعبر عن سلع لا يقدر عليها إلاَّ المتيسرون (أو القادرون كما يسمونهم) وهؤلاء ، شأنهم شأن جميع البشر ، يتقبلون وقع حضارة الغرب علينا لوضوح الرؤية عندهم بشأن حتميتها ، والفرق بيننا وبين شعوب أوروبا يتمثل أكثر من أى شيء آخر ، فى أن أغلبنا غير قادر على ممارسة الحياة بشكلها الذى جاءت به الكهرباء - لقد تطورت وسائل الإنتاج والنقل والمواصلات إلى حد جعل حياة القبيلة أمرًا لا هو مرغوب ولا هو ممكن . كان الناس يتزوجون وهم أطفال ، وينجبون أطفالاً مثلهم ويعيش الجميع فى كنف القبيلة حياة كوميونية بدائية ، أما الآن فلكى يتعلم الفرد ويحصل على عمل فإنه سيكون قد قارب الثلاثين فى المتوسط ، وهذا فى ذاته ضرورى أيضًا من حيث إنه أصبح مطلوبًا من الفرد أن يكون رب أسرة ليكون زوجًا ، لأنه ليست القبيلة وحدها هى التى اختفت ، بل والأسرة أيضًا بتأثير انتشار فرص العمل والتعليم وسهولة الاتصالات . قرأت منذ برهة مقالاً لواحد من كبار المعلقين الأمريكيين ، يقول فيه أنهم كانوا يعلمونهم فى صباهم أن ممارسة لعبة الباسكت (كرة السلة) تعين الشباب على صرف أذهانهم عن دوافع الجنس ، كان يتحدث عن ظاهرة الحمل بين البنات فى أعمار الطفولة ، وهى ناتج ما سوى الحرية التى صاحبت كل هذه التغيرات ، ثم يضيف : كان الواحد فينا يقذف بالكرة ، هب ! تمر من خلال السلة (حقًا ، اسمها كرة السلة !) هذه حالة حمل أمكن تجنبها!

ينتشر بين العوام في بلادنا مفهوم خاطئ للديانة الغربية ، ويظنون أنها تبيح للأوروبيين هذه الأنماط السلوكية ، تراث الغرب يوصف بأنه يهو - مسيحى ، وهو بالإنجليزية Judeo - Christian ، والوصايا العشر تحرم كل ما تحرمه ، ديانتنا ، ولكن نظام المجتمع علماني بحت والفلسفة هي البراجماتية الأمريكية ، التي تقول للناس أن ما يصدقونه هو ما ينفعهم أن يصدقوه .

وقد خرج الكثيرون على حضارة الغرب ورفضوها لا عندنا فحسب ، بل في بلدان مثل سويسرا وكندا وطبعًا في الولايات المتحدة ، هناك من رفضوا هذا الطب الحديث بأكمله وأصروا على أن يموت أطفالهم دون أن يتعاطوه . وحدث كثيرًا أن تدخلت السلطة بحجة أن كل إنسان حر في اختيار أسلوب معيشته بشرط ألاّ يرتكب في خصوصيته ما يعد جريمة في شرع القانون العام . وهكذا فإن من يرفض أن يتعاطى أطفالهم لقاحًا واقيًا من المرض يعد مرتكبًا لجريمة الإساءة إلى الطفولة كما أنه يعرض الناس للعدوى ويبتلي المجتمع بمزيد من العجزة ، من هنا يأتي هجوم القوات الفيدرالية الأمريكية على معسكر « برانش دافيديانز » في تكساس ، وانقضاض هيليكوبتر على منزل في قلب مدينة فيلاديفيا وضربه بالقنابل مما تسبب في خسائر بشرية ومادية كبيرة ، لأن سكان هذا المنزل يؤمنون بما يسمى « حق الحياة » ، وهي تقليعة أخرى ، حق الحياة لمن ؟ لكل كائن خلقه الله ، بما في ذلك مثلاً ، الفيران وتلحق بها البراغيث التي تعيش في فرائها وإن لم يذكروا هذا صراحة ، ثم هناك بكتريا الطاعون التي تعيش في أمعاء هذه البراغيث ، فانظر إلى أي حضيض تهبط عقول البشر .

ترى هل يحق لحلف الأطلنطي أن يراقب ما يجري في بقية العالم ليطمئن إلى أن سكان « الريف » لا يبتلون « الحضر » بكل أنواع المساوئ المادية والفكرية ؟ إن بلدًا مثل الصين رأى عصرًا من الاستبداد وصل فيه

ماوتس توخ إلى رتبة الآلهة ، وبقى أن نعرف أن عشرين مليونًا هلكوا جوعًا نتيجة «للقفزة الهائلة إلى الأمام» التى سنها لهم هذا المستبد ، أما عن مشروعات التصنيع التى يأتى أمثال هذا الحاكم بأحلامها والتى يوحون للناس معها بأن الدنيا والحياة والقوانين كلها تخضع لقراراتهم ، فخذ هذه الفقرة من مقال نشرته مجلة الايكونومست سنة ١٩٩٠ : «إن قذارة الهواء فى بكين تبلغ ست عشرة مرة قدر نظيرها فى نيويورك ، أما التلوث من الصناعة فيصل إلى خمس وثلاثين مرة قدر نظيره فى لندن» »، أما مجمل النتاج القومى فى الصين فهو لا يصل إلى ثلاثمائة دولار سنويًا للفرد وهو خمسة آلاف فى كوريا الجنوبية التى هى شعب يشبه الصين فى أمور كثيرة وكان فى الحضيض لغاية منتصف الخمسينيات، تعداد شعب الصين حاليًا ١,٢٣٥ ألف مليون ، وكان يمكن أن يكون قد وصل إلى مليار ونصف لولا إجراءات تنظيم الأسرة وإن لم تكن هذه كلها خيرًا، فقد دأبت لجان الحزب على مراقبة كل أسرة فى كل حى ، فإذا جاءهم مولود واحد فلا بأس ، أما الثانى فمصيره الإجهاض، سواء برغبة الأم عندما تعرف أن القادم المنتظر أنثى ثانية، بعد أن فاتها إجهاض الأولى أو إغراقها فى أقرب نهر أو إلقاؤها فى مقلب زبالة أو حرقها فى فرن ، أو بواسطة اللجنة التى تنقض بالعصى على الأم لتحقيق الهدفين بضربة واحدة : التأديب والتخلُّص من هذا الفم الجديد الذى يهدد مالية الحزب وامتيازات زعمائه، تمضى الايكونومست فتقول : (ونحن لا نستشهد بها كمصدر موثوق به فقط لدينا القدرة على تقييمه) : «إن ما ينادى به بنج (الزعيم الراحل الآن) من رفع مجمل الناتج القومى للفرد بمقدار ألف دولار سنويًا، باستخدام الموارد الذاتية بما فى ذلك فحم يحتوى على رماد نسبته ٢٧ ٪ وكبريت ٥ ٪ يتجاهل حقيقة أن الكارثة تتمثل فى أن أية معجزة تلزم لتحسين أحوال المعيشة لابد أن تؤدى إلى تلوث قاتل" .

الهند والصين

الذى يجعل هذين البلدين ينضمان معًا فى نطاق هذا الحديث ، أى يمثلان بقعة متميزة على سطح الأرض ، هو أن بينهما أمورًا مشتركة كثيرة ، مع وجود فوارق كثيرة أيضًا ، ولكن الفوارق ماتزال تجعل المصير الحضارى واحدًا .

يقدر الخبراء أنه بمجىء سنة ٢٠٢٥ سيكون تعداد كل منهما قد أصبح مليارًا ونصف وأن المجموع – وهو ثلاثة آلاف مليون – سيبلغ إذ ذاك ٣٥ ٪ من مجموع سكان العالم ، وأنه لا تسود فى أى منهما ديانة سماوية ، وبالتالى فإنه – من جهة – يمكن لأى منهما أن تكافح من أجل الحد من التكاثر بوسائل لا تسمح بها دولة مسلمة مثلاً ، وقد فعلت كل منهما ما فى وسعها فى سبيل ذلك بعد أن أفلت الزمام ، ومن جهة أخرى ، فإن الافتقار إلى ديانة سماوية يجعل المبادئ الأخلاقية التى تحكم علاقة الرجل بالمرأة فى الشرائع المسيحية والإسلامية ليس من الضرورى أن تتمثل هنا وإن كانت البوذية أو الهندوكية ماتزال من المواثيق الأخلاقية التى تحض على الفضيلة ، بعبارة أخرى ، إذا كان التحول (ولن نقول التقدم) الذى اجتازته نمور شرق آسيا كان احتذاء لنموذج الغرب الأوروبى والأمريكى ، وإذا كان هذا النمط فى الحياة جاءت به الصناعة من الوجهة العملية ، والبراجماتية من الوجهة الفكرية ، فالنتيجة هى أن الحياة فى الغرب أصبحت تتميز فى هذا المجال بدرجة غير مسبوقة من الحرية الشخصية سواء للرجل أو المرأة ، وأصبح سلوك المرأة البالغ أمرًا يخصها وحدها لا يحق لأسرة ولا لحكومة ولا لمجتمع أن يسائلها فيه برغم انتشار المذاهب المسيحية فى كل أوروبا وأمريكا. مثل هذا التحول السلوكى جاء لبلدان النمور بسهولة تامة فى غيبة عقيدة دينية تنص على العقوبة فى الدنيا والآخرة لكل من ينتهج هذا

السلوك . وفيما نظن فإنه فى المجتمعات الإسلامية يقف الزعماء والمفكرون موقف الاعتراض من التحديث لأنه حتى لو نجحنا فيه فإنه سوف يأتى بهذا النمط من الحياة ، ولو أن الرخاء حل ببلدان هى الآن فقيرة ، لجرفها هذا التيار كما حدث فى أوروبا حيث الديانة السائدة تتعارض معه ، ومما يعطى قيمة لهذا الرأى أن المترفين فى بلداننا ينقادون للتيار الغربى السائد بفضل ما فى جيوبهم من وسائله .

(هذا طبعًا مع إدراكنا لحقيقة أنه يوجد ما يقرب من ٩٠ مليون مسلم فى الهند وربما نصف هذا العدد فى الصين) .

خلاصة القول أن الذين يتنباون بأن الصين سوف تصبح واحدة من النمور والهند كذلك ... يتصورون أمورًا هى المستحيل بعينه . وقد رأينا الصين أخيرًا وهى تفيق من هذا الوهم وتتلفت حولها باحثة عن فريسة أخرى هى تايوان طبعًا . إن ما يميز النمور سواء الدول أو الحيوانات - هو خفة الحركة والقدرة على الوثب وتناسب الوزن الكلى مع الذكاء والقدرة العضلية . من الخطأ أن ننكر أن هذين البلدين لا يفتقران إلى الذكاء ، وهو نوع الذكاء الذى يؤدى إلى الجدية وليس إلى الهزلية التى تسود فى أغلب بلدان العالم الثالث والتهريج والفساد الذى هو شريعة الإدارة الحكومية فى غالبيتها ، كما أن كلا منهما قد قدم للعالم صفا طويلاً من الحكماء والعلماء والأساتذة والباحثين ، ليسوا كلهم مهاجرين ، وإن فى كل منهما جامعات راقية ومتطورة ، ولكن الحقيقة تبقى وهى الفارق بين « النمورة » بفتح الواو والراء و« التنمُّر » ، الشروط هى :

دخل يحصل عليه الفرد من نشاطه يعادل ما فى بقية العالم المتقدم ، درجة قصوى من الحرية الاجتماعية والفكرية والسياسية (هذه الأخيرة لاتزال فى دور التطور فى بلدان النمور) ثم نسبة « صحية » من « المعالين » أو

الذين هم عالة على غيرهم أو على المجتمع سواء بسبب صغر السن أو البطالة أو العجز أو الأمية المهنية (وليس التعليمية) . وهذا بالطبع سيكون متضمنًا في المعيار الأول وهو دخل الفرد . إذا لم تتوفر هذه الشروط فإن النمر سيجد نفسه قابعًا داخل جسم فيل هائل الحجم يحاول أن يقفز فيعجز ، ويضطر للاعتماد على زلومته مرة أخرى ، وتستوى الهند والصين فى ذلك مع اختلاف النظامين ، ولسنا نقول بأن المميزات التى يحصل عليها الفرد فى النمط الغربى من الحياة تأتى بدون نواتج جانبية ، فالحريات الممنوحة للفرد - والتى تصل فى بعض البلاد إلى حرية الموت المريح مثلاً ، والتى يقال أنها تقدم للمشاهير والأثرياء الذين يمرضون بالسرطان أو غيره ، ويقال أن منهم جاكلين كنيدى والرئيس السابق نيكسون - هذه الحريات تؤدى إلى تجاوزات وبشاعات عديدة ، تجد سفاحًا يقتل الأطفال وآخر يفترسهم ، ثم يعترف بجرائمه ويأتى بمحام بارع يخرجه كالشعرة من العجين اعتماداً على أمور من نوع حقوق الإنسان ومعها تقنيات قانونية أو مهزلة نظام المحلفين كما فى حالة نجم الكرة أو جى سمبسون الذى برأه المحلفون من تهمة القتل الواضحة ثم أدانته محكمة مدنية وحكمت عليه بتعويضات نظير قتله لزوجته السابقة وصديقها ، فانظر أى عبث وأى سفه يسود النظام القضائى والجنائى عندهم . إن الذى يحدد مصير المتهم ليس هيئة من القضاة بل حفنة من الحلاقين والبقالين وكل أنواع المهنيين الذين لا كفاءة لديهم فى هذا .

العالم الإسلامى

تتميز الشريعة الإسلامية من دون جميع الشرائع بنصوص كاملة ومحققة من القرآن الكريم والحديث والسنة ، وبأن هذا الميثاق المقدس المتكامل يضم أمور الدنيا مع أمور العبادة ، فهى لا تأتى بمجرد أحكام العبادة – وهى علاقة الإنسان بخالقه – بل وأحكام المجتمع والحياة أى علاقة الإنسان بغيره من الناس والأشياء . فالكتاب الكريم ينص فى وضوح قاطع على أحكام الزواج والطلاق والإرث ومعاملة النساء . بحيث يسهل على أى فرد كان أن يعترض على أى محاولة لتغيير هذه الأوضاع . أضف إلى أنه بخلاف دول الخليج الست – والتى تنعم بمستوى معيشة متميز ينتج عن الثروة البترولية وحدها ، وهى ما تشاركها فيها قائمة طويلة من دول آسيا وأفريقيا تعانى من ألعن ظواهر الفقر السائدة – بخلاف دول الخليج فإن المعيشة فى أدنى المستويات العالمية ، والبطالة منتشرة بين الشباب ومعها إحساس قاتل باليأس والحرمان ، المشكلة هنا هى أن هناك رفضًا قاطعًا لأفكار الديموقراطية والدولة العلمانية والمجتمع الغربى من أساسها ، ومعها كل ما يأتى مع التصنيع والرأسمالية واقتصاديات السوق ، وعندما فرضت هذه الأفكار بالقوة فى تركيا فإننا جميعاً نتابع الأحداث التى تجرى فيها الآن والتى نتوقع أن تسفر عن أمور بالغة الخطورة ، خصوصًا وأن القوى المعادية للإسلام (وهذه ليست شيئًا جديداً فعمرها هو عمر الإسلام نفسه ، وما عليك إلاّ أن تراجع التاريخ منذ الهجرة إلى الحروب الصليبية إلى محاكم التفتيش إلى حملة نابليون على مصر إلى حملة اللنبى على فلسطين إلى مجىء إسرائيل الحديثة) هذه القوى لا تجد صعوبة كبرى فى تصوير الإسلام المعاصر بالصورة التى تجعل أوروبا ترفض تركيا وتجعلها « ترقص على السلالم» لا أظن دولة إسلامية على ظهر الأرض سوف تستطيع أو سوف

تريد أو سوف تجرؤ على تكرار تجربة تركيا ! تركيا نفسها قد لا تستطيع أن تستمر فى تجربتها ، ومع الرفض المتزايد للحضارة المعاصرة – وهو أمر ليس عسيراً لمن يريده مع مترتبات هذه الحضارة كما أوردناها فيما سبق – فأى مذهب سياسى تمكن يا ترى الدعوة إليه؟ الماركسية لم تفشل فحسب ، بل هى الكفر بعينه . الفاشية تستلزم « شيئًا » يمكن الالتفاف حوله أو بطلاً يستحق أن يعبد من دون الله ، الديموقراطية مرفوضة أصلاً كجزء من حضارة الغرب فضلاً عن صعوبة – أو ربما استحالة تطبيقها فى دول فقيرة أو متضخمة التعداد، وقد دأب أنصارها على الاستشهاد بتجربة الهند فى الديموقراطية ولا يعلم إلاَّ الله مصير هذه التجربة التى بدأت تتحول إلى نظام وراثى ، فماذا بقى ؟ الحاكم الذى هو ظل الله على الأرض ، وهو ليس فى حاجة لتبرير منظومة الحكم التى يستخدمها ، فهى ليست سوى شرع الله ، كما يراه هو والمحيطون به ، وهو أيضًا لا يسمح بالمعارضة ، يصفها بأنها مروق وكفر ، وهذا هو ما يدور الآن فى أفغانستان وإيران وإلى درجة ما فى السودان .

أفريقيا

الرافضون للحضارة الأوروبية ولنمط الحياة الذى جاءت به ، يحبون دائمًا أن يركزوا على سلبياتها : المخدرات ، الإيدز ، ناسين أن المخدرات ليست شيئًا جديداً على البشرية وإن اكتشاف فيروس الإيدز ثم العلاج الناجع له – وهو ما سيأتى حتمًا بمضي الوقت واستمرار المحاولة – سيأتى من عندهم ، أما مصدر الفيروس فلا يمكن القطع بانه جاء من هناك ؟

ثم هناك آفة الانتحار وآفة الطلاق . انظر السويد ، لديها أعلى نسبة انتحار فى العالم وفى أمريكا نسبة الطلاق ٥٠ ٪ أو ربما أكثر . هنا أيضًا

ينسون أن اليأس من الزواج واليأس من الحياة ينتشران فى كل أنحاء العالم ، ولو كانت المرأة الأفريقية تستطيع أن تحصل على الطلاق من زوج تجده كريهًا ، أو أن تتخلص من حياة لا تحتمل ، أو لو أن المرأة السويدية وجدت نفسها تعيش ظروف المرأة الأفريقية ، لكان منظر العالم قد اختلف كثيراً .

عندما نتحدث عن أفريقيا فنحن نستبعد ساحلها الشمالى فهذه دول عربية إسلامية ، كما نستبعد دولة جنوب أفريقيا فهذه مانزال (ولو مؤقتًا) مجتمعًا ينتمى لحضارة أوروبا وإن كان مواطنوه الأفريقيون فى حال تختلف عن حال البيض طبعًا ، نحن إذن نتحدث عن أفريقيا السوداء كما أسموها ، تلك التى صاح بها الفيتورى منذ أربعين عامًا فى ديوانه "أغانى أفريقيا"

أفريقيا ! أفريقيا استيقظى !

واستيقظت ، ويالها من صحوة من حلم جميل ، على كابوس الواقع الثقيل ... من بلجيكو ... إلى سيسى سيكو ، يا قلبى لا تحزن !

مطلوب من المرأة الأفريقية ، بعد مط الشفاه وتقطيع الأعضاء أن تتحول إلى فيلة آدمية تمشى والركاب من الصغار التعساء على كتفيها وعلى ظهرها وفى يديها وداخل رحمها بالفرد والجوز، وإذا انقطع الإنتاج فقد تلبسها عفريت هو الذى فعل بها هذا ولكل عقيدة أسلوبها فى طرد العفاريت .

حدود الدول جاءت من مغامرات المستعمرين ، وهى ليست قبلية ولا ثقافية، وهكذا فهى تضم الهوتو على التوتسى لكى ياكل بعضهم بعضا .

من الظلم أن نقارن بين المرأة الأفريقية ونظيرتها الأمريكية مثلاً التى قد يفقد وزير الحربية وظيفته لو ثبت أنه فوت عليها فرصة الترقى إلى وظيفة قائد القوات الجوية أو رفض قبول النساء فى وظائف من نوع مدرب كاراتيه أو طيار مقاتل ، لمجرد أنهن نساء . دعونا نقارن أفريقيا بدول كانت هى أيضًا مستعمرات إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، متوسط الدخل السنوى للفرد

فى النيجر (٣٠٠) دولار سنويًا ، فى سنغافورة (٩٢٠٠) ، نسبة الأمية فى النيجر ٨٦٪ ، فى سنغافورة ١٤٪ . متوسط طول العمر فى النيجر (٥٤) ، فى سنغافورة (٧٣) . اكتشف الأوروبيون أمصال الملاريا وغيرها من وسائل مكافحة الأوبئة التى تفتك بأطفال أفريقيا ، مما حد كثيراً من وفيات الأطفال بالطبع ، ولكن النتائج دائمًا سلبية ، على مدى ثلاثين سنة زاد تعداد سكان أفريقيا من ٢٨١ مليون إلى ٦٤٧ مليون فى ١٩٩٠ ، والتناسل هو مصدر الفخر الوحيد ، والإيدز ينتشر بين رجال يصرون على أن هذا الداء المخيف يأتى من العفاريت . التعليم يتمثل فى مقارنة أخرى ، مع اليابان هذه المرة ، حيث عدد العلماء والمهندسين لكل مليون فرد هو (٣٧٠٠) ، نظيره فى أفريقيا (٥٣) الولايات المتحدة تنفق ٢٠٠ دولار سنويًا للفرد ، على جهود البحوث والتنمية هذا الرقم فى أفريقيا ... دولار واحد للفرد ، المجهود كله يوجه إلى الصراع بين أمثال تشومبى وموبوتو وعيديد وصنديد ونطاط الحيط . بمجىء سنة ٢٠٢٥ ستكون كل هذه الأرقام أسوأ بكثير مما هي عليه الآن .

* **خريطة العالم :**

يبدو عالم الغد إذن على هذه الصورة : النصف الشمالى من الكوكب وله ملحقات فى نصفه الجنوبى ، دنيا الخواجات ، حضارة مستمدة من المعرفة واستخداماتها البراجماتية من أجل حياة قوامها حرية غير مسبوقة سواء للرجل أو المرأة ، كل منهما يفكر ويتحدث كما يشاء فى أى موضوع، ويتصرف فى حياته الخاصة كما يشاء ، واستمتاع غير مسبوق بالحياة الفكرية والعلمية والفنون والجماليات . الفئة الثانية تدخل معه فى سباق من أجل هذه القيم ذاتها ولكنه سباق الأفيال مع النمور ، وبرغم الجدية

التى تستحق التقدير ، فإنه فى حلبة السباق لا يستطيع الجرى إلا الحصان الطليق وليس المربوط فى عربة جر ثقيلة . الفئة الثالثة لا تدخل السباق لأنها ليست راغبة فى نتائجه لأسباب عديدة على رأسها المرأة ، فهذه ليست لها حقوق لأنها هى باكملها ليست سوى واحد من حقوق الرجل ، وهو رجل كالتلميذ الخائب الذى يهرب من المدرسة بحجة أن المناهج فاسدة والمدرسون جهلة ، وبذلك فهو يريح نفسه من مشقة الاستذكار ثم دخول امتحان هو راسب فيه لا محالة . الملذات كلها حسية وتمارس بجهالة وخيبة، المرأة ليست فى تعاسة الأفريقية ولكنها فى الطريق إليها ، لاحق لها فى أى متعة ، هى نفسها أداة متعة ، وإلا فشفرة القطع موجودة ، أما الفئة الرابعة فهذه مظلمة سحيقة ، إن كانت الأولى تنال كل ما تعطيه الدنيا ، والثانية تظل تحلم بذلك ، والثالثة عزاؤها الآخرة فهذه لا أمل لها فى دنيا ولا آخرة .

...كلمة أخيرة

* الخير والشر يتعاقبان وينتج أحدهما عن الآخر ، الصناعة جاءت بالرخاء والرفاهية وأيضاً بالتلوث ، والمضادات الحيوية جاءت بجراثيم عديدة يصعب إخمادها ، ولكن التطور يمضى فى طريقه مهما فعلنا .

* الحرية تؤدى إلى ارتفاع معدلات الجريمة وتزايد العنف ، وعندما تتوافق مع الرخاء فهنا يأتى تجار المخدرات والدعارة ليصادروا أرواح الشباب - الحل هو إنماء الرغبة فى المعرفة والفنون وتحقيق العدالة التى تأتى من الامتياز وليس من الشعوذة السياسية والدعائية ، الحد من التكاثر ضرورة لا غنى عنها ، ولعلها الشىء الوحيد الذى هو خير كله .

* الدنيا فيها أقوياء وضعفاء ، هذا لعوامل كثيرة منها الفروق الفردية والتاريخية والثقافية ، مناطحة الأقوياء من جانب الضعفاء ليست هى الحل الأمثل ، خصوصاً وأن القوة تتأتى من المعرفة قبل أى شىء آخر ، فالإنسان لا تتطور قواه المادية ، قواه العقلية هى التى تتطور ، وهو يستطيع أن يصرع أعتى الوحوش بالسلاح الذى ابتدعه بالمعرفة ويستخدمه بالعقل ، ولكنه لا يستطيع ذلك بعضلاته . الصراع الوحشى مع الأقوياء ومع الأثرياء ، هم الذين ينتصرون فيه ، من أروع الأمثلة : الهنود الحمر فى مواجهة المستوطنين البيض ، كفاح الزنوج ضد التفرقة العنصرية فى امريكا ، ثم اليابان فى الحرب العالمية الثانية . فى الحالة الأولى كان الفناء العددى والحضارى برغم الشجاعة الفائقة ، فى الحالة الثانية حقق المضطهدون تقدماً وصل إلى حد أن ملكوا ناصية الفنون والرياضة وأصبحت التفرقة جريمة يعاقب عليها القانون ، فى الثالثة حارب اليابانيون بدرجة من الشجاعة

والفداء لم تعرفها البشرية فى تاريخها، ثم تقبلوا الهزيمة والاحتلال وفى بضع سنوات تربعوا على قمة الصناعة وسادوا أسواق العالم. ليس هناك خير يأتى للشعوب من مناطحة القوى العظمى ، خصوصًا عندما يشترون السلاح من نفس هذه القوى ويريدون منها أن تدربهم على استعماله .

الغيرة دافع قوى يعتمل فى أعماق كل فرد وكل جماعة ، ويمكن أن يكون حافزًا للتقدم ، ويمكن أيضًا أن يستغله الدجالون السياسيون فى التغرير بالناس ودروشتهم ، بعقيدة سماوية أو أرضية

* هناك مصدران للقوة فى هذه الحياة : المال والسلطة . إدماجهما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لمجتمع . السلطة تقتصر على تنظيم امتلاك المال وتداوله وتحقيق الأمن ، ولابد من تهذيبها بدرجة من حرية الصحافة على الأقل ، ودرجة من المعارضة ، أما المال فيكون تهذيبه بالقانون وأيضًا بحرية الرأى . لاضمان لهذا وذاك، التجاوزات ستظل تحدث ، ولكن الموت ليس هو السبيل الوحيد للتخلص من المرض .

ومن الغريب أن نجد حتى مفكرًا عظيمًا مثل راسل يحذر من اتحاد السلطة مع المال ، وفى ذات الوقت يدعو إلى الملكية العامة لوسائل الإنتاج ، وهى "ذلك نفسه" ! إن السلطة - عندما تكون مطلقة تأتى بالفساد المطلق كما قيل ، لأنها تأتى صاحبها بمال أوفر من مال قارون ، وبوسيلة أعجب من حجر الفيلسوف! وإذا كنت مصرًا على الأمثلة قارن بين هنرى فورد، الذى كان حلمه أن يصبح عمال مصانعه أصحاب سيارات ، وبين يوسف ستالين الذى أهلك الملايين من أبناء شعبه فى حفر قناة وهمية تسمى باسمه ، لمجرد أن يبعدهم لكى يستتب له الأمر ، ستة ملايين هلكوا بهذه الطريقة.

* الرغبة فى الجنس الآخر ليست أمرًا مخجلاً وليست رذيلة يعاقب عليها الشباب ، إنها ليست سوى الاستجابة لإرادة الخالق وهى وسيلته

لاستمرار الخليقة ، ومع إدراكنا لأهمية القدرة على كبح النفس ، وهى أيضاً خاصية اختصنا بها الخالق من دون مخلوقاته ، فهذه القدرة لها حدود من الزمن والمكان ، وإذا فرضناها على الشباب قسراً - إن كان هذا ممكناً - فسوف لا يكونون أصحاء جسمانياً ولا نفسانياً الحل هو أولاً نحد من أعداد هؤلاء الشباب بكل وسيلة تتاح لنا ، ثانياً : نوفر لهم الوسيلة إلى رواج بسيط ومتواضع ، فلا حيلة لنا فيما حل بنا من الفقر ولا عمر الله لمن تسببوا فيه ، ثم ثالثاً : نعلمهم كيف يؤجلون الإنجاب ويحدون منه ، نحن فى حاجة إلى مليون كريمة مختار . لن تنحل المشكلة بالشكل الذى يرضينا طبعاً ، الواقع أن المشكلات لا تنحل (برغم محاضراتى وكتاباتى فى حل المشكلات !) وحتى عندما تنحل فالحل نفسه يأتى بواقع جديد ينطوى على مشكلات جديدة . هذه شريعة الحياة .

تتمثل سعادة المجتمع فى مقياسين يأتيان على قمة المقاييس : حالة المرأة ومستوى الفنون . تعاسة المرأة وعبوديتها وامتهانها ، لاتؤدى إلا إلى تعاسة الجميع وعبوديتهم وهوانهم . وانحطاط الفنون تعبير عن افتقاد الإحساس بالجمال ، وهذا - فى حد ذاته - يصلح تعبيراً عن التعاسة

* مهمة الحكومة هى تحقيق الأمن ومكافحة العنف والجريمة والأوبئة و"إدارة الأزمات" كما تسمى فى علم الإدارة . وفيما عدا ذلك فقد لا يكون هناك لزوم لها ، ولكن ذلك يشمل تهذيب الرأسمالية ومنعها من الطغيان على خلق الله ، وحتى هنا ، ما الغرض من جباية الضرائب ؟ إنه خدمة الفقراء بصفة خاصة ، بتوفير التعليم والصحة لمن لا يقدرون على دفع الثمن ، ثم تحسين بيئة المجتمع كله فإذا لم يكن هذا سيحدث ، فإن أخذ الضرائب من أرباح مؤسسات الأعمال لن يكون إلا حداً لقدرتها على الابتكار والامتياز وعلى توفير فرص العمل . ولذلك فإنه على رجال

الحكم أن يتسلحوا بعقلية رجل الأعمال ، لا رجل السلطة ، وأن تكون شريعتهم هى الكفاءة فى تحقيق الأهداف بأدنى تكلفة ، وليس "المنجهة" والسفاهة التى تأتى من البيروقراطية الغبية والشلل الإدارى .

برغم النفور المزروع فى نفوسنا والداء الذى جاءنا من دراويش الزعامة وأنصارهم ، فلا بديل عن اقتصاديات السوق مع درجة ممكنة من الديمقراطية التعددية . ولدينا أمثلة بمعدل مثال لكل مواطن ، للنجاح هنا والفشل هناك . إلا أن وعى الشعوب هو المحك الأخير ، والمعرفة هى سلاح الإنسان ، وعلينا أن نرتقى بها إلى أن تقترب من مستوى العالم المتطور . ليس المهم هو من يدخلون الجامعات ، المهم هو مستوى هذه الجامعات ، بحوثها ، أساتذتها ... إلخ ، وبكل تأكيد ... عندما نريد أن نكون شعبًا كله من المهندسين والأطباء ، فهذا هو الطريق إلى انعدام الطب واختفاء الهندسة .

* نظام الحكم ليس كل شىء ، فهناك شخصية الحاكم وعقليته ، تمامًا كما فى إدارة المؤسسات ، فالرؤساء يتعاقبون على إدارتها ، وبرغم ثبات نظم المؤسسات وثقافاتها ، فالنتائج تختلف باختلاف براعة المديرين وإخلاصهم ، وهذه هى أبعاد إدارة المجتمعات أيضًا ، وعلى الحاكم أن يكون مؤمنًا بخير شعبه راغبًا فى تحقيقه ، وأن يتسلح هو بالكفاءة ويعتمد على الأكفاء . برغم فاشية فرانكو كانت كفاءته وإخلاصه سبيلاً إلى جلب الرخاء والتقدم لبلاده ، وهو بصفة خاصة ترك الرأسمالية والإدارة العلمية تعمل ولم يحاول أن يخضع رأس المال لأهوائه ، وهو ما شاركه فيه النازيون، ولكنهم ارتكبوا الخطيئة الكبرى وهى الحرب ، بينما تجنبها هو ، وقد جاء إلى السلطة نتيجة الحرب طبعًا ، ورأى أن شعبه ذاق ما يكفى .

يقودنا هذا إلى الحرب ، التى وصفها زهير بن أبى سلمى فى معلقته

قائلاً أنها "ما علمتم وذقتمو !" الحرب عادة تدور بين طرفين ، أحدهما حاكم متأله ، والثانى يدافع عن نفسه ، وأحيانًا تكون بين حاكمين متألهين، كما فى الحرب العالمية الثانية ، وكل منهما مثل هتلر وستالين يتسلح بأيديولوجية هى معادلة النعيم المقيم ، النعيم لهذا الحاكم وليس لشعبه . الشعوب هى دائمًا ضحية الحرب ، والأيديولوجية .

* الإيمان بأيديولوجية اجتماعية سياسية هى حل دائم وكامل لمعادلة الحياة ، هو الاستسلام العقلى ، أن يتخلى الإنسان عن عقله كما يتخلى الجندى عن سلاحه ، حتى المفكر يخضع للسطوة كما كان فى "الواقعية الاشتراكية" فى الاتحاد السوفيتى . الأيديولوجية ليست سوى أداة السلطة فى إخضاع البشر وإفقارهم وإذلالهم لكى يسهل التحكم فيهم .

* كما عاشت البشرية عصور الفراعنة والرومان والإغريق .. لغاية الإنجليز والفرنسيين . . . فإنها تعيش عصر القوى الصناعية السبع وحلف الأطلنطى . وإذا عقدنا مقارنة تاريخية فإننا سنجد أن القوة المعاصرة ليست بالضرورة أفضل الجميع ، ولكنها على الأقل أقلها شرًا وقسوة . الذين يريدون أن يصفوها بالشيطنة لن تعوزهم الحجة : القنبلة الذرية مثلاً ، ناسين ومتجاهلين أن إخماد اليابان كان إنهاء لفظائع تفوق الخيال لا ينكرها اليابانيون أنفسهم . حتى التدخل فى البوسنة وكوسوفو ليس إلا بسطًا للهيمنة الأمريكية . كل هؤلاء بشر فيهم كل مكونات الإنسان من خير وشر ، وأنا لا أحكم على المؤسسة الأمريكية بسلوكها نحو أعدائها ، بل بسلوكها نحو شعبها ، وهى قد أوصلت المواطن الأمريكى إلى مستوى غير مسبوق من الرخاء والحرية والمعرفة ، وبذلك جعلته إنسانًا سعيداً والإنسان السعيد يكون دائمًا أكثر إنسانية فى معاملة غيره من التعيس . وعندما نتحدث عن الإنسان الأمريكى فنحن نتحدث عن العينة التى تمثله ، فى

استطاعتنا طبعًا أن ننتقى من نشاء من النماذج : المجرمون والشواذ والمدمنون، هؤلاء يوجدون فى كل مجتمع ومن الظلم - ومن الجهل والحماقة أيضًا - أن نضع أصابعنا عليهم ونصر على أنهم هم الذين يمثلون الكل . الحلقات البوليسية فى التلفزيون هى المسئولة عن هذه الصورة القبيحة ، فقط إذا رجعت إلى الأدب الأمريكى الرفيع فسوف تعرف أى دور لعبه هؤلاء الكتاب فى تحرير العبيد وفضح الجريمة المنظمة وتعرية المجتمع، لا من أجل تحطيمه بل من أجل تصحيحه . وفى جميع الحالات ، فإن إثارة السخط على القوى المهيمنة على هذا العصر لن ياتى الشعوب إلا بمزيد من التخلف والتعاسة . . .الطريق الصحيح هو أن نتعامل مع هذه القوى بمعقولية وواقعية ، وأن نتسلح فى مواجهتها بسلاحها ، وهو ليس القنابل الميكروبية أوالكيميائية ، إنه المعرفة التى تاتى بها وتحقق الاستغناء عنها .

الفهرس

من قائمة الإصدارات

موسوعة تاريخ حضارات العالم   ترجمة : زينات الصباغ

اعلام النهضة العربية الإسلامية فى العصر الحديث   صلاح زكى

تاريخ العلم   د. عبد الحكيم بدران

العلوم للجماهير   باربارا كاستيل ترجمة د.عبد الحكيم بدران

رسالة إلى العقل العربي   د. عبد الحكيم بدران

خيانة المثقفين   د. عبد الحكيم بدران

صراع الحضارات (إثبات الأنا ونفي الآخر)   شعيب عبد الفتاح

الجات والتبعية الثقافية   د. مصطفى عبد الغني

حقيقة الغرب   د. مصطفى عبد الغني

صورة العرب في الغرب   د. عزة علي عزت

خفايا المستقبل إلى اين تمضي البشرية واين موقعنا   محمد الخليلي

المياه العربية بين خطر العجز ومخاطر التبعية   عبد الله المقالي

العرب وإسرائيل ـ ميزان القوى ومستقبل المواجهة   د. محمد عبد الشفيع

السلام الإسرائيلي (قراءة فى المشروعات الاسرائيلية)   حسين معلوم

السوق الشرق أوسطية (من هرتزل إلى باراك)   إكرام عبد الرحيم

البديل الإسرائيلي للعروبة   سيد زهران

مشروع للانتحار القومي !   مصباح قطب

السلام الفتاك   محمد خليفة

أوهام السلام   عبد الخالق فاروق

في جنازة المقاطعة العربية لإسرائيل   شفيق أحمد علي

الملف السري للسادات والتطبيع   شفيق أحمد علي

مخابرات ومخدرات   شفيق أحمد علي

عبادة الشيطان علي ضفاف النيل   حسين عبد الواحد

الماسونية   خليل إبراهيم حسونة

الحركات الهدامة   خليل إبراهيم حسونة

الصهيونية السياسية   خليل إبراهيم حسونة

العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني   خليل إبراهيم حسونة

الاستيطان الصهيوني   خليل إبراهيم حسونة

الإرهاب الأمريكي   خليل إبراهيم حسونة

القدس   خليل إبراهيم حسونة

حماس ـ حركة المقاومة الإسلامية   خالد أبو العمرين

يهود ضد إسرائيل   ياسر حسين

حلف الضحية والجلاد   ترجمة : زينات الصباغ

التواطؤ الصهيوني النازي   بن هخت ترجمة : حمدي متولي

غزة أريحا - المأزق والخلاص   عبد القادر ياسين

غزة أريحا - التسوية المستحيلة   جورج المصرى

صفقة التسوية الأردنية الإسرائيلية   د. السيد عوض

أساطير التوراة   عاطف عبد الغني

التناقض في تواريخ وأحداث التوراة   محمد قاسم

بروتوكولات حكماء صهيون

التلمود

الحرب العالمية الرابعة   ياسر حسين

القوة العسكرية الإسرائيلية   جمال الدين حسين

سقوط نجم مخابرات إسرائيل   جمال الدين حسين

عملية السرب الأحمر   جمال الدين حسين

الاختراق الإسرائيلي للزراعة في مصر   صلاح بديوى

اختراق الأمن الوطني المصري   عبد الخالق فاروق

أسرار الجاسوسية ولعبة المخابرات   يوسف هلال

الجماعات السياسية الإسلامية والمجتمع المدني المصري.   أحمد حسين حسن

جماعات المصالح المصرية والسلطة السياسية   د. أحمد فارس

أزمة الانتماء في مصر   عبد الخالق فاروق

التطرف الديني ومستقبل التغيير في مصر   عبد الخالق فاروق

كارثة المعونة الأمريكية   جمال غيطاس

قضية لوكيربي وأحكام القانون الدولى   د. ميلود المهذبي

ازمة لوكيربي والخروج من بيت الطاعة الأمريكى   د. السيد عوض

العلاقات الليبية - الأمريكية   د. السيد عوض

بان أمريكان ١٠٣ (اتهام ليبيا ام اتهام امريكا)   مجموعة باحثين

حلايب .. نزاع الحدود بين مصر والسودان   أحمد محجوب

الإخوان والعسكر   حيدر طه

القوي الخارجية والاتجاهات الإقليمية في السودان   د. السيد فليفل

نظم الحكم العنصرية في جنوب أفريقيا   د. السيد فليفل

الشيشان   عمرو ناصف

أيام الفزع في الجزائر   خالد عمر بن ققه

رئيس علي موعد مع الموت   خالد عمر بن ققه

الإسلام والعرش   سيد زهران

من يحمي عروش الخليج (النفط والتبعية)   د. أحمد ثابت

إعدام صحفي   سعيد حبيب

الكرامة الضائعة   حمادة إمام

الكتاب	المؤلف
الإخوان والأمريكان من المنشية إلى المنصة	حمادة إمام
عبد الناصر واليمن	د. عبد العزيز المقالح
عبد الناصر ـ هذا المواطن	سليمان الحكيم
حوارات عن عبد الناصر	سليمان الحكيم
عبد الناصر ـ والإخوان (أسرار العلاقة الخاصة)	سليمان الحكيم
المرأة التي أحبها عبد الناصر	شفيق أحمد على
ظل الرئيس (مذكرات محمود الجيار مدير مكتب ناصر)	عزازى على عزازى
عبد الناصر وعبد الحليم والزمن الجميل	حسن صابر
البديل الناصري (قراءة في أوراق التنظيم الناصرى)	سيد زهران
عن الناصرية والناصريين (حوار مع د. الأتاسي)	مجدى رياض
الأقليات التاريخية في الوطن العربى	د. أحمد الصاوي
الناصرية والتاريخ	سيد حسان
الناصرية ـ الأيديولوجيا والمنهج	سيد زهران
التنمية المستقلة في النموذج الناصرى	جورج المصري
فلسطين الانتفاضة ـ جدل الوطن والأمة	د. أحمد ثابت
كاريزما الزعامة الناصرية	د. السيد لزيات
الناصرية والتجديد	مجدي رياض
ناصرية جمال عبد الناصر	جورج المصرى
ناصرية الناصرية الغائبة	جورج المصري
أسرار وخفايا ثورة يوليو	محمد متولى
برلنتى والمشير (القصة الحقيقية)	محمد متولى / سيد زهران
السادات كما عرفته	سعد الدين وهبة
عشرون كتابًا من القرن الـ ٢٠	محمد الحديدى
الحركة الإسلامية في مصر "دراسة موسوعية"	صالح الورداني
الحركة الإسلامية في مصر	صالح الورداني
الكلمة والسيف"	صالح الورداني
عبود الزمر ـ حوارات ووثائق	أحمد رجب
الله واحد في الإنجيل	ترجمة : عادل حامد
المسيحية والإسلام	حسين السيد
الحكومة والسياسة في الإسلام	ترجمة : سيد حسان
الوجيز في بداية التكوين	عبد العزيز محمد ، مصطفى الخولي

الكتاب	المؤلف
رسالة التوحيد للإمام محمد عبده	تحقيق د. محمد عمارة
الإسلام والعروبة	مجدي رياض
أمن وحماية البيئة	خالد القاسمي / وجيه البعيني
الإبر الصينية في العلاج والتخدير	د. لطفي سليمان
الجنس والشباب الذكى	كولن ولسون ترجمة أحمد عمر شاهين
تجارة الجنس	جاري جوردون ترجمة زينات الصباغ
أشهر فضائح القرن العشرين	حسن صابر
أمريكا .. الانهيار السياسي والأخلاقي	حسين عبد الواحد
بنات إبليس (نساء في مملكة الشر)	حسين عبد الواحد
حسناء البنوك ومعالي الوزير	أسامة الكرم
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقًا	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
دنا فتدلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
يومية هروب	خيرى عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد
الضميرة	د. عبد الرحيم صديق
لا أحد	عبده خال
صعيدي صح	د. عزة عزت
إينارو	د. على فهمى خشيم
شغيقة وسرها الباتع	فؤاد قنديل
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
دم الأبنوس	ناجي الشكري
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس ابوليوس ترجمة د. علي فهمي خشيم
محرقة سالفونا رولا	ميلاد حكيم

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة فى الإصـــدارات لا تعـبـــر بالضـــرورة عن آراء يتـبناهـا المركـــز

للمؤلف

أعمال أدبية :

(١) أنشودة الغرباء (شعر) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .

(٢) الجدران (رواية) ، كتابات معاصرة ، ١٩٧٢ .

(٣) شبان هذه الأيام (رواية) ، كتابات معاصرة ، ١٩٧٣ .

(٤) شخص آخر فى المرآة (رواية) ، مطبوعات الجديد ، ١٩٧٥ .

(٥) قبل أن يهبط الظلام (رواية) ، دار الهلال ، ١٩٧٩ .

(٦) امرأة أخرى (رواية) كتاب اليوم ، ١٩٧٩ .

(٧) الحب رجل (رواية) ، الدار القومية للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ .

دراسات أدبية :

- نماذج من الرواية العالمية ، كتاب الهلا ل ، ١٩٧٥ .

مؤلفات ومترجمات فى الإدارة :

(١) كتابة التقارير فى الصناعة والأعمال ، الخبراء العرب فى الهندسة والإدارة ، ١٩٧٧ .

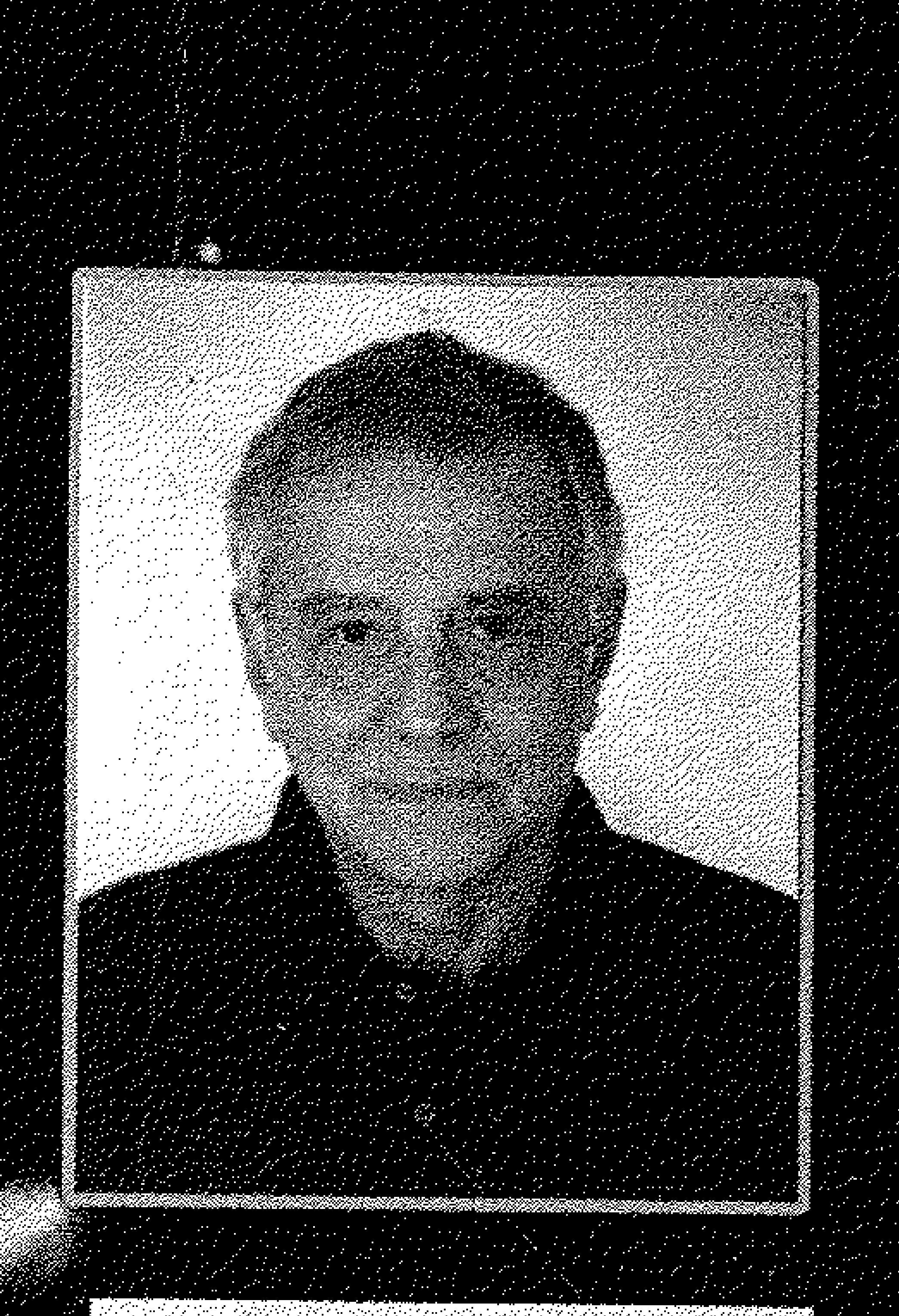
(٢) أفكار عظيمة فى الإدارة (عن الإنجليزية) ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ .

(٣) ثورة فى عالم الإدارة (عن الإنجليزية) ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٤ .

ترجمات أدبية :

- ترجمة ومراجعة ومقدمة نقدية لحوالى عشرين عملاً من الدراما العالمية لسلسلة المسرح العالمى الكويتية .

تقوم الحياة البشرية على أربع دعامات : النشاط الاقتصادى من أجل توفير أسباب المعيشة ، ونظام للإدارة .. من أجل الكفاءة والتنافس وإقرار الأمن وحفظ النظام ، ومواثيق أخلاقية واجتماعية ، وهذه هى "قيم" الإنسان بكل مستوياتها ، ثم المعرفة والفنون ، وهى التفاعل الطبيعى مع ظواهر الكون ومشاعر البشر . وعندما تعلو واحدة من هذه الأعمدة الأربعة فإن الأخرى تتوافق معها لكى يستقيم البناء . وقد أدى اكتشاف الزراعة إلى اختفاء النظام القبلى لأن الارتباط أصبح بالأرض وليس بالجماعة المتحركة ، ثم جاءت الصناعة بعالم جديد ومجتمع متغير فى الإدارة وفى القيم . نحن نعيش عصراً يقوده الجزء الصناعى ، من حيث إن المعرفة تنطلق فى سبيلها ومعها تطبيقاتها التكنولوجية التى تلقى بظلالها وتسقط بثقلها على العالم الذى لا يقود التطور ولكنه لم يستطيع أن يتجاهله ، فهو - كدول ومجتمعات - يحتاج إلى ثمار هذا التطور . ولكنه من ناحية أخرى لم يصل إليه فى تتابع تاريخى متدرج . من هنا تأتى الصدمات الثقافية ... وتجد الشعوب نفسها حائرة بين الجانب المادى ، متمثلاً فى وسائل المعيشة الحديثة ، والجانب الإنسانى ، متمثلاً فى مواثيق تتناقض مع ما يسودها من قيم ومعتقدات لا تستطيع - أو لا تريد - أن تتخلى عنها ... والراغبون فى الزعامة والسلطة ، يجدون فى هذا التناقض مادة خصبة ووسيلة ناجحة لتحقيق أحلامهم ... سواء تحت الأرض أم فوقها . هذا هو موضوع هذا الكتاب ، الذى يرى مؤلفه أنه يدور حول الإدارة بمفهومها العريض ، وهو يتناول المشكلة ، دون أن يعرض للمعالجة .



محمد الحديدي

- تخرج فى هندسة القاهرة ثم تخصص فى آليات ومعدات الإنشاء.
- انتقل إلى تخطيط وتنمية الموارد البشرية فى الصناعة ، ثم إلى علوم الإدارة بصفة عامة ، خبيراً استشارياً وكاتباً ومؤلفاً ومترجماً ومحاضراً ومديراً للعديد من مشروعات التطوير المؤسسى .
- أسهم بقدر وافر فى المجلات الأدبية والثقافية ، وله ديوان شعر ، وست روايات ، ومجموعة من القصص القصيرة ووضع كتاباً فى دراسات الرواية المعاصرة ، ترجم وراجع ما يزيد على عشرين عملا لسلسلة المسرح العالمى الكويتية وكتب لها دراسات نقدية .
- ترجم مرجعين عالميين فى الإدارة وألف كتاباً فى إعداد التقارير فى الصناعة .

مركز الحضارة العربية